أحاديث

معجزات الرسول ﷺ

التي ظهرت في زماننا

(١) الإسلام

تأليف
أ.د/ عبد المهدي عبد القادر عبد الهادي
أستاذ الحديث بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

مكتبة الإيمان
٤ ش أحمد سوكارنو - العجوزة
ت: ٣٤٥٢٣٠٢

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

رقم الإيداع : ١٧٠٦٣ / ٢٠٠١م
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
977 - 5260 - 24 - 8

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٧٨٥١

مكتبة الإيمان
٤ ش أحمد سوكارنو - العجوزة
ت: ٣٤٥٢٣٠٢

قال الله تعالى:

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

[سورة النساء: من الآية ١١٣]

وقال تعالى:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾

[سورة الجن: الآية ٢٦، ٢٧]



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله، وأصحابه، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا كتاب جمعت وشرحت فيه عددًا من الأحاديث النبوية، التى تَحَدَّث فيها رسول الله ﷺ عن زماننا وما سيحدث فيه، فوقعت كما أخبر ﷺ.

إن السنة النبوية علم تناول أحوال الأمة على طول عمرها، فكان لزماننا نصيب من أحاديث رسول الله ﷺ، يُشَخِّص الداء، ويصف الدواء.

ولقد اهتممت بهذه الأحاديث لسببين:

الأول: عظيم فائدتها لأهل زماننا، فلقد اشتملت على الزلات التى ستقع فيها الأمة، وحذرت وأنذرت، مما به توقفنا على أخطائنا، وتُقوِّم خطانا.

الثانى: أنها تزيدنا إيمانًا. فأمْرٌ يُخْبر به رسول الله ﷺ منذ أربعة عشر قرنًا (١٤٠٠ سنة) يقع الآن كما أخبر ﷺ لهو أمر يزيدنا إيمانًا:

* يزيدنا إيمانًا بأن علم الله محيط، إذ نجد ما أخبر به رسول الله عن الله يتحقق واقعًا، مما معه لا نستطيع أن نقول إلا : سبحان من أحاط بكل شىء علمًا.

* ويزيدنا إيمانًا بأن محمدًا رسول الله ﷺ، اصطفاه الله وأوحى إليه ما يصلح الأمة فى كل عصر ومصر.

* ويزيدنا إيمانًا بعظمة الإسلام، وأنه الدين الكفيل بإسعاد البشرية، وأنه الدين الذى لا يزيده الزمن إلا جدة، فلقد جمع القيم الأصيلة الخالدة، وعالج البشرية فى كل أزمنتها وأمكنتها. إنه الدين الذى شاءه الله للبشرية خالدًا، يرتقى بها ويسعدها.

* ويزيدنا إيمانًا بعظمة السنة النبوية، وأنها من وحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ، فاشتملت على ما ينفع البشرية فى كل حياتها.

* ويزيدنا إيمانًا بثبوت السنة النبوية وأصالتها، وأنها علم صحيح ثابت، جمع الكثير مما تَحدَّث به ﷺ عن زماننا، فكان كما أخبر ﷺ.

● إن هذه الأحاديث برهان ساطع على أن الأحاديث النبوية من وحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ، وأنها قد حُفظت وصينت.

ولا يؤدى البحث العلمى إلا إلى هذا.

إن هذه الأحاديث تُسْعد المؤمنين المحبين للسنة العاملين بها، وتأخذ بيد كل منصف إلى الحقيقة، وهى أن السنة وحى إلهى محفوظ.

ولقد جَمَعْتُ هذه الأحاديثَ من كتب السنة النبوية، وخَرَّجْتُها، وبينت حالها من حيث الصحة، وكلها بحمد الله أحاديث ثابتة صحيحة، وترجمت لرواتها، ووضّحْتُ معانيها، وشرحتها شرحًا موضوعيًا عمدت فيه لإبراز الأمر الذى يعالجه الحديث، ومدى خطورة هذا الأمر فى حياة الأمة، وعظمة العلاج الذى يقدمه الحديث. وضمَّنت الشرح كثيرًا من الفوائد من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وآثار سلفنا الصالح. كما أنى حليته بتوضيح المعانى. وترجمت لرواة الأحاديث،

ترجمة ميسَّرة لفهم حياة الصحابة الأخيار، مقربة للاقتداء بهم.

وركزت على توضيح وجه الإعجاز فى كل حديث، وكيف أنه معجزة من معجزاته ﷺ. وذكرت ما يستفاد من كل حديث.

وما من حديث ذكرته أثناء الشرح إلا خرجته أيضًا، وبينت حاله.

ولقد اقتضى المقام أن أقدم بمقدمة فى معجزاته ﷺ، وبعدها تأتى الأحاديث مع شرحها.

ولقد ألف الأئمة السابقون كتبًا كثيرة فى معجزاته ﷺ[1]، وأطلقوا عليها «دلائل النبوة» و«علامات النبوة» جمعوا فيه الكثير والكثير من الأحاديث، منها «دلائل النبوة» لأبى نعيم الأصبهانى المتوفى ٤٣٠هـ، و«دلائل النبوة» للبيهقى المتوفى ٤٥٨هـ، وهو أجمعها، وكلاهما مطبوع شائع.

والجديد فى تأليفى هذا أننى جمعت فيه الأحاديث التى أخبر فيها ﷺ بأمور ستحدث، فحدثت هذه الأمور فى زماننا، وذلك:

مثل حديث: «لَيَشْرَبَنَّ ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها»[2] فكم فى زماننا من أشياء تخمِّر العقل أى تغطيه، هى الخمر بأوصافها، لكن ليس منها واحد اسمه «خمر».

ومثل حديث: «ليأتين على الناس زمان لا يبالى المرء بما أخذ المال أمن الحلال أم من حرام»[3] فلقد كثر فى زماننا الكسب الحرام، من الربا وغيره، مما لم يكن فى الأجيال السابقة، وتجرأ الكثيرون على الحرام،

---

(١) تزيد على خمسين كتابًا.

(٢) الحديث الحادى عشر من الأحاديث المشروحة، ص ٢٨٠.

(٣) الحديث العاشر من الأحاديث المشروحة، ص ٢٦٥.

ووُجدت أنواع من المعاملات لم يضبطها المتعاملون بها على الإسلام.

لقد جمعت الأحاديث التى فيها معجزاته ﷺ التى ظهرت فى زماننا، اشتمل هذا الكتاب على عدد منها، والبقية تأتى إن شاء الله تعالى.

وسميت كل جزء بموضوع أحاديثه، أو أهمها، فهذا الجزء اسمه «الإسلام» لكثرة الأحاديث المتعلقة بدين الإسلام فيه، والجزء الثانى اسمه «أمة الإسلام» لكثرة الأحاديث المتعلقة بالأمة الإسلامية فيه. وهكذا.

وأسأل الله الكريم أن ينفع به، وأن يتقبله.

«وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»

وكتبه

عبد المهدى

المقدمات

- **تأييد الله الرسل بالمعجزات**

* معجزات موسى عليه السلام
* معجزات عيسى عليه السلام
* معجزات محمد ﷺ:

- القرآن الكريم المعجزة الكبرى، وفيه معجزات
- معجزات من السنة النبوية

- **نوع خاص من المعجزات**

الإخبار عن أمور مستقبلة

نماذج من القرآن الكريم

هل هذه المعجزات غيب؟

نماذج من السنة النبوية

معجزات تحققت فى حياته ﷺ

معجزات تحققت بعده ﷺ وقبل زماننا

معجزات ستظهر بعد زماننا

معجزات ظهرت فى زماننا



تأييد الله الرسل بالمعجزات [١]

من فضل الله على البشرية أن أرسل لها الرسل، يُوحى سبحانه إليهم ما يصلح البشرية، ويرتقى بها.

وأيد سبحانه رسله بالمعجزات الدالة على صدقهم، وبالآيات الدالة على تأييد الله لهم.

ومعجزات الرسل متنوعة متناسبة مع أممهم.

• معجزات موسى عليه السلام:

فلما كان السحر شائعًا فى قوم موسى عليه السلام، أيده الله سبحانه بمعجزة العصا، فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، والتى ظهرت من سحرهم كأنها الثعابين والحيات تتحرك، ألقى موسى عصاه فانقلبت حية، وابتلعت حبالهم وعصيهم على الرغم من كثرتها، وأيقن السحرة بتأييد الله لموسى، فإن ما فعله عليه السلام ليس سحرًا، وإنما هو معجزة، فآمنوا بالله سبحانه، وآمنوا برسول الله موسى عليه السلام.

وأيّد الله سبحانه وتعالى رسوله موسى بمعجزة اليد أيضًا، فأدخل يده فى طوق قميصه، ثم أخرجها بيضاء فى أعلى درجات البياض، تفوق ضوء المصابيح، وتحاكى ضوء الشمس معجزة دالة على صدقه عليه السلام.

يقول الله سبحانه وتعالى حاكيًا ما دار بين موسى وفرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ

---

(١) المعجزات: أمور خارقة للعادة يُنعم الله بها على رسله تأييدًا وتصديقًا لهم.

اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [١].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ [٢].

• معجزات عيسى عليه السلام:

ولما كان الطب كثيرًا فى زمان عيسى عليه السلام، فإن الله تبارك وتعالى أيده بمعجزات مناسبة لهذا:

فكان عليه السلام يدعو ويمسح بيده الأكمه[٣] فيشفيه الله تعالى.

وكان عليه السلام يدعو ويمسح بيده الأبرص[٤] فيشفيه الله تعالى.

وكان عليه السلام يجعل من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيها، فيكون طيرا بإذن الله.

إن هذه المعجزات فوق الطب بمراحل، مما يجعل أهل الإنصاف يؤمنون به عليه السلام.

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٩ ـ ٣٣.
(٢) سورة طه آية ١٧ ـ ٢٣.
(٣) الذى ولد أعمى.
(٤) المبتلى برص فى جلده.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [1].

* * *

(١) سورة المائدة آية ١١٠.

معجزات رسول الله ﷺ

١ - القرآن الكريم:

ورسول الله محمد ﷺ معجزاته متعددة ومتنوعة، وأعظمها القرآن الكريم هذا الكتاب المعجز لكل جيل بما برع فيه.

فحينما كان العرب قد فاقوا فى الفصاحة والبيان، تحداهم ﷺ بوجه الفصاحة فى القرآن الكريم، وطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، وعلى الرغم من توفر الدواعى، ووجود الأسباب إلا أنهم عجزوا عجزًا تامًا عن الإتيان بمثل القرآن الكريم.

يقول الله تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ [1].

تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، وهم أهل الفصاحة وأساطين البيان.

فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله:

يقول الله تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [2].

لكنهم أيضًا عجزوا، فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة.

يقول الله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن**

---

(١) سورة الإسراء آية ٨٨.

(٢) سورة هود آية ١٣

تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [١].

إنه القرآن الكريم الذى قال الله فيه: **﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾** [٢].

شهد بإعجازه المشركون، وأيقن بصدقه المعاندون، واعترف بعظمته أهله وأعداؤه، ولا تزال أوجه إعجازه تظهر، وصدقه على مدى الزمان يتأكد، فحقائقه لا تزيد على طول الزمان إلا جِدّة، والحكماء لا يزدادون مع طول الزمن إلا احترامه وتعظيمه.

فى كل جيل يُظْهر هذا القرآن العظيم وجهًا من أوجه عظمته، وفى زماننا والذى يسمى عصر الاكتشافات العلمية، بهر القرآن أهل كل تخصص فى تخصصهم، إذ وجد كلٌّ دقةً متناهية فى تناول القضايا، وسبقا علميًا فى الحديث عن الحقائق.

إن القرآن الكريم معجزة فكرية عقلية، دائم خالد، تسعد بحقيقته العقول فى كل زمان ومكان، ويأخذ بيد المنصفين إلى الحق، ومن هنا قال ﷺ «ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[٣].

إن القرآن ليس معجزة حسية، يؤمن بها من رآها، وإنما هو معجزة عقلية، تدعو كل الأجيال إلى الحق، ويؤمن بسببها كل منصف، ومن هنا رجا ﷺ أن يؤمن بالقرآن الكثيرون.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) سورة فصلت آية ٤١ ـ ٤٢.

(٣) أخرجه البخارى فى أول فضائل القرآن رقم ٤٩٨١ و ٧٢٧٤ ومسلم رقم ٢٣٩/ ١٥٢.

لقد حوى القرآن الكريم الكثير من أوجه الإعجاز:

فأسلوبه العالى، والذى يُشعر القارئ بأنه كلام الخالق ولابد، كلام الله الذى لا يستطيع أن يرد عليه أحد، فمن الذى يستطيع أن يرد على قوله سبحانه: ﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ ، من يستطيع أن يرد على قوله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ، إن أحدًا فى أى زمان أو مكان لا يستطيع أن يرد فيقول إنه هو الذى خلق ابنه، أو هى التى خلقت ابنها، ولا يستطيع أحد أن يقول إنه هو الذى أنبت النبات أو الأشجار.

وأيضًا دوام الحق، فلقد علمنا القرآن الكثير من الحقائق، ومن الإعجاز أنها حق على طول الزمان، وفى كل مكان، الكل يعترف بصدق حقائقه، بل وجاء العلم فاكتشف الكثير من الحقائق حينما سار فى نهج القرآن الكريم.

فمن ذا الذى يعارض القرآن فى أى حقيقة؟ لا أحد يستطيع.

لقد ذكر القرآن عسل النحل وأنه شفاء للناس، فما زاد هذه الحقيقة الزمن إلا قوة، بينما قال الأطباء منذ فترة: إن الدخان هو البلسم الشافى، وإذ بهم الآن يقولون إنه السم الزعاف.

ماذا معاشر الباحثين؟ ماذا يا أصحاب المعامل؟ إنه الفارق بين كلام البشر وكلام الله خالق البشر.

لقد حذر القرآن من الإسراف فى الأكل، والكل يؤمن بهذا ويسلم، الإنسان العادى والمشتغلون بالطب.

لقد حذر القرآن من المخدرات، والعالم كله يستغيث منها.

وأيضًا تشريعات القرآن محكمة، فما قال الله فيه شيئًا وقال العقل ليته

ما قال، وإنما قال العقل: نعم ما قال ربى.

وأيّد الله سبحانه وتعالى رسوله محمدًا ﷺ بمعجزات أخرى مع القرآن الكريم، منها ما ذكر فى القرآن الكريم، كانشقاق القمر، والإسراء والمعراج[١].

٢ـ انشقاق القمر:

يقول الله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾[٢].

وتضمنت السنة تفصيل هذه المعجزة:

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما»[٣].

٣ـ الإسراء والمعراج:

ومما أيد الله تبارك وتعالى به رسوله محمدًا ﷺ من المعجزات، وجاءت فى القرآن الكريم، معجزة الإسراء والمعراج. فأسرى الله به ﷺ ليلاً من المسجد الحرام بمكة، إلى المسجد الأقصى بفلسطين، ثم عرج به إلى السماء، والتقى بالأنبياء، وكلمه ربه، وفرض عليه وعلى أمته الصلاة، وسأل ﷺ ربه عز وجل التخفيف مرات، ثم عاد ﷺ بعد هذا الشرف العظيم.

فلما أصبح ﷺ أخبر أهل مكة، فسألوه عن كثير من العلامات

(١) من المعجزة الثانية هنا إلى المعجزة التاسعة.

(٢) سورة القمر آية ١.

(٣) أخرجه البخارى رقم ٣٨٦٨ ومسلم ٢٨٠٢ وهو عندهما بأكثر من هذا.
وراجع تفسير ابن كثير سورة القمر. والدر المنثور أيضًا سورة القمر.

والملابسات، فأيده الله تبارك وتعالى وألهمه.

يقول الله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [١].

ويقول سبحانه: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ [٢].

تحدثت الآية الأولى عن الإسراء، وتحدثت الآيات من سورة النجم عن المعراج، وكل ذلك من معجزاته ﷺ.

ولقد وضحت السنة ذلك توضيحًا تامًا[٣]، أكتفى بحديث واحد[٤]:

فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتنى قريش[٥] حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحِجْر، فجلّى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه»[٦].

---

(١) سورة الإسراء آية ١.

(٢) سورة النجم آية ١ ـ ١٨.

(٣) راجع صحيح البخارى حديث رقم ٣٨٨٧ ومسلم ٢٥٩/ ١٦٢،

(٤) لما فيه من تحدى المشركين له ﷺ، وتأييد الله سبحانه وتعالى له ﷺ.

(٥) فى قوله ﷺ إنه أُسرى به إلى بيت المقدس، وعاد فى الليلة نفسها.

(٦) أخرجه البخارى رقم ٣٨٨٦ ـ ٤٧١٠.

٤ - عصمته من القتل:

ومما جاء فى القرآن الكريم من معجزاته ﷺ، عصمته ﷺ من القتل، فلم يستطع أحد أن يخلص إليه ﷺ ويقتله، على الرغم من شدة عداء الكفار له، وحرصهم الشديد على قتله.

لقد تفانى الكفار فى معاداته، وبذلوا كل السبل فى قتله ﷺ، فجمعوا الجموع لقتله، وبذلوا كل الأسباب للقضاء عليه، وجيَّشوا الجيوش من أجل القضاء عليه، والقضاء على دعوته، فما استطاع الكفر أن يصل إلى مراده، وعصم الله رسوله، وأعز سبحانه وتعالى دينه.

يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (1).

ويقول سبحانه: ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (2).

٥ - تأييده بالملائكة:

ومما أيد الله به رسوله ﷺ نزول الملائكة فى غزواته، تقوم بدور عظيم فى نصرة المسلمين، وفى هذا من التأييد له ﷺ وإعلاء شأنه، وإعظام شأن دعوته ما فيه.

يقول الله سبحانه: ﴿**إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ**

(1) سورة المائدة آية ٦٧.

(2) سورة التوبة آية ٤٠.

آلاف مِنَ الْمَلائكَة مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلاف مِّنَ الْمَلائكَة مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [١].

٦ـ تأييده بالريح:

ومما جاء فى القرآن الكريم من معجزاته ﷺ تأييد الله تبارك وتعالى له ﷺ بالريح، سلطها سبحانه على أعداء رسوله، فكانت من أسباب هزيمتهم.

يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [٢].

٧ـ تأييده بتثبيت أتباعه وإلقاء الرعب فى قلوب أعدائه:

فالناظر فى التاريخ الإسلامى يتضح له أن جيش الإسلام كان واضحًا فيه تثبيت الله لهم، وأن جيش الشرك كان واضحًا فيه الهلع والجبن.

يقول الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [٣].

إنه فى غزوة تبوك لم يثبت جيش الروم أمام جيش المسلمين طرفة عين، وحينما حمل المسلمون على الروم لم يجدوا جيشًا أمامهم.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) سورة الأحزاب آية ٩.

(٣) سورة الأنفال آية ١٢.

٨ـ تأييده ﷺ بتسديد رميته:

فمما تضمنه القرآن الكريم من أدلة نبوته ﷺ قول الله تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [١].

يبين الله سبحانه للمسلمين أنه هو الذى يوفقهم، ويقوى عزيمتهم، ويبارك فى قوتهم لتكون لهم الغلبة على أعدائهم. وهو سبحانه الذى يسدد رميتهم، ويجعلها تصل مداها، وتبلغ منتهاها، وذلك يُشعر المؤمنين بنعم الله عليهم إذ يقويهم ويوفقهم، ونعمة أخرى وهى أنه سبحانه يضعف كيد الكافرين، فرأيهم ليس رشيدًا، وتخطيطهم ليس سديدًا.

نعمتان عظيمتان، فجهد أمة الإسلام يبارك الله فيه، وجهد الكفرة يضعفه الله ويجعله حسرة عليهم.

٩ـ التأليف بين قلوب المؤمنين:

ومن تأييد الله تبارك وتعالى له ﷺ أن ألف سبحانه بين قلوب المؤمنين، ووحدهم سبحانه، وجمع كلمتهم، وجعلهم يدا واحدة، وليهم الله ورسوله والمؤمنون، ولا ولاية بينهم وبين كافر، جعلهم سبحانه يدا واحدة على من عاداهم، وأمة لها دينها الذى يرسم كل حياتها.

---

(١) سورة الأنفال آية ١٧ ـ ١٨.

يقول الله سبحانه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [١].

ويقول سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [٢].

* * *

(١) سورة الأنفال آية ٦٣.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣.

معجزات من السنة النبوية

وكما أن القرآن الكريم هو معجزته ﷺ الكبرى، وقد اشتمل على كثير من معجزاته ﷺ فإن السنة النبوية قد اشتملت أيضًا على الكثير من معجزاته، أذكر منها:

١٠ ـ تسليم الحجر عليه قبل النبوة:

فعن جابر بن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ «إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إنى لأعرفه الآن»[١].

كان الحجر يسلم عليه ﷺ قائلاً: السلام عليك يا رسول الله.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾[٢].

ويقول سبحانه: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾[٣].

١١ ـ استجابة دعوته بإسلام عمر:

ودعا ﷺ أن يُعزّ الله الإسلام بدخول أحد الرجلين القويين فى مكة فيه، فقال: «اللهم أَعزّ الدين بأحب هذين الرجلين إليك: بأبى جهل بن

(١) أخرجه مسلم فى أول الفضائل رقم ٢٢٧٧.

(٢) سورة البقرة آية ٧٤.

(٣) سورة الإسراء آية ٤٤.

هشام، أو عمر بن الخطاب، فكان أحبهما إليه عمر بن الخطاب»[١].

استجاب الله دعوة رسوله ﷺ، وأسلم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه.

١٢ ـ استجابة دعوته لأبى هريرة:

وكان أبو هريرة حريصًا على العلم، وكان يخاف النسيان، وفى يوم من الأيام أتيحت له الفرصة فدعا قائلاً: وأسألك علمًا لا ينسى، وأمَّن الرسول ﷺ على دعائه، فما نسى بعد ذلك، وكان أكثر الصحابة علمًا.

فعن محمد بن قيس بن مخرمة أن رجلاً جاء زيد بن ثابت فسأله عن شىء، فقال له زيد: عليك بأبى هريرة، فإنه بينا أنا وأبو هريرة، وفلان فى المسجد ذات يوم ندعو الله تعالى ونذكر ربنا، خرج علينا رسول الله ﷺ حتى جلس إلينا، قال: فجلس وسكتنا، فقال: عودوا للذى كنتم فيه، قال زيد: فدعوت أنا وصاحبى قبل أبى هريرة، وجعل رسول الله ﷺ يؤمِّن على دعائنا، قال: ثم دعا أبو هريرة فقال: اللهم إنى أسألك مثل الذى سألك صاحباى هذان، وأسألك علمًا لا ينسى، فقال رسول الله ﷺ: «آمين» فقلنا: يا رسول الله، ونحن نسأل الله علمًا لا ينسى. فقال رسول الله ﷺ: سبقكما بها الغلام الدَّوسى»[٢].

و«الغلام الدوسى». . هو: أبو هريرة، فإنه من قبيلة دوس باليمن.

لقد حظى أبو هريرة ببركة رسول الله ﷺ، إذ أمَّن على دعائه، وبارك عليه[٣]، فما نسى بعد ذلك.

---

(٤) أخرجه ابن حبان ١٥/ ٣٠٥ رقم ٦٨٨١.

(٢) أخرجه النسائى فى الكبرى ٣/ ٤٤٠ رقم ٥٨٧٠ وجَوّده الحافظ فى الإصابة ٧/ ٤٣٨ وأخرجه الحاكم ٣/ ٥٠٨. وراجع كتابى «دفع الشبهات عن السنة النبوية» ص١٥٧، ١٦٢.

(٣) راجع البخارى رقم ٣٦٤٨.

١٣ـ نزول المطر بدعائه ﷺ:

فعن أنس رضى الله عنه قال: «أصاب أهل المدينة قَحْطٌ على عهد رسول الله ﷺ، فبينا هو يخطب يوم جمعة إذ قام رجل فقال: يا رسول الله، هلكت الكُراع[(١)]، هلكت الشاء[(٢)]، فادع الله يسقينا. فمد يده ودعا. قال أنس: وإن السماء كمثل الزجاجة[(٣)]. فهاجت ريح أنشأت سحابًا، ثم اجتمع، ثم أرسلت السماء عزالَيها[(٤)]، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا، فلم نزل نُمْطَر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله، تهدمت البيوت، فادع الله يحبسه، فتبسم ثم قال: حوالينا ولا علينا. فنظرت إلى السحاب يتصدع حول المدينة، كأنه إكليل[(٥)]».

لقد دعا ﷺ فاستجاب ربنا دعاءه، ونزل المطر كثيرًا، ثم دعا ربه فجعل سبحانه المطر حيث ينفع، جعله حول المدينة.

١٤ـ نبع الماء من بين أصابعه ﷺ:

وعطش كثير من الصحابة معه ﷺ، فوضع يده ﷺ فى القليل من الماء، فنبع الماء من بين أصابعه، حتى أخذوا كل ما يريدون من ماء.

---

(١) الخيل.

(٢) الشاء: جمع شاة.

(٣) أى صافية لا سحاب فيها، تشبه صفاء الزجاجة.

(٤) العزالى ـ بكسر اللام وبفتحها ـ جمع عزلاء وهى: مصب الماء من فم القربة، والمعنى: نزل المطر بشدة كما ينزل الماء من فم القربة. لسان العرب ٤/ ٢٩٣١.

(٥) الإكليل ما يلبس فوق الرأس للفخار، ويكون مرصعًا بالجوهر، والمراد: أن المطر أصبح يحيط بالمدينة كأنه إكليل حولها.

والحديث أخرجه البخارى ٦/ ٥٨٨ رقم ٣٥٨٢.

حدث ذلك أكثر من مرة، وكانوا يرون الماء يفور من بين أصابعه ﷺ، وأنا أذكر من ذلك حديثًا واحدًا، أبين به شيئًا من هذه المعجزة:

فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال «عطش الناس يوم الحديبية، والنبى ﷺ بين يديه ركوة[١]، فتوضأ فجهش الناس نحوه[٢]، فقال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده فى الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا. قلت[٣]: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة»[٤].

١٥ - بركته ﷺ فى الطعام:

كثيرًا ما جاع الصحابة، فدعا ﷺ فرزقهم الله تعالى: دعا على الطعام الذى يكفى اثنين أو ثلاثة، فبارك الله فيه حتى أكل منه أهل المدينة، ودعا على أقراص من شعير، فأكل منها سبعون أو ثمانون، وسمّى الله على شاة ضعيفة فامتلأ ضرعها لبنًا، وحلب منها الكثير، وظلت بعد ذلك سنوات تحلب دون انقطاع.

وألاحظ فى موضوع بركته ﷺ فى الماء والطعام أنه ﷺ كان إذا جاع أو عطش هو فإنه كان يتحمل، أما إذا شكا له الصحابة فإنه ﷺ كان يدعو ويذكر الله تعالى فتظهر المعجزة، ويبارك الله تعالى بركة تُبَلِّغُه ﷺ ما يريد.

(١) إناء صغير يشرب فيه الماء.

(٢) أحاطوا به خائفين، لقلة الماء.

(٣) القائل هو: سالم بن أبى الجعد، يسأل جابر بن عبد الله.

(٤) أخرجه البخارى رقم ٣٥٧٦ وغير ذلك.

فعن جابر رضى الله عنه قال: إنا كنا يوم الخندق نحفر فعرضت كَبْدة[١] شديدة، فجاءوا النبى ﷺ فقالوا: هذه كُدْية[٢] عرضت فى الخندق.

فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبى ﷺ المعول، فضرب فى الكدية، فعاد كثيبا أَهْيَلَ[٣] أو أَهْيَمَ[٤]. فقلت: يا رسول الله ائذن لى إلى البيت. فقلت لامرأتى: رأيت بالنبى ﷺ شيئًا ما كان فى ذلك صبر، فعندك شىء؟ فقالت: عندى شعير[٥] وعناق[٦]. فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة[٧]. ثم جئت النبى ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافى قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعَيِّمٌ لى، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثير طيب. قال: قل لها لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنور[٨] حتى آتى. فقال: قوموا. فقام المهاجرون والأنصار. فلما دخل على امرأته قال: ويحك[٩]، جاء النبى ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا[١٠]. فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا، وبقى

(١) بفتح الكاف وسكون الباء الموحدة التحتانية: القطعة الصلبة الشديدة من الأرض.

(٢) بضم الكاف وسكون الدال المهملة بعدها ياء مثناة تحتانية: القطعة الصلبة الصماء.

(٣) أى رملاً ناعمًا يسيل.

(٤) شك أحد الرواة هل قال شيخه «أهيل» أو قال «أهيم» والراجح «أهيل».

(٥) فى رواية أنه «صاع» والصاع وحدة كيل، وهو يزن ثلاثة كيلوجرام تقريبًا.

(٦) أنثى المعز.

(٧) البرمة: قدر من الفخار يطبخ فيه.

(٨) الفرن الذى يخبز فيه.

(٩) كلمة إشفاق.

(١٠) ولا تزدحموا.

بقية. قال: كلى هذا وأهدى، فإن الناس أصابتهم مجاعة».

وفى الرواية الثانية: «وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط كما هى، وإن عجيننا ليخبز كما هو»[1].

أكل ألف مقاتل من أهل الخندق، والطعام لازال كما هو، والرسول ﷺ يوصى أهل بيت جابر: كلى وأهدى، فإن الناس أصابتهم مجاعة.

إنها معجزة، وتكررت أكثر من مرة، ولولا خشية الطول لذكرت فى ذلك كثيرًا، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين.

١٦- حنين الجذع:

ومن معجزاته ﷺ حنين الجذع إليه ﷺ، فلقد كان الضلع الجنوبى من المسجد من جذوع النخل، وكان ﷺ يقف لخطبة الجمعة ويده على جذع من هذه الجذوع، فلما صنع له المنبر وصعد عليه سمع الصحابة صوت بكاء وحنين يصدر من جذع النخلة!! سبحان الله! حنَّ الجذع إليه ولأحاديثه ﷺ، فالبشرية التى يُوحى إليه ﷺ لهدايتها أولى أن تحن وتشتاق إليه ﷺ.

فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألا أجعل لك شيئًا تقعد عليه؟ فإن لى غلامًا نجارًا. قال: إن شئت. فعملت له المنبر. فلما كان يوم الجمعة قعد النبى ﷺ على المنبر الذى صُنِعَ، فصاحت النخلة التى كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل النبى ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت

---

(١) الروايتان فى صحيح البخارى ٤١٠١ - ٤١٠٢.

تئن أنين الصبى الذى يُسكَّت حتى استقرت. قال[١]: بكت على ما كانت تسمع من الذكر»[٢].

١٧ ـ صلاح مدينته ﷺ بدعائه:

هاجر الصحابة من «مكة» إلى «المدينة» والتى كانت تسمى «يثرب» ثم هاجر رسول الله ﷺ، وكانت المدينة آنذاك منطقة مليئة بالأمراض والأوبئة، أشهر ذلك «حُمّى يثرب» ولقد مرض كثير من المهاجرين، فدعا ﷺ للمدينة دعوات استجابها الله تبارك وتعالى فأصبحت المدينة أطيب بلاد الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

عن عائشة رضى الله عنها قالت: «قال رسول الله ﷺ: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد. اللهم بارك لنا فى صاعنا، وفى مدنا[٣]، وصححها لنا، وانقل حُمَّاها إلى الجحفة. قالت: وقدمنا المدينة وهى أوبأ أرض الله».

وإنما دعا ﷺ بنقل حمى المدينة إلى الجحفة، لأن الجحفة منطقة لا حياة فيها، فإذا نقلت إليها سلم أهل المدينـة، ولن يضار أحد فى الجحفة.

وأرى الله رسوله ما طمأنه:

فعن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ قال: رأيت كأن امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة وهى الجحفة، فأولت[٤] أن

---

(١) القائل: هو رسول الله ﷺ، كما فى رواية أحمد وابن أبى شيبة.

(٢) أخرجه البخارى فى البيوع باب النجار ٤/ ٣١٩ رقم ٢٠٩٥ وفى المناقب رقم ٣٥٨٣ ـ ٣٥٨٥.

(٣) الصاع والمد من الأشياء التى يكال بها الحب والدقيق وغيره، والمراد: بارك لنا فى طعامنا.

(٤) فى رواية «فأولتها وباء المدينة ينقل إلى الجحفة».

وباء المدينة نقل إليها»[١].

وأهل المدينة والوافدون إليها يجدون ذلك واضحًا. فالمدينة طيبة كل الطيب، سلمها الله، وبارك سبحانه وتعالى للمسلمين فيها كل البركة.

١٨ ـ شفاء رجل عبد الله بن عتيك:

وبعث رسول الله ﷺ رجالاً من الأنصار فى مهمة قتالية، وأمّر عليهم عبد الله بن عتيك، فقام عبد الله بالمهمة خير قيام، إلا أنه انكسرت ساقه، فعصبها وعاد ومعه أصحابه إلى رسول الله ﷺ، فأخبر رسول الله بالمهمة، وأخبره أن ساقه قد كسرت.

«فقال ﷺ له: ابسط رجلك.

يقول: فبسطت رجلى، فمسحها ﷺ، فكأنها لم أشتكها قط»[٢].

١٩ ـ هلاك من رفض دعاءه:

وبالمقابل فكما أن الله تبارك وتعالى استجاب دعوة رسوله لكثير من الصحابة فشفاهم، ودعا للمدينة فغيّر الله حالها إلى أحسن حال، مقابل ذلك فإن الله أهلك من رفض دعاءه ﷺ:

فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ دخل على أعرابى يعوده[٣]، قال وكان النبى ﷺ إذا دخل على مريض يعوده قال: لا بأس، طهور إن شاء الله.

---

(١) أخرجه البخارى فى التعبير باب إذا رأى أنه خرج الشىء من كوة ١٢/ ٤٢٥ رقم ٧٠٣٨ وفى البابين بعده رقم ٧٠٣٩ ـ ٧٠٤٠.

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب قتل أبى رافع عبد الله بن أبى الحقيق ٧/ ٣٤٠ رقم ٤٠٣٩.

(٣) يزوره.

فقال ﷺ على الأعرابى: لا بأس[١]، طهور إن شاء الله[٢].

فقال الأعرابى: طهور؟ كلا، بل هى حُمّى تفور أو تثور على شيخ كبير، تزيره القبور.

فقال النبى ﷺ: فنَعَم إذًا[٣].

وفى رواية أنه ﷺ قال للأعرابى: أما إذا أبيت[٤] فهى كما تقول: قضاء الله كائن.

فما أمسى الأعرابى من الغد إلا ميتًا[٥].

إن هذا الأعرابى لم يقبل دعوته ﷺ فلم يحظ ببركته.

• استجابة دعوته على أعدائه:

واستجاب الله تبارك وتعالى دعاء رسوله ﷺ على أعدائه، وكان الصحابة يعلمون ذلك، وأن الله يستجيب دعاء رسوله للمسلمين، وأيضًا يستجيب له على الكافرين وأعداء الدين، من ذلك.

٢٠ ـ استجابة دعوته على سراقة:

ففى هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة، جعل المشركون لمن يأتى به حيًا أو ميتًا، مائة ناقة، وكذلك فى أبى بكر، وأسرع لهذا سراقة بن مالك، وفعلا اقترب من قافلة الهجرة، فدعا عليه رسول الله ﷺ فلم يستطع الاقتراب من رسول الله ﷺ وأصحابه وإنما غارت فرسه إلى لبتها،

(١) أى ما رأيت بأسًا أى شدة.

(٢) أى جعل الله مرضك تطهيرًا لك من الذنوب.

(٣) أخرجه البخارى فى المناقب ٦/ ٦٢٤ رقم ٣٦١٦.

(٤) أى رفضت دعوتى.

(٥) هذه رواية الطبرانى، كذا فى الفتح شرح حديث ٣٦١٦.

غارت إلى لبتها فى صخور صماء.

فعن أبى بكر الصديق قال: واتَّبَعَنَا سراقةُ بن مالك، فقلت: أُتينا يا رسول الله. فقال: لا تحزن، إن الله معنا، فدعا عليه النبى ﷺ فارتطمت به فرسه إلى بطنها ـ أُرى فى جَلَد من الأرض، شك زهير[١] ـ فقال: إنى أراكما قد دعوتما علىّ، فادعوا لى، فالله لكما أن أرد عنكما الطلب.

فدعا له النبى ﷺ، فنجا. فجعل لا يلقى أحدًا إلا قال: كفيتكم ما هنا، فلا يلقى أحدًا إلا رده. قال: ووفّى لنا[٢].

إن سراقة حينما كان مسرعًا يريد قتل رسول الله ﷺ وأبى بكر دعا عليه رسول الله ﷺ دعوة واحدة «اللهم اصرعه» فغارت أرجل فرسه فى الصخور، وهوى سراقة من على ظهرها، وعاود الكرة فعاودته الدعوة فخر من على ظهرها صريعًا.

فلما أيقن بأن الذى أمامه إنما هو رسول الله، وناداه بالأمان، دعا له رسول الله ﷺ فعاد لما كان عليه من السير سليمًا.

إن دعوة منه ﷺ أقعدت عدوه وفرسه، فلما دعا له عاد سويًا،وهذا من إكرام الله تعالى لرسوله ﷺ.

٢١ـ انتقام الله ممن كذب عليه:

ومن دلائل نبوته أن الله تبارك وتعالى ينتقم من أعدائه ﷺ، فكل من أراد إيذاءه قصمه الله، وكل من أراد إهانته هزمه الله،تعدد هذا وتكرر، وفى كل المرات ينجى الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ، ويهين أعداء دينه

(١) زهير بن معاوية أحد رجال الإسناد، شك هل قال شيخه هذه الكلمة أو لا، وهذا من دقتهم وصدقهم فى الرواية.

(٢) أخرجه البخارى فى المناقب ٦/ ٦٢٢ رقم ٣٦١٥ بأطول من هذا.

وأعداء رسوله، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [١].

وصور نصر الله رسوله ﷺ كثيرة[٢]، أكتفى منها بهذه الصورة:

فعن أنس رضى الله عنه قال«كان رجل نصرانيًا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبى ﷺ، فعاد نصرانيًا، فكان يقول: ما يدرى محمد إلا ما كتبت له. فأماته الله، فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه خارج القبر، فحفروا له وأعمقوا له فى الأرض ما استطاعوا، فأصبح قد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس، فألقوه»[٣] وفى رواية مسلم «فتركوه منبوذًا».

إن تآمر أهل الكتاب على الإسلام كثير ومتنوع، ولقد سجله القرآن الكريم عليهم، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٤]. إلا أن هذا الكافر لم يُسْلم ثم رجع إلى كفره فقط، وإنما زاد أن افترى، وراح يدعى على الرسالة الإلهية، ونصوص القرآن والسنة، ومن هنا عجّل الله له العقوبة، وجعلها عقوبة فى غاية الإهانة، ليعتبر الآخرون.

---

(١) سورة غافر آية ٥١.

(٢) تقدم شىء من ذلك عند الكلام على معجزاته التى تضمنها القرآن الكريم ص ١٩ - ٢٢.

(٣) أخرجه البخارى فى المناقب ٦/ ٦٢٤ رقم ٣٦١٧ وأخرجه مسلم فى صفات المنافقين ٤/ ٢١٤٥ رقم ١٤/ ٢٧٨١.

(٤) سورة آل عمران آية ٧٢.

نوع خاص من المعجزات

وإنى وقد ذكرت عددًا من معجزاته ﷺ التى ذُكرت فى القرآن الكريم. وذكرت عددًا آخر من معجزاته ﷺ التى ذُكرت فى السنة النبوية.

فهناك نوع خاص من معجزاته ﷺ، وهو:

«الإخبار عن أمور مستقبلة»[1]

فلقد أخبر ﷺ عن أمور مستقبلة، لا تُعْلَم إلا بالوحى، إذ لا علم لأحد بها، ولا علم له ﷺ بها، وأثبت الواقع صدقه ﷺ، إذ وقعت

(١) أى أمور غيبية تحققت بعد إخباره ﷺ بها.

ومقابل هذا «الإخبار عن أمور غيبية ماضية أو حالية» فلقد أخبر ﷺ عن أمور غيبية ماضية، سواء ما كان فى القرآن الكريم أو فى السنة النبوية، كأخبار الأمم الماضية، وأخبار الرسل السابقين، وبدء الخلق وما إلى ذلك.

وأخبر ﷺ عن أمور غيبية حال وقوعها، من ذلك:

* إخباره بموت النجاشى، وصلى عليه هو والصحابة صلاة الغائب. وتحقق أنه كان قد مات عندما أخبر رسول الله ﷺ بذلك.
* ومنه قوله ﷺ لوابصة بن معبد الأسدى: أتسألنى أم أخبرك؟.

فقال وابصة: بل تخبرنى.

فقال ﷺ: جئت تسأل عن البر والإثم.

قال وابصة: نعم.

فقال ﷺ: البر ما أطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى النفس وتردد، وإن أفتاك المفتون وأفتوك. (رواه الطبرانى وأحمد، وأحد إسنادى الطبرانى رجاله ثقات. مجمع ١٠/ ٢٩٤).

* ولما أسر المسلمون عمه ﷺ فى بدر، طلب ﷺ منه أن يفدى نفسه وابنه فقال العباس: ما عندى فأخبره ﷺ بالمال الذى تركه لزوجته، وأخبره بالحديث الذى دار بينهما حول هذا المال، مما جعل العباس يسلم (راجع دلائل النبوة لأبى نعيم ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧ رقم ٤٠٩ ـ ٤١٠).

وفق ما أخبر ﷺ، مما يدل على أن الله تعالى هو الذى أخبره بذلك، وأن هذا من أعلام نبوته ﷺ.

ولقد اشتمل القرآن الكريم على عدد من هذه المعجزات.

كما اشتملت السنة النبوية على عدد آخر منها.

وإنى ذاكر عددًا من هذه المعجزات من القرآن الكريم، وعددًا آخر منها من السنة النبوية.

معجزات من القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . .**﴾ (١).

إن قول الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية: ﴿**عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم**﴾ يفيد أن الأمر لم يحدث، وأن الجهاد لم يكن قد شرع، وإنما أشارت إليه الآية الكريمة وأنه سيكون.

فشرع الجهاد بعد ذلك، وجاهد الصحابة، ونصرهم الله وأعزهم، وسارت الأمة على هذا النهج.

وتحقق ما أخبر الله تبارك وتعالى به رسوله ﷺ وأخبر به رسول الله ﷺ الأمة.

* وقال سبحانه وتعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ**

(١) سورة المزمل آية ٢٠.

﴿الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [١] يحكى سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم مغترون بقوتهم، وأنهم يرون أنهم المنصورون!.

قال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ يخبر سبحانه وتعالى رسوله والمؤمنين أن المشركين سيهزمون، وسيولون الأدبار، أى سيسرعون منهزمين، وقد حدث ذلك فيما بعد، فى بدر وفى غيرها من الغزوات.

إن قول الله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ دليل على أن ذلك لم يكن قد وقع، فوقع كما أخبر الله تبارك وتعالى، وتحقق، تأييدًا من الله لرسوله بوقوع ما أخبره الله به كما أُخْبر تمامًا، وتأييدًا أيضًا بهزيمة أعدائه.

ورسول الله ﷺ مدرك أن هذه الآية إنما هى فى مثل هذه المواقف، ومن هنا قرأ هذه الآية حينما خرج من العريش[٢]، قرأها ورمى المشركين بقبضة من الحصى فكان النصر والظفر، وتحقق ما أخبر به الوحى، معجزة للقرآن الكريم، ومعجزة لرسول الله ﷺ.

* وقال ربنا تبارك وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [٣].

أخبر سبحانه أن أبا لهب ـ واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب ـ سيدخل النار هو وامرأته، وذلك بما كانا عليه من عداء للإسلام، وإيذاء لرسول الله ﷺ، أخبر القرآن أنهما من أهل النار، وتحقق ما أخبر به ربنا وقاله نبينا، فماتا على الكفر، ولم يسلما ولو ظاهرا، وهذا من دلائل

(١) سورة القمر آية ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) العريش: خص صنع له ﷺ يستريح فيه فى غزوة بدر، ولقد أقيم فى مكانه مسجد، يسمى مسجد العريش، وهو مسجد طيب فى قرية بدر، وهى الآن قرية عامرة بارزة.

(٣) سورة المسد.

النبوة الباهرة.

* وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

ولقد تحقق هذا الوعد بكل أفراده، فوجدت دولة الإسلام، ومكّن الله لهذا الدين، وملأ البلاد، واعتز به العباد، وتحقق ما قاله ربنا، وما قرأه على الأمة نبينا، وهذا من أعلام نبوته ﷺ، ودليل ساطع على عموم رسالته، وأنها التى تُصلح كل زمان ومكان.

* وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢).

وَعْدٌ من الله الكريم أن ينصر دينه، ويجعل المسلمين أعزة سادة، ولقد تحقق هذا، فانتشر الإسلام وساد، وعمّ نوره وزاد، وتحقق وعد ربنا جل جلاله. لقد تحققت الآية كما أخبر ربنا تبارك وتعالى، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، ومن معجزات رسول الله ﷺ.

* وقال سبحانه: ﴿الم ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

---

(١) سورة النور آية ٥٥.

(٢) سورة التوبة آية ٣٣ وسورة الصف آية ٩.

(٣) سورة الروم ١ ـ ٦.

فى عهد رسول الله ﷺ دارت معركة بين فارس ـ وهم عباد نار ـ والروم ـ وهم أتباع النصرانية ـ وانتصرت فارس على الروم، ففرح مشركو مكة، واعتبروا ذلك بشارة بنصرهم على المسلمين، ذلك أن الفرس وهم أهل دين أرضى قد انتصروا على الروم أتباع الدين السماوى، فقاسوا على ذلك أن ينتصر مشركو مكة الذين هم أتباع دين أرضى على محمد ﷺ وأصحابه أصحاب الدين الربانى.

ونزلت هذه الآيات من صدر سورة الروم، تبشر المؤمنين بأن الله سبحانه سينصر الروم فى خلال سنوات معدودة.

وتحقق ما جاء فى كتاب ربنا، وقرأه على الأمة نبينا ﷺ، حتى إن الدارس لهذه الآيات مع التاريخ لينبهر كثيرًا، وكم كان ذلك سبب إسلام منصفين.

* وقال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ** ﴾ (١).

وهذا الوعد كان فى غزوة بدر، لما خرج رسول الله ﷺ من المدينة ليأخذ تجارة لقريش عائدة من الشام،وجاءه جبريل وبشره بوعد الله له بأنهم إما أن يحظوا بالتجارة، وإما أن يحظوا بالنصر على المشركين، وكان الصحابة يودُّون أن يظفروا بالتجارة، إلا أن القافلة سبقت، ولم يشأ الله أن يأخذوها، وعلمت قريش بتهديد المسلمين قافلتهم فخرجوا فى جيش، وأبلغهم أبوسفيان قائد القافلة بنجاته والقافلة، إلا أن أبا جهل رفض العودة بالجيش إلى مكة، وأصر على ملاقاة المسلمين ليلقنهم

(١) سورة الأنفال آية ٧.

درسًا، والتقى الجيشان فى بدر، وكتب الله النصر للمسلمين على الرغم من كثرة عدد المشركين، وقلة عدد المسلمين.

وتحقق ما أخبر به ﷺ، وما وعده الله به، من أنهم سيحظون إما بالقافلة وإما بالنصر، فنصرهم الله وأعزهم.

* وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ (١).

رأى رسول الله ﷺ فى المنام أنه دخل مكة هو وأصحابه، وطافوا بالبيت، وحلقوا أو قصروا.

فقص الرؤيا على أصحابه، ففرحوا واستبشروا، وظنوا أنهم سيدخلونها فى عامهم هذا، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق.

وذهب ﷺ وأصحابه معتمرين، إلا أن المشركين صدوهم، ففرح المنافقون، فأنزل الله هذه الآية، يخبر الأمة أن رؤيا رسوله حق وصدق، وأنكم ستدخلون المسجد الحرام عامكم المقبل إن شاء الله، حال كونكم آمنين من كل فزع.

أكدت الآية هذا المعنى فى العام السادس فاعتمروا فعلاً فى العام السابع، وتحقق ما أخبرنا به ربنا، وبلغه نبينا ﷺ، واعتمروا ودخلوا المسجد الحرام، وكان فى ذلك الخير الكثير.

* وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ**

(١) سورة الفتح آية ٢٧.

﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١).

لقد أسرَّ النبى ﷺ إلى إحدى زوجاته بأمر، وطلب منها أن لا تخبر بذلك، إلا أنها أخبرت بهذا السر زوجة أخرى، فأعلم الله رسوله بذلك، فأعلم ﷺ التى أفشت السر أنها قد أفشت السر!! فتساءلت معه ﷺ: مَنْ أخبرك بهذا؟ فقال ﷺ أخبرنى به العليم الخبير، أخبرنى به الله سبحانه وتعالى.

إن هذا الأمر الخفى، الذى لا يعلمه سوى الزوجتين كيف علمه رسول الله ﷺ؟

إنه أمر لا يعلمه إلا الله، فأطلع الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ.

إن هذه الآية تخبر عن أمر غيبى أخبر الله به رسوله، مما يبين وجهًا من إعجاز القرآن، وأن الله يخبر رسوله ببعض الغيب إكرامًا له ﷺ وتأييدًا.

• هل هذه المعجزات غيب؟

وإنما ختمت هذه النماذج من إخبار القرآن بالغيب، سواء ما سيكون، أو ما غاب، ختمت بهذا النموذج، والذى فيه: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ لأوضح أن هذه الأمور التى يُعَلِّمها الله رسولَه ﷺ لا يصح أن يقول قائل: إن هذا من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله. ذلك أن جوابه ﷺ بقوله: ﴿نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ يزيل هذا. فهو ﷺ لم يقل: إننى أعلم الغيب. لا، وإنما قال ينبئنى الله، يخبرنى الله.

فالله تبارك وتعالى هو الذى أعلمه، وعليه فلا اعتراض، ولا توقف.

(١) سورة التحريم آية ٣.

*** وآية ثانية:**

يقول الله تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**﴾ [1].

والمعنى: إن الله سبحانه هو عالم الغيب، ولا يَطَّلع أحد من خلقه على شيء من علمه، إلا من شاء سبحانه أن يُطْلِعَه من رسله سبحانه وتعالى، يستوى فى ذلك من اصطفاه سبحانه من الملائكة، ومن اصطفاه من الناس، ومن أطلعه الله على بعض الغيب فإنه يرزقه من يحفظه من الملائكة، بحيث لا تستطيع الشياطين أن تتعرض له أى تعرض.

وهذه الآية واضحة فى أن الله تبارك وتعالى يطلع من شاء من رسله على بعض الأمور الغيبية. وعليه فلا غرابة فى إخبار رسول الله ﷺ بشىء من الغيبيات، فإن هذا مما أطلعه الله عليه، وأعلمه سبحانه وتعالى به.

بل إن الآية الثانية من هاتين الآيتين تفيد أن هذه الغيبيات التى علمها الله نبيه إنما هى محفوظة بحفظ الله، وهذا دليل قوى على حفظ الله السنة النبوية.

إن معنى الآية الكريمة أن من أطلعه الله على بعض الغيب من رسله، فإنه سبحانه يرزق هذا الرسول من يحفظه من الملائكة. ولما كانت السنة فيها كثير من أمور الغيب، فإن هذا يدل على أن الله قد حفظها، ولا تستطيع شياطين الإنس والجن أن تتعرض لها.

على أن قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ**﴾ يفيد أن هذه سنة لله كونية، وأنه سبحانه يطلع من شاء من رسله على بعض الغيب، ولقد

---

(١) سورة الجن آية ٢٦ ـ ٢٧.

سجل القرآن شيئًا من ذلك فى شأن عيسى عليه السلام، يقول الله تعالى عن عيسى عليه السلام يقول لبنى إسرائيل: ﴿**وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ (١).

إن إخباره عليه السلام بما هو غيب يحدث بعيدًا عنه، يحدث فى بيوتهم آية أعطاها الله له ليهتدى بها أصحاب القلوب السليمة. وكذلك رسول الله محمد ﷺ، أعلمه الله الكثير من الأمور الغيبية آيات بينات تنطق بنبوته ورسالته، وتزيد المؤمنين إيمانًا وهدى.

*** وآية ثالثة:**

وهى قوله تعالى فى آية الكرسى: ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ**﴾ (٢).

إنه سبحانه هو الذى أحاط بكل شىء علمًا، أما الخلق فإنهم لا يعلمون شيئًا من معلوماته تعالى إلا بالقدر الذى أراد سبحانه أن يعلمهم إياه.

إن علم الله سبحانه وتعالى محيط، يكون بجنس الشىء، وكيفيته وأجزائه، والغرض من كل جزء فيه، وماذا قدر له، وإلى أى أجل سيكون، وهو سبحانه وتعالى يُعَلِّم من شاء من خلقه شيئًا من ذلك، فليس فى وسع البشر علم كل ذلك.

وهكذا تفيد هذه الآية والآيتان السابقتان عليها أن الله تبارك وتعالى يطلع رسوله ﷺ على ما شاء سبحانه من علوم وغيبيات، هى من فضل الله على رسوله، معجزة له ﷺ، ودلالة صادقة على نبوته ﷺ.

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٩.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٥.

معجزات من السنة النبوية

ولقد جاءت أحاديث كثيرة أخبر فيها ﷺ عن أمور غيبية فوقعت كما أخبر ﷺ وهذه أنواع، منها:

١ ـ ما أخبر ﷺ أنه سيحدث، فحدث فى حياته.

٢ ـ ما أخبر ﷺ أنه سيحدث، فحدث بعد مماته، وقبل زماننا.

٣ ـ ما أخبر ﷺ أنه سيحدث بعد زماننا.

٤ ـ ما أخبر ﷺ أنه سيحدث، فحدث فى زماننا.

١ ـ معجزات تحققت فى حياته

فمما أخبر ﷺ أنه سيحدث، فحدث فى حياته:

• إخباره بمقتل صناديد الشرك:

ففى غزوة بدر، أخبر عن مقتل عدد من المشركين، وحدد مكان قتل كل واحد منهم، وحدثت المعركة، وتحقق ما أخبر به ﷺ، فقتل من أخبر ﷺ أنه سيقتل، وفى المكان الذى حدده ﷺ:

فعن أنس بن مالك عن عمر بن الخطاب: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: هذا مصرع فلان غدًا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان إن شاء الله، قال عمر: فوالذى بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التى حدها رسول الله ﷺ[1].

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨٧٣ والنسائى فى الجنائز باب أرواح المؤمنين ١٠٩/٤ كذا فى جامع الأصول ٢٠٢/٨ رقم ٦٠٣١.

وتعليقًا على تحديده ﷺ من سيقتل فى غزوة بدر، ومكان قتله، يقول الإمام النووى: هذا من معجزاته ﷺ الظاهرة[١].

أعلمه ربنا علام الغيوب، فأعلم ﷺ أصحابه تطمينًا لقلوبهم، وليربو الإيمان فى أنفسهم، ونُقل الخبر إلينا تطمينًا لنا وزيادة يقين، فلله الحمد على ما أنعم، والصلاة والسلام على النبى المكرم.

• نعيه قادة غزوة مؤتة:

جهز رسول الله ﷺ جيشًا، ليؤدب أهل الجهة الشمالية من الجزيرة، فلقد قتلوا مندوب رسول الله ﷺ غدرًا.

وعين ﷺ من يقود هذا الجيش، وكان التعيين عجبًا.

فلقد عين ﷺ زيد بن حارثة قائدًا للجيش، فإن قتل فليكن القائد جعفر بن أبى طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة.

فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: أمَّر رسول الله ﷺ فى غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ : إن قُتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»[٢].

وأيقن الصحابة أن هؤلاء القادة سيُقتلون، وأيقن القادة أيضًا بذاك، وسافر جيش المسلمين، والتقى بجيش الروم، وقُتل القادة الثلاثة، واختار الجيش خالد بن الوليد قائدًا، وأعز الله جنده.

ورسول الله ﷺ فى المدينة، يخبر بكل ذلك، يخبر باستشهاد القادة الثلاثة، وتولى خالد، وفتح الله على المسلمين.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٥/ ٧٢٤.

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٧/ ٥١٠ رقم ٤٢٦١.

فعن أنس رضى الله عنه «أن النبى ﷺ نعى زيدًا، وجعفرًا، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد، فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»(١).

وفى رواية أخرى «ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح له»(٢).

وفى غزوة مؤتة هذه عدة معجزات له ﷺ:

* فلقد عيَّن القواد الثلاثة، وفعلاً تولَّوا القيادة.

* وأخبر بوفاتهم قبل مجىء أى خبر من أرض المعركة إلى المدينة، وكان كما أخبر ﷺ.

* وأخبر بتولى خالد، وأن الجيش اختاره، وكان كما أخبر ﷺ.

* وأخبر بالفتح، وكان كما أخبر ﷺ.

• إخباره بخروج الحُمّى من المدينة:

ودعا ﷺ بنقل الحمى عن المدينة وكان كما أخبر، ورأى أن الحمى قد نقلت إلى الجحفة، وكان كما دعا وكما رأى ﷺ، وقد قدمت ذلك»(٣).

* * *

(١) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة باب مناقب خالد بن الوليد رضى الله عنه ٧/ ١٠٠ رقم ٣٧٥٧.

(٢) عند البخارى فى الجهاد باب تمنى الشهادة ٦/ ١٦ رقم ٢٧٩٨.

(٣) تقدم هنا فى معجزاته ﷺ من السنة تحت عنوان (١٦ ـ صلاح مدينته ﷺ بدعائه).

٢ـ معجزات تحققت بعده ﷺ وقبل زماننا

ومن معجزاته ﷺ فى الإخبار بالغيب، معجزات تكلم بها فحدثت بعد موته ﷺ، وقبل زماننا، وهذه أيضًا كثيرة، أذكر بعضًا منها:

• إخباره عن الصلح بين المسلمين على يد الحسن:

فلقد أخبر ﷺ أن الحسن بن على بن أبى طالب، والذى أمه السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، أخبر عنه رسول الله أن الله تبارك وتعالى سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، وقد حدث ذلك فعلاً، فبعد مقتل على بن أبى طالب قاد الحسن الجيش الذى كان يتبع عليا، وكان جيشًا كثيفًا، والتقى بمعاوية بن أبى سفيان، ومعه أيضًا جيش كثيف، وحتى لا تقع هذه المعركة الرهيبة بين فئتين من المسلمين، تنازل الحسن عن الحكم لمعاوية، واصطلح الطرفان، وسمى ذلك العام «عام الجماعة» لاجتماع الكلمة فيه على رجل واحد.

فعن الحسن البصرى قال: استقبل والله الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص[١]: إنى لأرى كتائب لا تولى حتى تقتل أقرانها[٢]، فقال له معاوية ـ وكان والله خير الرجلين ـ[٣]: أى عمرو[٤]

(١) قال لمعاوية بن أبى سفيان.

(٢) يريد أن جيش الحسن أقوى من جيش معاوية.

(٣) هذا من كلام الحسن البصرى، يريد أن معاوية أمام كلام عمرو كان إما أن يأخذه الكبر والغرور ويصر على الحرب، وإما أن يتصف بالحلم ويطلب الصلح، فكان الثانى، وبه كان معاوية أفضل الاحتمالين.

(٤) يعنى: يا عمرو.

إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء[١]، من لى بأمور الناس[٢]، من لى بنسائهم، من لى بضيعتهم[٣]؟ فبعث إليه رجلين من قريش[٤] من بنى عبد شمس ـ عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز ـ فقال[٥]: اذهبا إلى هذا الرجل[٦]، فاعرضا عليه، وقولا له، واطلبا إليه[٧]، فأتياه فدخلا عليه، فتكلما، وقالا له، وطلبا إليه، فقال لهما الحسن بن على: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت فى دمائها، قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك، قال: فمن لى بهذا؟ قالا: نحن لك به.

فما سألهما شيئًا إلا قالا: نحن لك به، فصالحه[٨].

فقال الحسن[٩]: ولقد سمعت أبا بكرة يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن على إلى جنبه، وهو يُقْبل على الناس مرة، وعليه أخرى[١٠]، ويقول إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بى فئتين عظيمتين من المسلمين»[١١].

---

(١) يريد إن قتل جيش الحسن جيشى، وقتل جيشى جيشَ الحسن.

(٢) أى كيف يكون حال الأمة، وقد قتل رجالها وأصحاب الرأى وتحمل المسئولية؟

(٣) الأطفال الصغار، والشيوخ والعجائز.

(٤) أى بعث معاوية رجلين إلى الحسن يبحثان معه السبيل للحفاظ على أرواح المسلمين.

(٥) أى معاوية.

(٦) أى الحسن بن على بن أبى طالب.

(٧) أى اعرضا عليه الصلح، والكثير من المزايا وحدثاه عن خطورة الحرب، واطلبا إليه الاستجابة.

(٨) أى صالح الحسن بن على بن أبى طالب معاوية بن أبى سفيان، على أن يكون الحاكم معاوية، وتنازل الحسن رضى الله عنه عن الحكم.

(٩) هو الحسن البصرى، وهو راوى الحديث، وهو تابعى، وهو غير الحسن بن على.

(١٠) أى على الحسن بن على.

(١١) أخرجه البخارى فى الصلح باب قول النبى ﷺ للحسن بن على رضى الله عنهما «إن ابنى هذا سيد... ٥/٣٠٦ رقم ٢٧٠٤.

لقد أخبر ﷺ عن هذا الصلح قبل وقوعه بثلاثين سنة على الأقل، فإن هذا الصلح حدث سنة أربعين هجرية، بعد وفاة الإمام على، فلو أن رسول الله ﷺ قال ذلك فى آخر حياته، فيكون قاله قبل وقوعه بثلاثين سنة، ولقد توفى ﷺ والحسن لم يتجاوز السابعة، وبالتالى لم تظهر ملامح شخصيته فأخبر ﷺ بهذا الموقف منه، وبملابسات الموقف، من وجود فئتين عظيمتين متحاربتين من المسلمين، وأن الحسن رضى الله عنه يُوَفَّق للصلح بينهما، وهكذا كان الأمر كما أخبر ﷺ.

• إخباره بركوب المجاهدين البحر:

وأخبر ﷺ أن أمته سيخرجون من جزيرة العرب فاتحين، بل ويخرجون من البر إلى البحر، وسيفتحون مدينة قبرص، وسيفتحون القسطنطينية، يركبون السفن مجاهدين صادقين مما يجعلهم من أهل جنة الله تبارك وتعالى، وزيادة فى التدقيق فيما أخبره الله تبارك وتعالى به، يخبر أن المجموعة الأولى فيها الصحابية أم حرام خالة أنس بن مالك، وخالته ﷺ[1] وأنها لن تعيش لتدرك المجموعة الثانية.

فعن أم حرام بنت ملحان قالت: «نام النبى ﷺ يومًا قريبًا منى، ثم استيقظ يتبسم، فقلت: ما أضحكك؟ قال: أناس من أمتى عُرضوا علىَّ يركبون هذا البحر الأخضر[2] كالملوك على الأسِرَّة، قالت: فادع الله أن يجعلنى منهم، فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها، فقالت مثل قولها، فأجابها مثلها، فقالت: ادع الله أن يجعلنى منهم، فقال: أنت من الأولين. فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازيًا أول ما ركب

(١) راجع آخر شرح حديث ٦٢٨٣ فى فتح البارى جـ ١١ ص ٧٨.

(٢) هو الذى يعرف الآن بالبحر الأبيض وهو باسم الأخضر أليق، نظرًا لخضرته.

المسلمون البحر مع معاوية، فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين[١] فنزلوا الشام فقربت إليها دابة لتركبها، فصرعتها فماتت»[٢].

ولقد تحقق كل ما أخبر به ﷺ، فغزا المسلمون جزيرة قبرص، وفتحوها فى خلافة عثمان بن عفان، وكان ذلك بقيادة معاوية بن أبى سفيان، وذلك فى سنة ثمان وعشرين، وفيها استشهدت الغميصاء أم حرام خالة أنس بن مالك.

ثم غزا المسلمون البحر ثانية، وفتحوا القسطنطينية[٣].

وفى هذا من أدلة نبوته، وصدق سنته ﷺ ما يأتى:

١ ـ أخبر ﷺ بركوب المجاهدين من أمته البحر فكان كما أخبر، فلقد وقع ذلك بعد وفاته ﷺ بثمانى عشرة سنة.

٢ ـ أخبر ﷺ أن البحر الذى سيركبونه هو المؤدى إلى مدينة قيصر الروم، فركبوه أول ما ركبوا.

٣ ـ أخبر ﷺ بحملة جهادية، وفى الثانية تفتح مدينة القيصر كما فى حديث أم حرام أنه ﷺ قال «أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا[٤]، قالت أم حرام: قلت يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم، ثم قال النبى ﷺ : أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال :لا»[٥]، ولقد كان كما أخبر ﷺ.

---

(١) أى عائدين.

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد باب فضل من يصرع فى سبيل الله فمات فهو منهم ٦/١٨ رقم ٢٧٩٩ ـ ٢٨٠٠.

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير ٧/١٦٧.

(٤) أى فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة.

(٥) أخرجه البخارى فى الجهاد باب ما قيل فى قتال الروم ٦/١٠٢ رقم ٢٩٢٤.

٤ ـ أخبر ﷺ أن أم حرام ستكون فى الجيش الأول، ولن تكون فى الجيش الثانى، وتحقق كل ذلك، فعاشت وخرجت مع الجيش الأول، واستشهدت فى الغزوة الأولى، ولم تدرك الجيش الثانى.

وكل ذلك مما علمه الله تبارك وتعالى، وأخبرنا به ﷺ، فازددنا به إيمانًا، وطمأننا على صحة السنة وثبوتها، وأنها علم شامل لأحوال الأمة وتاريخها.

• إخباره بالفتوحات الإسلامية:

وأخبر ﷺ بالفتوحات الإسلامية وأن الله تبارك وتعالى سيفتح على المسلمين الكثير من البلاد، فتحقق ما أخبر به ﷺ، وزاد الأمر عظمة أن البلاد فتحت وفق قوله ﷺ، وكما وصف.

فعن سفيان بن أبى زهير رضى الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«تُفْتح اليمن، فيأتى قوم يُبِسُّون[1]، فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون[2].

وتُفْتح الشام، فيأتى قوم يُبِسُّون، فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.

وتفتح العراق، فيأتى قوم يبسون، فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون[3].

(١) يزينون لأهلهم الخروج من مدينة الرسول ﷺ إلى البلاد المفتوحة.

(٢) أى أن الإقامة فى مدينته ﷺ خير لهم من البلاد المفتوحة لما فى المدينة من كثرة العلم وكثرة العبادة.

(٣) أخرجه البخارى فى فضائل المدينة باب من رغب عن المدينة ٤/ ٩٠ رقم ١٨٧٥ ومسلم فى الحج باب ترغيب الناس فى سكنى المدينة عند فتح الأمصار ٣/ ٥٣٣ بشرح النووى طبعة الشعب.

ولقد فُتحت هذه البلاد وأسلم أهلها، وأصبحوا من أهل الإسلام وحماته، ولأن الكلام من وحى الله العليم الخبير، فلقد أخبر ﷺ بالواقع تمامًا، ففتحت هذه البلاد وفق إخباره ﷺ، ففتحت اليمن والشام، ثم فتحت العراق، وحدث تفرق الناس فى هذه البلاد، لما فيها من السعة والرخاء، ولو صبروا على الإقامة بالمدينة لكان خيرًا لهم.

• إخباره بمدة الخلافة:

وأخبر ﷺ أن الحكم بعده سيكون خلافة لمدة ثلاثين سنة، ثم يتغير إلى مُلْك، فوقع كما أخبر ﷺ تمامًا، إذ انتهت مدة الخلفاء الراشدين بموت على بن أبى طالب سنة أربعين، فكانت الخلافة بعده ﷺ ثلاثين سنة، هى كما يلى:

خلافة أبى بكر سنتان.

وخلافة عمر عشر سنين.

وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة

وخلافة على ست سنوات[١].

فعن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتى الله الملك أو ملكه من يشاء»[٢].

وعن سفينة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الخلافة ثلاثون عامًا، ثم يكون بعد ذلك الملك».

(١) راجع صحيح ابن حبان ١٥/٣٧ ـ ٣٨ ففيه تحديد زمن خلافة كُلٌّ باليوم.

(٢) أخرجه أبو داود فى السنة باب فى الخلفاء ١٢/٣٩٧. وأخرجه ابن حبان فى التاريخ باب إخباره ﷺ عما يكون فى أمته من الفتن والحوادث ١٥/٣٥ رقم ٦٦٥٧، وفيه تخريجه، وأيضًا فى سبل الهدى والرشاد ١٠/٣٧٨.

قال سفينة[١]: أمسك خلافة أبى بكر رضى الله عنه سنتين

وخلافة عمر رضى الله عنه عشر سنين.

وخلافة عثمان رضى الله عنه اثنتى عشرة سنة.

وخلافة على رضى الله عنه ست سنين. رضى الله عنهم.

وهكذا تحقق الأمر كما أخبر ﷺ، وكانت الخلافة ثلاثين عامًا، ﷺ وعلى آله وأصحابه والتابعين[٢].

* * *

(١) يقول هذا سعيد بن جهمان تلميذه.

(٢) أخرجه أحمد ٣٦/٢٤٨ رقم ٢١٩١٩ وحسّنه محققه.

٣ ـ معجزات ستظهر بعد زماننا

وأخبر ﷺ عن أمور ستحدث بعد زماننا، وهذه كثيرة، وبخاصة ما يتعلق بالفتن، وأشراط الساعة، وأحداث القيامة، وأحوال الدار الآخرة.

وإنى أذكر من ذلك شيئًا، أوضح به هذا النوع من المعجزات، وسأركِّز على ما بدأت بوادره تظهر:

• كثرة المال:

عن عدى بن حاتم قال: بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل. فقال: يا عدى، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أُنبِئْتُ عنها.

قال: فإن طالت بك حياة لَتَرَيَنَّ الظعينة[1] ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحدًا إلا الله. قلت ـ فيما بينى وبين نفسى ـ: فأين دُعّار[2] طَيِّئ[3]، الذين قد سعروا البلاد[4]؟

ولئن طالت بك حياة لَتُفْتَحَنّ كنوز كسرى. قلت: كسرى بن هُرْمُز؟ قال: كسرى بن هرمز.

ولئن طالت بك حياة لَتَرَيَنّ الرجل يُخْرِج مِلْء كفه من ذهب أو فضة يطلب مَنْ يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه...

(١) المرأة تكون فى الهودج، والذى هو ما تركب فيه المرأة على ظهر البعير.

(٢) الدعار جمع داعر، وهو الخبيث المفسد.

(٣) طيئ: قبيلة تسكن بين العراق والحجاز، منهم قطاع طرق.

(٤) أى ملئوا الأرض شرًا.

قال عدى: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله. وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز. ولئن طالت بكم حياة لَتَرَوُنّ ما قال النبى أبو القاسم ﷺ: يخرج ملء كفه»[١].

لقد أخبر ﷺ عدى بن حاتم الطائى بهذه الأمور الثلاثة بأنها ستحدث، فحدث أمران منها فى حياة عدى، أخبر بذلك عدى، ولا زال الأمران بحمد الله موجودين، وأما الأمر الثالث فإنه سيتحقق بعد عدى، وبداياته قد ظهرت فى زماننا، فلقد كثر المال كثرة كثيرة، مما يبشر بأن الأمر الثالث، والذى هو كثرة المال حتى لا يجد الإنسان من يقبل صدقته، قد أوشك أن يظهر.

وكثرة المال قد جاءت فى أحاديث كثيرة، كلها من معجزاته ﷺ التى حدثت بعده، وستظهر بعد زماننا.

● قتال المسلمين اليهود:

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقاتلكم اليهود، فتُسَلَّطون عليهم، حتى يقول الحجر: يا مسلم، هذا يهودى ورائى فاقتله»[٢].

هذه جماعات اليهود تتجمع فى فلسطين، من كل نواحى العالم، يتحقق بذلك ما جاء فى كتاب الله تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا**﴾[٣].

وهذه الجماعات تتحكم فى وسائل الإعلام كثيرًا، يتحقق بذلك قول

(١) أخرجه البخارى فى المناقب باب علامات النبوة ٦/ ٦١٠ رقم ٣٥٩٥.
(٢) أخرجه البخارى فى المناقب باب علامات النبوة ٦/ ٦٠٤ رقم ٣٥٩٣.
(٣) سورة الإسراء آية ١٠٤.

الله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾[1].

ويأتى هذا الحديث فيبين أن اليهود هم الذين سيبدءون الحرب «تقاتلكم اليهود» وأن الله يسلط المسلمين عليهم، ويؤيد المسلمين حتى إن الحجر ينطق، ويساعد المسلم.

ها هم اليهود وقد تجمعوا وأقاموا كيانًا لهم فى وسط العرب من أمة الإسلام، فتحقق القسم الأول من الحديث، وسيتحقق القسم الثانى، وهو كلام الحجر سيتحقق هذا فيما يستقبل من الزمان.

وهكذا تحقق صدر الحديث فى زماننا، وسيتحقق الباقى بعد زماننا.

• كثرة الزراعة بجزيرة العرب:

عن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدًا يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجًا[2] وأنهارًا»[3].

يخبر ﷺ أن المال سيكثر، وأن جزيرة العرب ستكثر فيها الزراعة والأنهار، وها قد ظهرت بدايات ذلك، فكثر المال، وكثرت المياه والزراعة فى أرض العرب، هذا فى زماننا. وبقى أن يزيد المال حتى لا يقبله أحد، وأن تعم المزارع والأنهار أرض الجزيرة. وهذا سيتحقق فى المستقبل، وفق ما أخبر ﷺ.

---

(١) سورة الإسراء آية ٦.

(٢) المروج: المزارع والمراعى، واحدها مَرْج.

(٣) أخرجه مسلم فى الزكاة باب الترغيب فى الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ٢/٧٠١.

• كثرة الزلازل:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْج - وهو القتل - حتى يكثر فيكم المال فيفيض»[١].

يخبر ﷺ عن عدة أمور ستحدث، من قلة العلم، وكثرة الزلازل، وسرعة مرور الزمن، وظهور الأمور التى تصرف الناس عن دينهم، وكثرة القتل، وكثرة المال.

وقد آذنت هذه كلها بالظهور، فقلّ العلم الشرعى فى الناس، وانصرفوا إلى الماديات، وإلى الدراسات غير الشرعية.

وكثرت الزلازل، ما بين هزات تقلق الناس، وما بين انشقاق الأرض لتبتلع قرى أو مدنًا.

وتقارب الزمان حتى أصبح الناس يشكون قِصَر اليوم، وصِغَر الشهر، وسرعة مرور السنة.

وظهرت الفتن، تدعو الناس إلى المعاصى، وتأخذهم من الطاعات.

وكثر الهَرْج وهو القتل، فتتقاتل الجماعتان من المسلمين، فيموت الناس بالآلاف، كما فى حرب العراق وإيران، وكما فى حرب العراق والكويت.

وكثر المال وفاض، وأصبح كثيرًا فى يد المسلمين.

لقد ظهرت بدايات هذه الأمارات من أمارات الساعة فى زماننا، وستستحكم بعد زماننا وتكمل.

(١) أخرجه البخارى فى الاستسقاء باب ما قيل فى الزلازل والآيات ٢/ ٥٢١ رقم ١٠٣٦.

● شدة البلاء:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه، ويقول: يا ليتنى كنت مكان صاحب هذا القبر. وليس به الدِّين إلا البلاء»[1].

يخبر ﷺ عن أمر سيحدث، وأن الفتن ستكثر، حتى إن الإنسان يتمنى الموت، لا لصلاحه، وحبه الآخرة، ولكن لشدة البلاء، وكثرة الفتن، وسائر الضراء.

● ظهور الذهب فى نهر الفرات:

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يَحْسِرَ[2] الفرات[3] عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه، فيُقْتَل من كل مائة تسعة وتسعون. ويقول كل رجل منهم: لعلِّى أكون أنا الذى أنجو»[4].

جاء فى رواية: «فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا»[5].

يخبر ﷺ أن نهر الفرات سينكشف عن كميات كثيرة من الذهب، وهذا لم يحدث إلى الآن، وإذا كان البعض يفسره بما ظهر من بترول، فلست مع هذا الرأى فى تفسير الحديث.

---

(١) أخرجه مسلم فى الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ٤/ ٢٢٣١ رقم ٥٤.

(٢) أى ينكشف لذهاب مائه.

(٣) نهر ببلاد العراق مشهور.

(٤) أخرجه مسلم فى الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب ٤/ ٢٢١٩ رقم ٢٩/ ٢٨٩٤.

(٥) عند مسلم بعد الحديث السابق.

وإنما سيأتى وقت تجف مياه الفرات، ويظهر مكانه ذهب كثير، هذا الذهب فى حالة يصلح للانتفاع به، أى أنه خالص، ويمكن تداوله بدليل قوله ﷺ: «فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا» وسيقتتل الناس عليه، حتى تكون نسبة القتلى بين المتزاحمين عليه ٩٩٪. وهذا سيحدث بعد زماننا.

* * *

٤ـ معجزات تحققت فى زماننا

وحظ زماننا من معجزاته ﷺ كثير، فلقد تحدث ﷺ بأحاديث تحققت فى زماننا، وظهرت فى أيامنا، أحاديث تُصْلح شأن الأمة، وتأخذ بأيدينا إلى الحق والخير.

وهذه الأحاديث بحمد الله كثيرة، وهى موضوع كتابى هذا بكل أجزائه، رأيت أن أجمعها، وأن أشرحها، تقدم للأمة فى هذه الآونة نصائح نبوية، تأخذ بيد الأمة من رقدتها، وتسرع بها إلى غايتها.

• وهذه الأحاديث تدل الأمة على الخير كل الخير، وتصل بالأمة إلى السعادة.

• وتحذرها المتالف والمهالك، وكيف تصل هذه الأمور إلى حياة الأمة، وكيف نتجنبها.

* وتحذرها مخالفة الكتاب والسنة فى أى أمر وإن دق.
* وتحذرها اتباع الأمم الأخرى.
* وتحذرها إسناد الأمر إلى غير أهله.
* وتحذرها حب الدنيا.
* وتحذرها التركيز على المظهر وترك المخبر.
* وتحذرها المخدرات، والزنا، والربا، واللهو.
* وتحذرها الانحراف وميوعة النساء.
* وتحذرها التوسع والإسراف.

* وتحذرها الظلم والبخل.

* وتحذرها الفتن والصوارف عن الدين.

* وتحثها على الاعتصام بالقرآن والسنة.

* وتحثها على العدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

* وتحثها على الاعتزاز بشخصيتها.

* وتحثها على الاهتمام بالجهاد.

* وتحثها على احترام العلم، والأخذ بأساليبه.

* وتحثها على الاجتهاد فى العمل وإتقانه.

* وتدلها على أن الإسلام سيظل قويًا، له أهله الذين ينصرونه، ويعتزون به، وهؤلاء هم أهل رضوان الله تعالى وحبه.

وهذا النوع من المعجزات، والذى هو أحاديث مشتملة على معجزات ظهرت فى زماننا، هو موضوع هذا الكتاب.

وهذا أوان الشروع فى ذكر وشرح هذه الأحاديث، فأقول وبالله التوفيق:

الإخبار بصعوبة المحافظة على الدين

عَنْ أَنَس بْنِ مَالك قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يأتى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ»[1].

• المعانى:

«يأتى على الناس» أى أن هذا إنما سيكون بعد زمانه ﷺ، و«الناس» لفظ عام أريد به خاص وهم المسلمون.

«الصابر على دينه» وفى رواية «القابض على دينه» والمراد: المتمسك بدينه، الملتزم بأحكامه، ينحاز به بعيدًا عن البدع وانحرافات الناس، ويفر به من الصوارف الموقعة فى الضلال والكفر، ويتحمل فى سبيل ذلك الكثير من المشقات والمصائب.

«كالقابض على الجمر» الجَمْر: جمع جمرة، وهى القطعة الملتهبة من النار.

والمراد: أنه سيأتى على الناس زمان يتعرض المسلم للفتن والشدائد التى تصرفه عن دينه، وللبدع والخرافات التى تجعله معيبًا عند الناس للالتزام بدينه، فى هذا الزمان يصبح الالتزام بالإسلام شديدًا على أهله شدة القبض على قطع النار.

وفى هذا تشبيه المعقول بالمحسوس، شبه ﷺ المسلم المعتز بدينه بالقابض على جمر النار، فكل منهما فى معاناة شديدة.

(١) أخرجه الترمذى قبل آخر كتاب الفتن بقليل ٦/٥٣٨. وله شواهد عن أبى ثعلبة وأبى هريرة وابن مسعود.

• **راوى الحديث:**

أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم من الأنصار ـ أهل المدينة المنورة ـ ومن بنى النجار ـ أخوال جد رسول الله ﷺ ـ وبالتالى فهم أخوال رسول الله ﷺ.

كان هذا الصحابى الجليل رجلاً لبيبًا ذكيًا حكيمًا، وله أم من أكثر النساء حزمًا وحكمة، ومن حكمتها وحزمها أنها تقدمت بأنس هذا إلى رسول الله ﷺ، وطلبت منه أن يقبله خادمًا، ترجو بذلك الكثير من الخير لها ولابنها، ولقد كانت مدركة لما يجب أن يكون عليه من يخدم رسول الله ﷺ، ورأت هذه الصفات متوفرة فى أنس، يوضح شيئًا من ذلك قولها «يا رسول الله، هذا أنس غلام لبيب كاتب يخدمك».

لقد أرادت هذه الصحابية الجليلة لابنها أن يتعلم العلم والعمل بقربه من رسول الله ﷺ، فتم لها ما أرادت، فلقد عاش أنس فى بيت رسول الله ﷺ عشر سنين، يرى عبادة رسول الله ﷺ، ويرى هَدْيَه وسمتَه، ويستمتع بطيب وكريم خلقه ﷺ، ومن هنا فإن الدارس لحياة هذا الصحابى، يلمح قربا بينه وبين ما كان عليه رسول الله ﷺ، فها هو ثمامة بن عبد الله يقول: كان أنس يصلى فيطيل القيام حتى تتفطر قدماه دمًا. إن هذا المنهج هو منهجه ﷺ، فلقد كا يطيل القيام حتى تتفطر أى تتشقق قدماه ﷺ. وهذا أبوهريرة يقول: ما رأيت أحدا أشبه صلاة برسول الله ﷺ من ابن أم سليم. يعنى أنسًا[1]. وهذا يوضح لنا ما استفاده أنس من قربه من رسول الله ﷺ، فلقد كان يتقن الصلاة، وكان كثير القيام طويله، يحيى ليله بعبادة ربه.

(١) أخرجه ابن الجعد فى مسنده ١/ ٦١١ رقم ١٤٠٩.

واستفاد أنس من رسول الله ﷺ الدقة فى الرمى[1]، وما ذلك إلا لحرصه على الجهاد، كيف وهو الذى شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، وشهد الاستعداد لها، حينما كان ﷺ يباشر الرمى، وحينما كان يحث الصحابة عليه، وفوق ذلك فهو الذى يعرف قدر الجهاد، ومنزلة الرمى فيه. لقد كان أنس ـ رضى الله عنه ـ أحد الرماة المصيبين، يصيب الهدف ولا يخطئه ويأمر أولاده أن يرموا بين يديه، ويرمى معهم فيغلبهم بكثرة إصابة الهدف.

واستفاد أنس من رسول الله ﷺ إعلاء قدر العلم، فأعلا الناس منزلة عندهم أعلمهم بدينه، لا يقدم عليه حبيبًا ولا قريبًا، فطلاب العلم أحب عنده من أهله، وهذا أمر لا يكون عليه إلا النذر اليسير من الناس، فمن الناس من يجهل قدر العلم الشرعى، ولذا لا يتعلمونه، ولا يعلمونه أولادهم، ومن الناس من يعرف قدر العلم الشرعى، لكنه لا يعمل بمعنى أنه يعلم أن الإسلام أعلى منزلة العلماء لكنه لا يطلب العلم، ولا يعرف للعلماء حقهم، ومن الناس من يعرف للعلماء شيئًا من حقهم، أما أنس ـ رضى الله عنه ـ هذا الصحابى الجليل فكان فى أعلا المراتب، يعرف قدر العلم، ويطلب العلم، ويجل العلماء، حتى إنه يحبهم أكثر من أولاده، يقول ثابت البنانى: كنا عند أنس بن مالك وجماعة من أصحابه فالتفت إلينا فقال: والله لأنتم أحب إلىَّ من عِدَّتكم من ولد أنس إلا أن يكونوا فى الخير أمثالكم. منزلة عالية، ومرتبة سامية، يحب العلماء العاملين أكثر من أولاده، إلا أن يكون أولاده على نفس المرتبة من الصلاح والخير.

ومما استفاده أنس من خدمته رسول الله ﷺ أن حظى بدعاء رسول الله

(١) إصابة الهدف.

ﷺ له، ولقد كانت أمه تحرص على ذلك، حتى إنها سألت رسول الله ﷺ أن يدعو له، فدعا له ﷺ بطول العمر، وكثرة المال والولد، ودخول الجنة، واستجاب الله دعاء نبيه ﷺ: فعمر أنس طويلاً، حتى إنه كان آخر من صحب رسول الله ﷺ موتًا، لم يشاركه فى ذلك أحد، ومن عاش إلى وفاته أو بعده فإنما هم من الأعراب الذين رأوا رسول الله ﷺ فثبتت لهم الصحبة، لكن لم يكثروا من مجالسته ﷺ والأخذ عنه، ولذلك فإنه لما سئل: أنت آخر من بقى من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: قد بقى قوم من الأعراب، فأما من أصحابه فأنا آخر من بقى. لقد عمَّر أنس ـ رضى الله عنه ـ حتى مات سنة اثنتين وتسعين عن عمر جاوز المائة سنة.

واستجاب الله دعوة نبيه ﷺ له بكثرة المال، فبارك الله له فى ماله، حتى كان بستانه يحمل فى العام مرتين، وكان أكثر الأنصار مالاً.

واستجاب الله دعوة نبيه ﷺ له بكثرة الولد، فولد له من صلبه ثمانون ولدا، وابنتان.

وكان رضى الله عنه يتحدث بنعم الله عليه، وحظوته بدعوات رسول الله ﷺ له، وأن الله سبحانه قد استجابها، وكان يقول: وأنا أنتظر الرابعة، يعنى دخول الجنة.

رضى الله عن هذا الصحابى، وعن كل أصحاب رسول الله ﷺ، وعن التابعين لهم بإحسان، وجعلنا خير خلف لخير سلف.

• شرح الحديث:

يحدث رسول الله ﷺ أمته عن زمن تكثر فيه الأمور التى تصرف الناس عن الالتزام بالإسلام، وتدعوهم إلى الوقوع فى الكفر أو النفاق،

أو المعاصى والسيئات!! يحدثنا ﷺ عن زمن يصعب على المسلم جدًا أن يتمسك بدينه، ويلتزم بشرع الله سبحانه، فالالتزام بالإسلام فى هذا الزمن فيه مخالفة لأهل الضلال والهوى، وهم الكثرة الغالبة، مما يجعل الملتزم غريبًا، والالتزام بالإسلام فيه مكابدة مقاومة الصوارف عن الحق، وفيه مجاهدة الانصراف والبعد عن دواعى الشهوات.

إن الالتزام بالإسلام فى هذا الزمن الذى يحدثنا عنه ﷺ شديد، لأن المسلم إن استطاع أن يقوّم نفسه بسهولة، فإنه لا يستطيع أن يقوم أهله بسهولة، فالزوجات والبنات ناقصات العقل والدين، والصبية والشباب أهل الرعونة والطيش، كيف بولى الأمر أن يقوّم هؤلاء على كتاب الله، إذا كثرت الصوارف عن الإسلام، وكثرت دواعى الغى والضلال!!

كيف إذا كثرت وسائل اللهو والغى وتنوعت، وبلغت حدا عاليًا فى بريقها وإغرائها، تدعو الصغير والكبير، تستولى على اهتمام المثقف والعامى، موغلة فى اللهو واللعب، جذابة لمن يراها، قاتلة لوقت من يهواها؟!!

وأيضًا لو استطاع أن يقوِّم نفسه وأهله، فإنه لا يستطيع أن يقوِّم مجتمعه، فماذا يفعل المؤمن وقد عم الربا وشاع، ماذا يفعل فيما كثر فى الأمة من فساد، كالرشوة والقمار، والأغانى الماجنة، والألعاب الفاجرة، ماذا يفعل فى اختلاط الرجال والنساء، والشباب والفتيات، ماذا يفعل فى الزنا الذى كثر، وفى الخمر، الذى انتشر؟!! إنه يقف أمام هذه المنكرات متحسرًا، حزينًا، فهو الذى قرأ قول الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾ [1]، فشؤم الذنب لا ينزل على المذنب وحده، وإنما يعم الصالح والطالح، أما الصالح فلكونه لم يأخذ على يد المذنب،

(١) سورة الأنفال آية ٢٥.

وقد قال ﷺ: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب»[١]، وأما الطالح فبشؤم ذنبه وفساده، ومن هنا يقف المسلم الملتزم أمام الذنوب التى تقع فى المجتمع، لا موقف المتفرج، ولا موقف غير المبالى، وإنما موقف المتحسر الحزين، حزين لحال أمته، حزين لمعرفته أن الذنوب تُغضب الله، ولا طاقة للخلق بغضبه سبحانه، إن المسلم الملتزم، الفاهم لدينه، المتمسك به يحزن لانتشار الذنوب، لأنه قرأ حديث رسول الله ﷺ فى شؤم الذنوب، وفيه تسأل أم المؤمنين، زينب بنت جحش رسول الله ﷺ قائلة: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ فيجيبها ﷺ «نعم، إذا كثُرَ الخبث»[٢].

• موقف المسلم من المنكرات:

إن المسلم الملتزم يقرأ قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [٣]، لكنه يعرف معنى الآية وأبعادها بدقة، لا بفهم منه، وإنما ببيان من رسول الله ﷺ، فها هو أبو أمية الشعبانى يسأل أبا ثعلبة الخشنى قائلاً: كيف تقول فى هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ ؟ فيجيبه أبو ثعلبة قائلاً: أما والله لقد سألت عنها خبيرًا، سألتُ رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك نفسك، ودع أمر العوام، فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن مثل قبضٍ على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله، زاد فى رواية: يا

(١) أخرجه أبو داود فى الملاحم باب الأمر والنهى ٤/ ١٢٢.
(٢) أخرجه البخارى ومسلم فى الفتن.
(٣) سورة المائدة آية ١٠٥.

رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: خمسين منكم»[1].

فلقد أبان ﷺ فى هذا الحديث، أن الآية لا تفيد أن يكون المسلم مهتمًا باستقامة نفسه فقط، وإنما عليه أن يكون آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، باذلاً فى ذلك كل نفس ونفيس، لا يثنيه تحمل المشقات، ولا ما فى تقويم المجتمع من تبعات، بل هو ماض فى غرضه ذاك، لا يقف إلا إذا انقلبت الأوضاع، فاتبع الناس أهواءهم، وفضلوا دنياهم على آخرتهم، واغتروا بآرائهم يفضلونها على الوحى المنزل من ربهم، إذا انقلبت الأوضاع هكذا، فعلى المرء بخاصة نفسه.

وقد جاء فى حديث آخر عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أنه قيل: يا رسول الله، متى نترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر؟ فقال ﷺ «إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم» قلنا: يا رسول الله، وما ظهر فى الأمم قبلنا؟ قال: «الملك فى صغاركم»، والفاحشة فى كباركم، والعلم فى رُذَالتكم»[2] فإذا قل الخير فى الأمة إلى هذا الحد، فأصبح الملك فى ضعاف العقول، وكثر الزنا حتى ارتكبه الكبار، وحمل العلم الفساقُ، فحينئذ لا يُجدى الأمر بالمعروف، وبحمد الله لم تصل الأمة إلى هذا الحد، فليأمر الفضلاء بالمعروف، ولينهوا عن المنكر، أخذا بيد الناس إلى طاعة الله سبحانه، وبُعدا بهم عن معصيته سبحانه وتعالى.

• حال المسلم مع الذنوب:

إن المسلم الملتزم بدينه يقاسى من خوفه أن يقع فى المعاصى، أو أن

(١) أخرجه ابن حبان فى البر باب ما جاء فى الطاعات وثوابها فصل ذكر الإخبار عن إعداد الله جل وعلا لعباده المطيعين ما لا يصفه حسّ من حواسهم، مبحث ذكر إعطاء الله جل وعلا العامل بطاعة الله ورسوله فى آخر الزمان أجر خمسين رجلاً ١/ ٣٠١ حديث ٣٨٦ وابن ماجه فى الفتن باب ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ ٢/ ١٣٣٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الفتن باب قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ ٢/ ١٣٣١ قال فى الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

يقع فيها أحد من أهله، إنه يقاسى من كثرة المعاصى لخوفه من شؤمها، ويقاسى من وقوع المعاصى وعجز الأخيار عن تغييرها، وهم مأمورون بالتغيير فى قوله سبحانه: ﴿ولْتَكُن مّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلَى الْخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١].

إنه يحترق حزنًا على ما حل بالأمة من الوقوع فى المنكرات دون اكتراث، لأنه يدرى العاقبة، فقد قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٢] فبين سبحانه أن رضى الناس بالمنكر؛ من فعل المعاصى، أو تضييع الطاعات، يسبب اللعن، الذى هو الطرد من رحمة الله تعالى. والإبعاد من رحمته سبحانه وتعالى.

• الذنب فى رأى المسلم:

إن شيوع أى ذنب فى الأمة مأساة تحرق المسلم الملتزم، إلا أن عدم القدرة على قتل هذا الذنب مأساة أخرى، أشد لوعة على الملتزم، وأكثر من هذا قبول العامة هذا الذنب، حتى إنهم لا يحاربونه، ولا يلومون فاعله، فهذا أكثر وأكثر.

وفوق كل هذا أن توجد هيئات فى الأمة تساعد على انتشار المنكرات، وقتل الفضائل ومكارم الأخلاق، مثل وسائل الإعلام التى تبث وتنشر الكثير من المخالف للإسلام، بل إن هيئات الأصل فيها الخير، تحولت فى واقع الأمر إلى عوامل هدم لأخلاق الأمة ودينها، مثل أجهزة التعليم ،

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤.

(٢) سورة المائدة ٧٨ ـ ٧٩.

فكثير منها يحتوى على شر!!!.

وأعجب من هذا وأخطر، وأشد وأظلم أن توجد هيئات فى الأمة تحارب الذين يتمسكون بدينهم!!! وكم سمعنا فى دول عديدة عن تعذيب الآلاف بلا ذنب ولا جريرة إلا أنهم يريدون حياة إسلامية!!!

إن المسلم الملتزم يرى كل هذا فيتحسر ويتلوى كالقابض على الجمر، وربما كان ألمه أقوى، إنه ﷺ شبه المعقول بالمحسوس تقريبًا للأفهام، وإلا فإن المسلم الفاهم لدينه يخاف من الذنوب، ويتألم من وقوعها، ربما أكثر من القابض على الجمر، فالصالح يرى عرى النساء، وظهور الزنا، وانتشار الخمر، وكثرة الربا، فيحزنه ذلك كثيرًا!!! إنها أمة القرآن، أمة الإسلام، ما كان لها أن تنحدر إلى هذا المستوى!!! فيؤلم ذلك المستقيم من أبنائها كل الإيلام، وبخاصة أنه يريد التغيير فلا يقدر، ويحاول الإصلاح فيقابل بالاتهامات الباطلة، ورحم الله عمر بن العزيز إذ يقول: لو كان بكل بدعة يميتها الله على يدى، وكل سنة ينعشها الله على يدى بضعة[1] من لحم حتى يأتى آخر ذلك على نفسى لكان فى الله يسيرًا[2].

إن هذا الخليفة العادل يجود بنفسه فى سبيل إحياء السنة والقضاء على البدعة، إنه يقبل أن يقطع من لحمه قطعة مقابل إحياء سنة من السنن، ويقبل أن يقطع من لحمه قطعة مقابل إماتة بدعة من البدع، ويجود بجسمه كله فى سبيل إماتة البدع وإحياء السنن.

وهكذا كل مسلم صادق، يحرص كل الحرص على استقامة الأمة، ودينه عنده أعز من جسمه، ولأن يعدم جسمه فى سبيل استقامة الأمة فهو أفضل. وهذا واقع الصالحين فى كل زمان ومكان، وهذا الذى أخبر

(١) قطعة.

(٢) السنة للمروزى ص ٢٥.

به ﷺ فى هذا الحديث الذى معنا، الصابر على دينه، الملتزم بأحكامه يقاسى ويقاسى حتى يكون كالقابض على الجمر.

• وجه إعجاز الحديث:

كانت الأمة الإسلامية فى عهد رسول الله ﷺ على خير حال، كان الحق منتصرًا، والباطل مندثرًا، كانوا يسارعون فى الخيرات، ويقضون على المنكرات، كانوا يحرصون على الجهاد بكل أنواعه، فيجاهدون أنفسهم لتكون على دين الله، ويجاهدون الفساق لتقويمهم على ما أمر الله، ويجاهدون الكفار لنصرة دين الله. كانوا فى حالة بناء دائم، فعدد الأمة يكثر، والفتوحات الإسلامية شرقًا وغربًا على أشدها، وبينما الأمة بهذه الحال يخبر ﷺ أن هذه الحال ستتغير، وهذا الأمر سيتبدل، وستكثر الفتن، تلك التى تصرف الإنسان عن دينه وتوقعه فى المنكرات، بل ربما أخرجته من الإسلام والعياذ بالله تعالى وأوقعته فى الكفر، نسأل الله العافية.

إنه ﷺ يخبر عن هذه الحال فى الحديث الذى معنا وفى أحاديث أخرى:

فعن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال «ليغشين أمتى من بعدى فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسى كافرًا، ويمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا قليل»[1].

ولقد وضح عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - شيئًا من هذه الفتن

(١) أخرجه الحاكم فى الفتن باب سيأتى زمان يخير فيه الرجل بين الفجر والفجور ٤/٤٣٨.

فقال: إن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه، فيرجع وما معه منه شىء، يأتى الرجل لا يملك له ولا لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فيقسم له بالله إنك لذيت وذيت فيرجع ما خلى من حاجته بشىء وقد أسخط الله عليه[1].

وخلاصة هذه النصوص أن الفتن تكثر، والصوارف تتعدد، والماديات تجذب الناس جذبًا، فتراهم يبيعون دينهم مقبلين على الماديات التى لا تسعدهم ولا تنفعهم، وإنما تضرهم وتشقيهم.

إنه ﷺ يخبر بذلك فيتحقق وفق ما أخبر!! فالمسلم الحريص على دينه يقاسى الأمرّين، يقاسى من كثرة المنكرات، فيقاوم ويحذر، لكنه يجد مَنْ يدعو إليها ويشيعها، ويجد أجهزة قد جُنِّدت لفرض هذه المنكرات، فيقاوم متحسرًا!! ويقاسى أيضًا من أنه حينما يحث على الاستقامة يجد أجهزة تعارضه، بل تنال منه حتى إنها قد تقتله!!

لقد كان المسلمون الأوائل يجاهدون صفًا واحدًا، وأمة متحدة لها هدف يعمل الجميع من أجله، أما المسلم المعاصر الملتزم فإنه يجاهد وحده، وكثيرًا ما يكون الأقسى عليه بنو جنسه، ومن هنا اشتد الأمر عليه وضاق، وأصبح كالقابض على الجمر، يتحسر ويتلوى، ويتألم ويحترق.

ورسول الله ﷺ لم يبين لنا هذه الحال فقط، وإنما بين لنا ما يجب أن نكون عليه، فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «كيف أنت يا عبد الله بن عمرو إذا بقيت فى حثالة من الناس[2]»؟ قال: وذاك ما هم يا رسول الله؟ قال: «ذاك إذا مرجت أماناتهم وعهودهم[3]

---

(١) أخرجه الحاكم فى الفتن باب لا تنقضى الدنيا حتى يقع الخسف والمسخ ٤/٤٣٧.

(٢) الحثالة: الردىء من كل شىء، والمراد: أراذل الناس.

(٣) اختلفت وفسدت.

وصاروا هكذا» وشبك بين أصابعه قال: فكيف ترى يا رسول الله؟ قال: «تعمل ما تعرف، وتدع ما تنكر، وتعمل بخاصة نفسك، وتدع عوام الناس»[(١)].

وعن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال «إن من ورائكم زمان صَبْرٍ، للمتمسك فيه أجر خمسين شهيدًا، فقال عمر : يا رسول الله منا أو منهم؟ قال منكم»[(٢)].

• الدروس المستفادة:

لقد بيَّن ﷺ لنا فى هذه النصوص أمورًا منها:

١ ـ أن علينا أن نعمل بالحق الذى عرفناه وكان عليه سلفنا الصالح، وهو كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، كما قال ﷺ «تعمل بما تعرف، وتدع ما تنكر» أى تعمل بما تعرفه فى الكتاب والسنة، وتترك ما تنكره إذ لم يأت فى الكتاب ولا فى السنة.

٢ ـ أن علينا أن نترك كل ما ننكر، مما ابتدع ولا أصل له، كما قال عبد الله بن مسعود: عليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق[(٣)].

يقصد ـ رضى الله عنه ـ أن على المسلم أن يعمل بما علم من كتاب وسنة، أن يعمل بالعتيق أى القديم الذى كان عليه سلف الأمة، أما ما ابتدع، أو كان وليد التشدد فعلينا أن نتركه، وأن نبتعد عنه.

---

(١) أخرجه ابن حبان كما فى الإحسان ما جاء فى الفتن ذكر الإخبار عما يجب على المرء أن يكون عليه فى آخر الزمان ٢٨١/١٣ حديث رقم ٥٩٥٠ ـ ٥٩٥١ وفيه تخريج طيب له ط الرسالة.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير ١٨٢/١٠ ح ١٠٣٩٤ وهو حديث صحيح.

(٣) السنة للمروزى ص ٢٤ و ٢٥.

٣ ـ علينا أن نثبت على الحق، فمهما كثرت الصوارف[1] يجب أن يكون المسلم أقوى منها، ويجب أن يكون حرصه على دينه أشد من كل الصوارف، بل ينبغى أن تزيده هذه الأمور تمسكًا وحزمًا، وليعلم أنه مأجور على هذا الثبات،مأجور على استقامته، ومأجور على مقاومة المنكر، ومأجور على الدعوة إلى الحق. ليعلم أن له أجرًا عظيمًا عند الله تعالى على هذا الصبر، إنه أجر خمسين شهيدًا من شهداء الصحابة كما قال ﷺ فى حديث ابن مسعود الذى تقدم.

٤ ـ علينا بمجتمعات الإيمان، لا بما ظهر من الفسق وشاع، فمهما كثر الشر، ومهما ذاع الفسق، ومهما كثر الضالون يجب أن يظل المسلم فى دائرة الصلاح والاستقامة، يصادق الأخيار، وينصح الأشرار، لا ينظر إلى ما فى الناس من فسق، فكثرة الفسق لا تجعله حلالاً، ولا يبالى بما فى الناس من انحراف، فالانحراف مهما كثر انحراف وهلاك، وإنما ينظر إلى الصالحين يسابقهم فى الطاعة، ويتواصى معهم بالاستقامة.

لقد أخبر ﷺ بكثرة الشر، وصعوبة الالتزام بالدين، أخبر بكثرة الفتن فكان كما أخبر، ونصح بما يجب أن يكون عليه حالنا حينذاك، وكأنه حاضر معنا يشخص الداء ويصف الدواء، وما ذلك إلا لأنه رسول الله، أوحى الله إليه ما يُصلح أمته، ولأنه الرسول الخاتم أعلمه علام الغيوب سبحانه بما سيكون، وما يجب أن يكون عليه الصالحون إذا حدث ذلك، فبيّن ﷺ طريق الحق ومنهج الهداية بيانًا شافيًا كافيًا، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) الأمور التى تصرف الإنسان عن دينه.

الإخبار بغربة الإسلام

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا. فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»[1].

● **المعانى:**

«بدأ الإسلام غريبًا»

الغريب: من بَعُد عن أهله، أو انفرد عن الآخرين بوصف.

فللغربة سببان: غربة الوطن، وهى لمن ترك وطنه، ونزل فريدًا فى مكان آخر.

وغربة الحال، وهى لمن تلبس بحال أو صفة تخالف أحوال الكثيرين.

وعليه فمعنى«بدأ الإسلام غريبًا» إن كانت الغربة للإسلام كدين، فالمعنى أنه كان غريبًا، فالبلاد كانت كأنها ليست له، وتعاليمه ليست شائعة، وإنما مستغربة.

وإن كانت الغربة لأهل الإسلام ـ وهو الأظهر ـ فالمعنى أنهم كانوا غرباء، أى قلة وسط الناس كالغريب الذى بَعُد عن أهله، وكانوا غرباء بمعنى أحوالهم مستغربة من أهل زمانهم. فكونهم يتركون عبادة الأصنام التى ألفوها كان أمرًا مستغربًا، وكونهم يعبدون الله وحده كان أمرًا مستغربًا، وكونهم يتخلقون بأخلاق الإسلام من ترك الرذائل، والتمسك

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا ١/ ١٣٠ رقم ٢٣٢ ـ ١٤٥.

بالفضائل كان أيضًا مستغربًا.

لقد بدأ الإسلام وأتباعه قلة، غرباء فى أوطانهم، وغرباء بدينهم.

«وسيعود غريبًا كما بدأ» أى وسَيَقِلُّ المتمسكون به تمسُّكًا تامًا حتى يصبحوا قلة غرباء، وستصبح أحوالهم غريبة نادرة، شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم فى أول الدعوة.

إن الإسلام بدأ فى آحاد الناس، وتعاليمه غريبة، فقوى واشتد، وكثر أتباعه وانتشرت تعاليمه، وتمسك بها أتباعه كل التمسك، إلا أن هذا لن يدوم طويلاً دل على هذا قوله ﷺ: «وسيعود غريبًا» فالسين تفيد التأخير، لكنه ليس كالتأخير الذى فى سوف.

يخبر ﷺ أن تمسك السلف بالإسلام لن يدوم طويلاً، وإنما ستظهر البدع والخرافات، وستُنْقَض بعضُ عُرى الإسلام، حتى إن المتمسك به تَمَسُّكًا تامًا سيصبح غريبًا.

«فطوبى للغرباء» طوبى معناها: سعادة وقرة عين. والمعنى: هؤلاء الغرباء فى أول الدعوة، والغرباء عند ظهور الفتن والصوارف عن دين الله، هؤلاء وهؤلاء طوبى لهم، أى سعادة لهم فى الدنيا والآخرة، والله راض عنهم بثباتهم على الدين وبتمسكهم بالكتاب والسنة.

● راوى الحديث:

أبوهريرة الصحابى المشهور فى مدرسة الإسلام، اسمه عبد الرحمن ابن صخر، وعرف بـ «أبو هريرة» اشتهر بذلك لأنه كانت له قطة يلعب بها وهو صغير، فأطلق عليه هذا الاسم، و«هريرة» تصغير «هرة» وهى القطة.

وأبو هريرة من أهل اليمن، وصلته الدعوة الإسلامية فى بلده، فأصر على الارتحال إلى رسول الله ﷺ يتعلم، وارتحل فى نهاية السنة السادسة من الهجرة، ووصل إلى مدينة رسول الله ﷺ فى أول السنة السابعة، وكان رسول الله ﷺ آنذاك فى فتح خيبر، فسار أبوهريرة ومن معه إلى خيبر، للقاء رسول الله ﷺ.

ومنذ ذلك التاريخ، أعنى بداية العام السابع وأبو هريرة فى صحبة رسول الله ﷺ، وكان متفرغًا لطلب العلم كل التفرغ، مما جعله فى هذه السنوات الأربع التى صحب رسول الله فيها، يحفظ أكثر من غيره من الصحابة، مع أسباب أخرى توفرت له(١).

كان أبوهريرة مجتهدًا فى العبادة، يصوم كثيرًا، ويصون صيامه عن الهفوات بالجلوس فى المسجد، ويصلى الليل، يتقاسمه وزوجته وخادمه، ويسبح كل يوم اثنتى عشرة تسبيحة.

وكان ورعًا فى كسبه، يتحرى الحلال، ويبتعد عما فيه شبهة، كان عاملاً على البحرين(٢)، فلما عاد إلى المدينة، قابله عمر، وحاسبه، فما خرج عنده درهم إلا وهو يعرف مصدره، وأنه حلال صرف.

وهذان الأمران ـ الاجتهاد فى العبادة، والكسب الحلال ـ ساعداه على التقدم العلمى، فحفظ الكثير والكثير من حديث رسول الله ﷺ.

ولقد جمع أبوهريرة إلى ذلك الحرص على العلم، يصور ذلك ما أخرجه الأئمة، عن محمد بن قيس بن مخرمة، أن رجلاً جاء زيد بن ثابت، فسأله عن شىء، فقال له زيد: عليك بأبى هريرة، فإنه بينا أنا

---

(١) راجع دفع الشبهات عن السنة النبوية ص ١٥٧.

(٢) أى كان أمير منطقة البحرين من دولة الإسلام وذلك فى عهد عمر بن الخطاب.

وأبو هريرة وفلان فى المسجد ذات يوم ندعو الله تعالى، ونذكر ربنا، خرج علينا رسول الله ﷺ حتى جلس إلينا.

قال: فجلس وسكتنا، فقال: عودوا للذى كنتم فيه.

قال زيد: فدعوت أنا وصاحبى قبل أبى هريرة، وجعل رسول الله ﷺ، يؤمِّن على دعائنا.

قال: ثم دعا أبوهريرة فقال: اللهم إنى أسألك مثل الذى سألك صاحباى هذان، وأسألك علمًا لا يُنْسى فقال رسول الله ﷺ «آمين».

فقلنا: يا رسول الله، ونحن نسأل الله علمًا لا يُنْسى، فقال رسول الله ﷺ: سبقكما بها الغلام الدَّوْسى»[1].

ومن هنا تقدم أبوهريرة تقدمًا كبيرًا فى العلم، واعترف الصحابة بسلامة منهجه، وبعلو مكانته.

فها هو طلحة بن عبيد الله، أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، جاء رجل إلى طلحة هذا، وقال: يا أبا محمد، والله ما ندرى هذا اليمانى أعلم برسول الله ﷺ أم أنتم، تقوّل على رسول الله ﷺ ما لم يقل، يعنى أبا هريرة.

فقال طلحة: والله ما يُشك أنه سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع، وعلم ما لم نعلم، إنا كنا قومًا أغنياء، لنا بيوت وأهلون، كنا نأتى نبى الله ﷺ طرفى النهار ثم نرجع، وكان أبوهريرة رضى الله عنه،

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب معرفة الصحابة باب دعاء أبى هريرة بعلم لا ينسى ٣/٥٠٨. وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبى بأن فيه حمادا وهو ضعيف، ولكن قد تابعه العلاء بن الفضل، وهو صدوق، مما يجعل الحديث حسنًا، وراجع دفع الشبهات عن السنة النبوية ص ١٥٧ طبعة أولى.

مسكينًا لا مال له، ولا أهل، ولا ولد[١]، إنما كانت يده مع يد النبى ﷺ، وكان يدور معه حيثما دار، ولا نشك أنه قد علم ما لم نعلم، وسمع ما لم نسمع، ولم يتهمه أحد منا أنه تقوّل على رسول الله ﷺ ما لم يقل[٢].

ويقول عبد الله بن عمر لأبى هريرة: يا أبا هريرة أنت كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ، وأحفظنا لحديثه[٣].

والواقع يؤكد هذا، فلقد أُجرى اختبار لأبى هريرة أثبت تمام حفظه، ذلك أن مروان بن الحكم أحد أمراء دولة الإسلام دعا أبا هريرة، وجلس معه على سرير، وكان قد أجلس كاتبه «أبوالزعيزعة» خلف السرير، وجعل مروان يسأل أبا هريرة، وكاتب مروان مختبئ يكتب، وبعد عام أعاد مروان الأمر، فخبأ الكاتب ومعه الكتاب، ودعا أبا هريرة، وسأله نفس الأسئلة، فما زاد ولا نقص، ولا قدم ولا أخر[٤].

وعَمَّر أبو هريرة، فعاش بعد رسول الله ﷺ سبعة وأربعين عامًا، متفرغًا لتأدية ما تعلم، مجتهدًا فى العبادة، وكانت حياته فى مدينة رسول الله ﷺ، مما أتاح له أعظم فرصة ليعلم وليبلغ.

وفى عام سبعة وخمسين هجرية، توفى الصحابى الجليل أبو هريرة، راوية الإسلام، ومحدث الصحابة، رضى الله عنه وأرضاه.

---

(١) هذا كان فى فترة النبوة، لكنه تزوج بعد ذلك وأنجب وعاش بعد رسول الله ﷺ سبعة وأربعين عامًا.

(٢) أخرجه الحاكم فى معرفة الصحابة باب ذكر حفظ أبى هريرة ٣/ ٥١١ وصححه.

(٣) أخرجه الترمذى فى المناقب، باب مناقب أبى هريرة رضى الله عنه ١٠/ ٣٣٥ تحفة الاحوذى. وقال : هذا حديث حسن.

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب معرفة الصحابة باب كان أبو هريرة أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ ٣/ ٥١٠.

• شرح الحديث:

يحدثنا رسول الله ﷺ عن تاريخ الإسلام، ماضيه ومستقبله، وذلك لإعلام الأجيال بما يجب عليهم.

فيبيِّن ﷺ أن الإسلام بدأ غريبًا، وأن الله تبارك وتعالى بعث رسوله وأهل الأرض لهم أديان مختلفة، فأهل الديانات السابقة قد حرفوها، وغيرهم ما بين عُبّاد أوثان، وعباد نيران، وعباد الشمس، وغير ذلك، فى هذا الوسط ظهر الإسلام فكان غريبًا، وكان أهله غرباء، غرباء فى وسط معاصريهم، أما مع الله فليسوا بغرباء، وإنما فى أنس وعزة.

كان من أسلم يعتبر غريبًا فى حَيِّه وقبيلته، وأهله وعشيرته، كان المسلمون الأول أفرادًا، يتحدث أحدهم أنه كان ثلث عدد المسلمين، أى كان واحدًا من ثلاثة، هم كل أهل الإسلام، ويتحدث أحدهم أنه كان ربع عدد المسلمين، وكان الإسلام غريبًا فى الأرض كلها مبادؤه غريبة، وقيمه جديدة، حتى مكّن الله لأهل الإسلام فظلوا يزيدون، وينتشرون، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا، فزالت تلك الغربة، وصار المسلمون أمة عزيزة منصورة.

ثم يخبر ﷺ أن الحال لن يستمر هكذا، وإنما سيعود الإسلام غريبًا، بقلة المتمسكين به، وكثرة غيرهم.

• وهنا عدة مباحث:

الأول: الغربة الأولى:

ومظاهرها هى:

أ ـ قلة عدد المسلمين، وبالتالى كانوا مجموعة ضعيفة.

ب ـ اضطهاد المشركين المسلمين، فآذوهم فى أبدانهم، وفى أسرهم، وفى أموالهم، وتفننوا فى الإيذاء والتعذيب، وبالغوا فى ذلك كل المبالغة.

حـ ـ محاولة المشركين صرف المسلمين عن دينهم بكل السبل.

د ـ بذل المشركين كل حيلة لتشويه صورة الإسلام، أمام الناس من أهل مكة، ومن القادمين إليها، ومن غير العرب.

هـ ـ وصل طغيان المشركين أن دبروا لقتل رسول الله ﷺ.

وأسبابها ـ الغربة الأولى ـ هى:

أ ـ عدم معرفة العرب بالأديان، فلم يكن العرب قد أُرسل إليهم رسل، أو نزلت عليهم كتب سماوية، لم يكونوا يعرفون طبيعة النبوة والرسالة، حتى ظنوا الرسالة ملكًا وسلطة.

ب ـ طبيعة العرب من التعصب لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، تعصبًا وصل لدرجة رفض ما عداه.

حـ ـ العصبية القبلية، فكل قبيلة يصعب عليها أن تقتدى بنبى من قبيلة أخرى.

د ـ عداء أهل الديانات الأخرى للإسلام، مما جعلهم يضعون العقبات أمام الدعوة الإسلامية، يساعدون العرب فيها، واجتهدوا فى حرب الإسلام وتدمير أهله.

إن الكفر قديمًا وحديثًا يُبغض الإسلام، الدين الحق، ويكيد له كل الكيد، ويبذل غاية وسعه فى القضاء عليه، مما كلف المسلمين الكثير على طول تاريخ الدعوة.

هـ - ميل معظم البشرية إلى الأهواء والنزوات، والتى يجدونها فى البعد عن الدين، ذلك أن الدين ضبط للسلوك البشرى، وكثيرون من البشر يحرصون على التصرف الذى يشبع رغباتهم، فمحبو الزعامات والتحكم، ومحبو الشهوات، وعبّاد المال، هؤلاء وأمثالهم لا يحبون الدين الذى يقف أمام شهواتهم ونزواتهم، لا يحبون الدين الذى يقف أمام ظلمهم وطغيانهم.

إن الدين يحرص على القيم، يحرص على مكارم الأخلاق، ومن هنا عاداه الكثيرون من البشر من أصحاب الضلالات والانحرافات، مما ضيق على الدعوة فى أول أمرها، فكان الإسلام غريبًا، وكان أهله غرباء.

الثانى: عزة الإسلام:

وتلا هذه الغربة قوة الإسلام، فكثر عدد المسلمين،وكونوا جماعات، وفتحت لهم البلاد، وكانت الهجرة إلى المدينة «طابة» والتى صارت منطلقًا قويًا لدعوة الإسلام، عاداه الشرك فيها سنوات، وغزا المشركون المدينة مرات، وانهزم المشركون أمام المسلمين فى كل المعارك[1]، وخرج المسلمون من المدينة فاتحين، وأصبحت الكلمة للإسلام فى كل أنحاء الجزيرة، ثم قامت جيوش الإسلام تفتح البلاد لتمكن لدعوة الحق، ليأخذ الناس حريتهم الدينية، وليستطيع دعاة الإسلام أن يبلغوا الإسلام بصورته الصحيحة، وصار المسلم عزيزًا لا غريبًا، وأصبح الإسلام هو الدين الذى تتمناه البشرية، تقبله ولا ترفضه، وتعظمه ولا تستهين به، وأصبحت الدول ترجو ودّ دولة الإسلام.

(١) حتى فى «غزوة أحد» كان النصر للمسلمين، ذلك أن المسلمين انتصروا فى الجولة الأولى، وانتصر المشركون فى الجولة الثانية، وجمع المسلمون جموعهم وطاردوا المشركين فقتلوا منهم وأسروا، فبداية المعركة نصر للمسلمين، ونهايتها نصر للمسلمين.

وأسباب ذلك هى:

١ ـ اعتزاز المسلمين بدينهم، فالإسلام أعز شىء عندهم، لا يقبل المسلم أن يفرط فى أى قدر من دينه، ولا يقبل أن ينهزم الإسلام من جهته، لقد عُذبوا فصبروا، وبذل الشرك كل ما فى وسعه لصرفهم عن دينهم فلم يعبؤوا، وإنما ثبتوا، تركوا الديار والأموال، والأهل والخلان وهاجروا فرارًا بدينهم، ولما شرع الله لهم الجهاد جادوا بالنفس والنفيس تأدية لحق الإسلام عليهم: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ (١).

لقد كان الالتزام بالكتاب والسنة هو منهجهم، وهم جميعًا يمتثلون ويطيعون، أمام أعينهم قول الله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (٢).

٢ ـ الاعتناء بفهم الإسلام، فلقد بين الإسلام قدر العلم والعلماء، ورسم منهجًا أرقى ما يكون، ففهمت الأمة هذا المنهج وسارت عليه، تجتهد فى فهم الإسلام، وتجتهد فى العمل، وتجتهد فى التعليم، ونظمت مجالس العلم، وتبارى فيها نبلاء الأمة، حتى ارتقت فى فترة وجيزة رقيًا ليس له فى تاريخ الأمم مثيل، فلقد كانت هذه الأمة فى أول الفترة المدنية قليلة الخبرة بالقراءة والكتابة، وفى نهاية الفترة النبوية ـ أى فى سنوات تعد على أصابع اليد ـ كثُر القراء والعلماء، وأصبحت الدراسات وفيرة،

---

(١) سورة التوبة الآية ١١١.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

ونما هذا سريعًا وترعرع، فى جميع التخصصات، فى الأصول والفروع، دراسات جمعت بين الوضوح، والعمق، والأصالة، والاستنباط.

وهذا الفهم للإسلام فيه أسباب العزة والتمكين، فلقد بين القرآن الكريم أسباب عزة الأمة، ووضح رسول الله ذلك قولاً وعملاً.

٣ ـ الالتزام بالإسلام، فالأمة كانت حريصة على كل ما جاء به رسول الله ﷺ عن الله عز وجل، حريصة على امتثاله على خير وجه:

فلا تقبل المعاصى، يستوى فى ذلك الكبير والصغير، الحاكم والمحكوم، ومن وقعت منه زلة قوَّمه الآخرون.

وإنما تجتهد فى الطاعات كل الاجتهاد، رائدهم:

قول الله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ (٢).

لقد حذرنا ربنا فى القرآن الكريم من المخالفات، وبينت السنة ذلك عمليًا، فلقد حدثت مخالفة فى غزوة أحد فكانت هزيمة فى إحدى جولاتها، تأديبًا للأمة، وتعليمًا لهم أن المخالفة شر مستطير، كما قال ربنا سبحانه: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (٣).

---

(١) سورة هود آية ١١٢.
(٢) سورة الفتح آية ٢٩.
(٣) سورة النور آية ٦٣.

ومن هنا التزمت الأمة بالإسلام، مدركة أن ذلك سبيل السعادة فى الدنيا والآخرة، فالتزمت به كل الالتزام، التزامًا صادقًا، فمنَّ الله عليها بالعزة التى وعد بها سبحانه عباده المؤمنين:

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [(١)].

٤ ـ قوة العلماء وزهدهم، فكان علماء الأمة الأوائل قممًا فى العلم والعمل، جدوا واجتهدوا، وأقاموا وارتحلوا، وحفظوا وفهموا، وحققوا ودققوا، العلم عندهم ما حواه الصدر، والعلم عندهم قرينه العمل، فتعلموا وعملوا، وجادوا وعلَّموا، ونصحوا وأخلصوا.

كانوا طلاب آخرة، وحماة الإسلام، فأخذوا بيد الأمة إلى معالى العز والسؤدد.

٥ ـ خيرية الحكام، فكان الأمراء على درجة عالية من معرفة قدر الإسلام، وكانوا أئمة الهدى، فقادوا الأمة قيادة الصالحين، وأخذوا بيدها إلى الحق، وإلى صراط الله المستقيم.

لقد كان الحكام يعرفون خصائص أمة الإسلام، والواجب على الأمة، والواجب على أفرادها، وعلمائها، وأمرائها، كما كانوا يعرفون خطط عزة الأمة وسيادتها، وكانوا يعرفون طبائع الأمم الأخرى، وسبل تقدم أمة الإسلام على هذه الأمم، والمنهج الذى يجعل أمة الإسلام تقوم بدور الخلافة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [(٢)].

بهذه الأصول:

* سلامة دين الأمة فهى معتزة بالإسلام، وتفهم الإسلام وتلتزم به.

---

(١) سورة المنافقون الآية ٨.

(٢) سورة البقرة الآية ٣٠.

* وصلاح العلماء.

* وصلاح الأمراء.

بهذه الأصول عز الإسلام وعز أهله، وقوى الإسلام وقوى جنده، وقامت دولة الإسلام، عزيزة تعرف أسباب عزتها، قوية تعرف أسباب قوتها.

نماذج من أسباب عزة الإسلام:

*** اعتزازهم بالإسلام:**

بعث رسول الله ﷺ عشرة من الصحابة فى آخر سنة ثلاث يتلمسون أخبار قريش، ولما اقتربوا من مكة علم بهم بنو لحيان، فأسرعوا خلفهم بمائة رجل ممن يجيد إصابة الهدف، وفعلاً أدركوهم، وأحاطوا بهم، ورأى سبعة من الصحابة أنه لا يصح الاستسلام لكافر، مهما أعطى من العهود، وكرر المشركون العهود للمسلمين أنكم إذا استسلمتم فلن نقتلكم، والسبعة لا يصدقون، فدارت معركة بين المائة كافر وبين السبعة من الصحابة، قتل الصحابة فيها من قتلوا، ثم قُتلوا، أما الثلاثة الباقون فأخذهم المشركون، وحلوا أوتار أقواسهم، وأرادوا ربطهم، فقال عبد الله ابن طارق أحد الثلاثة: هذا أول الغدر، فحاربهم حتى قتل، وسار المشركون بالصحابيين الباقيين: خبيب بن عدى، وزيد بن الدَّثِنة، فباعوهما بمكة، فأما خبيب فاشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرًا، وجعلوه مقيدًا فى بيت من بيوتهم، وتتحدث زينب بنت الحارث بعد أن أسلمت أنها رأت يومًا فى يد خبيب قطفًا من عنب مثل رأس الرجل، وما بمكة يومئذ عنبة واحدة، ما هو إلا رزق رزقه الله، وتتحدث أيضًا أنه طلب

منهم موسى يحلق بها الشعر الزائد فى جسمه استعدادًا للقاء الله، فأخذ الموسى وتنظف به، وحدث أن طفلاً صغيرًا سار إلى هذا الصحابى، وجلس على رجله والموسى فى يده، وارتعبت أم الطفل إذ خشيت أن يذبح خبيب ابنها، فإنهم سيقتلونه فليذبح ابنهم، فلما رأى خبيب خوفها قال لها: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله، والله ما كنت لأغدر، وألقى الموسى، وطمأن الطفل وأمه، وطلب منهم قبل القتل أن يصلى ركعتين، فأمهلوه، فصلى، ثم قال: لولا أن تظنوا أنى جزعت من الموت لصليت ركعتين أخريين، ثم قال: اللهم إنى لا أجد من يبلغ رسولك منى السلام فبلغه، ونزل جبريل فبلغ رسول الله ذلك، فقال ﷺ: وعليك السلام يا خبيب، قتلته قريش، وسمع الصحابة ذلك.

وفى هذه اللحظات قال خبيب عشرة أبيات من الشعر[1] كلها محض الإيمان، وتمام اليقين، أكتفى بذكر بيتين منها:

ولســـت أبالى حيـن أقتـــل مسلمًا

على أى جنب كان فى الله مصرعى

وذلك فى ذات الإلـه وإن يشـأ

يبـارك على أوصـــــال شِلْـو مُمَزَّعِ[2]

وحينما رفع المشركون خبيبًا على الخشبة كى يقطعوه دعا عليهم عدة دعوات:

اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا[3]، ولا تبق منهم أحدًا.

(١) فى سيرة ابن هشام ٣/ ١٧٦ ولولا خوف الطول لذكرتها جميعها.

(٢) أوصال: قطع. شلو: جسم. ممزع: ممزق.

(٣) أى متفرقين.

وكانوا يعلمون أن الله يستجيب دعاء المسلمين، فلما دعا خبيب بذلك لبد أحدهم بالأرض، خوفًا من دعاء خبيب، فلم تمض سنة إلا كان كل من شارك فى قتله منهم قد قتل أو مات، إلا الرجل الذى لَبَدَ بالأرض.

ولما بدؤوا فى وضع السلاح فى جسمه قالوا له: أتحب أن محمدًا مكانك، وأنك حر طليق فى أهلك؟ فقال: لا والله العظيم، ما أحب أن يُفْدينى بشوكة فى قدمه.

وقتل المشركون الصحابى الجليل خُبيب بن عدى، ثم إنهم أرادوا تمزيق جسمه إلا أن الله سبحانه أرسل الزنابير والنحل فحمت جسمه، ولم يستطيعوا الوصول إليه.

هذه قصة خبيب، سقتها من صحيح البخارى وشرحه فتح البارى[1]، أبين من خلالها:

١ ـ حقد الكفرة على المسلمين، وأن الكفار إذا سنحت لهم فرصة بإيذاء المسلمين فإنهم ينفذون، ولا يتوانون، إنهم لا دين ولا خلق، وإنما هم كما وصفهم الله تعالى:

﴿ لا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [2].

٢ ـ اعتزاز المسلم بدينه اعتزازًا جعله لا يفرط فى أى قدر منه أمام أقسى الظروف، وماذا بعد أن يقع فى يد أعدائه أسيرًا، ويدبرون قتله؟!!

إنه لم يتزلزل فى دينه، ولم يحاول إرضاءهم، وإنما كان متعبدًا متضرعًا، وهو يعلم أن الله سبحانه قدر قتله ليفوز بالشهادة، وإنما

(١) البخارى رقم ٤٠٨٦ وفتح البارى ٧/ ٣٧٨.

(٢) سورة التوبة الآية ١٠.

يستجيب الله له فيرزقه طعامًا، ويحمى جسمه بعد قتله، وهو يسأل الله أن يبلغ رسوله ما حدث، ويُعلم الله رسوله، فيترحم ﷺ على خبيب، ويترحم عليه الصحابة جميعًا.

٣ ـ التزام المسلم بدينه مهما اشتد الموقف، فها هو خبيب، وهو يعلم أن المشركين سيقتلونه تتاح له الفرصة لقتل طفل من أبنائهم، فيرفض ذلك، لأن الإسلام حرم الغدر، فلا ذنب لهذا الطفل، ولا دخل له فى الأمر.

والأعجب من هذا أن خبيبًا لما اقترب انتهاء الأشهر الحرم، وعلم أنه خلال فترة وجيزة سيقتل طلب آلة حلاقة، يزيل بها الشعر الزائد من جسمه، تأهلاً واستعدادًا للقاء الله تبارك وتعالى، إنه يريد أن يتأدب بأدب الإسلام.

أى ثبات هذا يا سلفنا الصالح، ترضون بقضاء الله دون أدنى جزع!!

وتلتزمون بالإسلام حتى فى أوقات الهلع!!

والله ما أجدنى إلا مرددًا قول هذا الصحابى الكريم الذى تقدم:

ولســـت أبالى حيـن أقتـــل مسلمًا

على أى جنب كان فى الله مصرعى

٤ ـ حبهم الشديد لرسول الله ﷺ، حتى إن خبيبًا هذا، وقد بدؤوا فى تقطيع جسمه، يقولون أمامه، أما كنت تتمنى أن يكون محمد يقتل مكانك، وأنت حر فى أهلك، فينكر عليهم ذلك، وأنه لو خُيِّر بين أن يقتل وأن يشاك رسول الله ﷺ بشوكة فى قدمه، لَقَبِل أن يقتل ولا يشاك رسول الله ﷺ.

• سعة الحياة العلمية:

أنعم الله على مصر بالتقدم فى العلوم الإسلامية، فعلى طول التاريخ وهى مليئة بالعلماء والمدارس، يرتحل إليها الطلاب، ويقصدها العلماء من كل بلاد الدنيا.

وممن ارتحل إليها فى القرن الثالث الهجرى أربعة من نبلاء طلاب العلم، وهم:

* الإمام الطبرى، صاحب التفسير المشهور بـ «تفسير الطبرى» وغيره من المؤلفات.

* الإمام ابن خزيمة صاحب «صحيح ابن خزيمة» وغيره من المؤلفات.

* والإمام محمد بن نصر المروزى، صاحب كتاب «السنة» و«تعظيم قدر الصلاة» وغيرهما.

* الإمام الرويانى، صاحب «مسند الرويانى» وغيره.

ارتحل هؤلاء فى سن الطلب إلى مصر، وحدث أن تقابلوا فى القاهرة، فنزلوا فى بيت واحد، وأخذوا فى طلب العلم، وكانت مصر مليئة بالمدارس الإسلامية، وبالعلماء الأفذاذ، فحرص هؤلاء على استيعاب ما فى مصر من علم، واجتهدوا فى السماع والحفظ، والكتابة والوعى يقضون فى طلب العلم الساعات الطويلة، مع الاجتهاد والحرص التام، وحدث أن المال الذى كان معهم انتهى!!

فما كان منهم إلا أن استمروا فى طلب العلم، متحملين الجوع!!

إلا أنه بعد فترة ضعفوا، فاجتمعوا فى مكان إقامتهم، وتدارسوا

أمرهم، فقرروا أن يقوم أحدهم بالسؤال، بمعنى أن يسأل الناس شيئًا من المال، يقتاتون به، ويشترون به الورق والحبر، وأجروا قرعة، فخرجت على ابن خزيمة، واستثقل ابن خزيمة الأمر، فكيف يسأل الناس، وهو يحفظ الأحاديث التى تحذر من السؤال؟ وكيف يسأل وهو صاحب العقيدة التى توجهه بالسؤال إلى الخالق، لا إلى المخلوق؟

فما كان منه إلا أن توجه إلى الله وقام يصلى، يصلى ويسأل الله أن يحفظه من سؤال الخلق.

واستجاب الله دعاء هذا الرجل، فإذا بطارق يطرق الباب، وكان رفقاؤه يتحدثون فى مسائل العلم، ففتحوا الباب، فدخل عليهم رجل جاء من طرف حاكم مصر، وحدثهم أن الحاكم كان نائمًا وقت الظهيرة، فرأى فى المنام من يقول له: إن المحمدين جياع. وسأل الحاكم فأخبر بنزولكم مصر، وبدا له أنكم المعنيون بالرؤيا، فأرسل لكم هذه المبالغ، وسلمهم خمسين دينارًا لكل واحد منهم، وقال: إن الأمير يقسم بالله عليكم إذا انتهت هذه النفقة أن تبعثوا إليه[1].

ومن هذا يتضح:

* حرص العلماء الشديد على العلم، حتى ارتحل هؤلاء ـ وهم من بلاد شتى ـ إلى مصر من أجل سماع العلم، ولم يحسبوا للنفقة حسابًا، حتى انتهت نفقتهم وهم يسمعون ويحفظون، ولما اشتد بهم الجوع لم يفكروا أيضًا فى الرجوع، فليس بمعقول عندهم أن يضيعوا هذه الفرصة، حتى رشحوا أحدهم للسؤال، إلا أنه وهو طالب العلم المتعبد لجأ إلى الله بالسؤال، فاستجاب الله له وكفاه السؤال، ووسع سبحانه وتعالى عليهم.

---

(١) هذه القصة فى تاريخ بغداد ٢/ ١٦٤ وفى سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٠ و ٥٠٨ لكنى سقتها بأسلوبى حتى لا أذكرها بأسلوب السابقين ثم أوضحها للمعاصرين.

لقد كانوا طلاب علم يستهينون بكل شىء فى سبيل العلم، وليس هناك ما يصرفهم عن العلم.

* كثرة العلم فى الأمة، فالمدارس عامرة، والرحلة نشطة، والمؤلفات غاية فى الكثرة، وغاية فى الدقة.

* صدقهم مع الله، فأعزهم الله وأكرمهم.

ونموذج آخر يبين قدر علم العلماء:

أراد هشام بن عبد الملك أحد ملوك الدولة الأموية فى الشام[١] أن يتأكد من حفظ محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى[٢]، فأحضره وطلب منه أن يملى على بعض أولاده شيئًا من حديث رسول الله ﷺ، وجلس أولاد الخليفة، ومعهم كاتب لهم، وأملى ابن شهاب عليهم أربعمائة حديث، ثم خرج ابن شهاب من عند هشام. ومن باب صدق العلماء مع الله نادى ابن شهاب أصحاب الحديث فحدثهم بالأربعمائة حديث التى حدث بها أولاد الخليفة، وذلك حتى لا يكون قد خص السلطان بشىء.

وبعد شهر التقى ابن شهاب وهشام، فقال هشام لابن شهاب: إن الكتاب قد ضاع، فقال ابن شهاب: لا عليك، فدعا هشام بكاتب فأملاها عليه ابن شهاب الزهرى.

ثم إن هشامًا أخذ هذا الكتاب، وقارن بينه وبين الكتاب الأول، فوجدهما متطابقين تمامًا، لم يغادر ابن شهاب حرفًا واحدًا. ولا زاد حرفًا واحدًا[٣].

(١) بويع بالخلافة سنة ١٠٥هـ وتوفى سنة ١٢٥هـ.
(٢) أحد الأئمة الأعلام توفى سنة ١٢٤هـ.
(٣) هذا الخبر ذكره القاضى عياض فى الإلماع ص ٢٤٣ وأشار محققه إلى أنه فى المحدث الفاصل.

هكذا كان الأمراء يريدون الاستيثاق من حفظ العلماء، حرصًا على الصدق فى الإمامة، وأنها لا تسند إلا إلى أهلها.

وهكذا أيضًا كان حفظ العلماء، فابن شهاب الزهرى يحدث بالأحاديث كما حدث بها قبل ذلك، وهذا يدل على قوة حفظه، وسلامة فكره.

وهذا الأمر يدل على شيء زائد عن الحفظ، فكيف حدث ابن شهاب بالأحاديث هى هى؟

إنه يحفظ الأحاديث، نعم هذا مسلَّم، لكن كيف عرف أنه حدث أولاد الخليفة بحديث كذا وكذا، أهو الحفظ أيضًا؟ أو هو المنهجية فى التعليم بحيث كان يعلم أنه حدثهم بأحاديث فلان عن فلان، أو بأحاديث فى موضوعات كذا وكذا؟

عمومًا هو حفظ شديد، ومنهج سديد، يعلى قدر العلماء، ويبين سعة علمهم، وعظيم اجتهادهم، رضى الله عنهم وأرضاهم.

ولو أردت استعراض صور من:

اعتزاز الأمة بإسلامها.

والتزامها بالإسلام عقيدة وشريعة.

وصلاح العلماء.

وصلاح الأمراء.

لو أردت استعراض الصور التى لدىَّ لطال، وإنما أدلل بالقليل على الكثير.

وهكذا كان عز الإسلام والمسلمين ببركة استقامة الأمة على الكتاب والسنة.

الثالث: الغربة الثانية:

قوى الإسلام وزاد، وشاع فى البشرية وفاض، وبلغ المشرق والمغرب، وقويت دولته على خير ما يكون، وكانت جيوشه لا تعرف الهزيمة، حتى قال أحد المؤرخين: كان الجندى المسلم يشير لجيش الأعداء انهزم فينهزم.

وقال هارون الرشيد لسحابة فى السماء: أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك.

بعد هذه القوة وهذه السعة حدثت الغربة الثانية، وتتمثل فى:

* جهل الكثيرين بالدين، وفى الدين المنهج السليم الموصل للعزة والسعادة، فالجهل بالدين أفقد الأمة عناصر القوة والعزة، وأبعدها عن دينها.

* جرأة الكثيرين على المعاصى، جرأة وصلت إلى استحلال المحرمات، وفى ذلك إهدار لأكبر مصدر من مصادر عزة الأمة وهو عون الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [1].

* كثرة البدع والخرافات، ونتيجة لجهل الأمة بالدين، وظهور المعاصى، حاد الكثيرون عن منهج الله، المتمثل فى الكتاب والسنة، وأحدث الناس أشياء يظنونها دينًا تشبع عاطفتهم الدينية، وليست من الدين، إنهم يعبدون الله سبحانه بغير ما شرع.

وهذه البدع إنما هى شر مستطير على الأمة، تجعل المسلم يظن أنه يفعل خيرًا، والحق أنه يفعل شرًا، فأبعدت الأمة عن الله وهم يحسبون

---

(١) سورة الروم الآية ٤٧.

أنهم يحسنون صنعًا.

* جرأة الكثيرين على معاداة الإسلام، فلقد رفع المنافقون رؤوسهم، وقويت شوكة الكفر، وراح يفرض نفسه على البشرية.

* بُعْد الأمة عن الجهاد، واعتقاد الكثيرين أن الجهاد قسوة وهمجية، بينما قتل الكفرُ الكثيرين من جماعات الإسلام، ولكن تحت تغطية إعلامية تقلب الموازين، وتصور الباطل حقًا، والحق باطلاً، بينما الجهاد الإسلامى قوة تحمى الضعفاء، وتضمن حرية الاعتقاد لكل البشرية.

* اعتقاد ضعف أمة الإسلام، فأصحاب الثقافات اللا إسلامية يشيعون قوة الكفر، وأن أمة الإسلام لا طاقة لها بمواجهة هؤلاء.

إنهم يصورون الأمة وكأنه لا خيار أمامها إلا أن تكون ذيلاً لأمم الكفر.

* بُعْد التعليم عن الدين، فشاع فى الأمة تعليم، لكنه خال عن الدراسات الإسلامية، بل ومشوب بالفكر المعادى للإسلام.

وبهذا صار الإسلام غريبًا، وصار أهله المتمسكون به غرباء. أدى إلى ذلك أمران، وهما المتحكمان فى قضية الغربة سلبًا أو إيجابًا.

أما الأمر الأول فهو: **قوة الأمة دينيًا**.

وأما الأمر الثانى فهو: **علاقة الأمة بغيرها من الأمم**.

إن الأمة إذا قويت معرفتها بالإسلام، وضبطت سيرها عليه فإنها تقوى، ويصبح الإسلام قويًا عزيزًا.

فلتنشط المدارس فى دراسة الإسلام.

ولينشط العلماء فى تعليم الإسلام.

وليعرف الحكام الإسلام من جميع نواحيه، فى تكوين الأمة، وفى رسم علاقتها بغيرها، وفى تقويتها ... إلخ.

ولنجعل الإسلام منهجنا، ومنظم حياتنا.

إن اعتزاز الأمة بالإسلام، وفهمها السديد له، وسيرها الصادق على هديه يجعل الإسلام ليس غريبًا، أما عكس ذلك فإنه يجعل الإسلام والمسلمين غرباء.

أما علاقة الأمة بغيرها: فإن الأمم يكيد بعضها لبعض، وأمة الإسلام خاصة تكيد لها كل الأمم، فعليها أن تدرك ذلك، وأن تعرف نهجها الذى يسلمها من كيد الأمم.

إن أمم الكفر تكيد لأمة الإسلام:

فتضع الخطط الدقيقة لإبعاد المسلمين عن الإسلام.

وتضع الخطط لإفشاء الانحلال بين المسلمين.

بل إنها تتآمر لإشاعة الأمراض العضوية المدمرة بين المسلمين.

وتعمل على القضاء على عناصر القوة فى الأمة، سواء القوة البشرية، أو الاقتصادية، أو العسكرية، وكثيرًا ما يظهر هذا لكنه سرعان ما يُغَطَّى، وينساه المسئولون الذين غذوا بثقافة ليست إسلامية.

إن علاقة الأمة بغيرها إذا حكمها الإسلام، ورسمها أناس قد فهموا الإسلام، فإن هذه العلاقة تكون لصالح الأمة، ويصبح الإسلام بها عزيزًا لا غريبًا، أما إذا رُسمت هذه العلاقة بعيدًا عن الإسلام، فإنها تكون وبالاً على الأمة، وتصبح سببًا فى غربة الإسلام وأهله.

الرابع: قدر هذه الغربة:

ويتساءل من يقرأ هذا الحديث:

ما قدر هذه الغربة؟

أو ما مدى هذه الغربة؟

هل ستصل إلى أن ينهزم الإسلام ويضعف فى الدنيا كلها؟

والجواب: لا، إن النصوص تفيد أن الإسلام ستعتريه موجات ضعف لكنه ليس الضعف القاتل، وإنما هو الضعف النسبى، فهو بالنسبة لفترة ازدهاره ضعف، فالإسلام فيه عناصر قوة تحفظه حيًا، وتطمئن أهله، فيثبتون ويتمسكون به، وسيظل الإسلام حيًا قويًا، يقيم الله به الحجة على خلقه إلى نهاية الدنيا.

وعناصر القوة فى الإسلام هى:

١ـ قوته الذاتية:

فالإسلام دين قوى بما فيه من تحقيق سعادة البشرية، وهو الدين الذى تسعد به الفطر.

إنه الدين الذى يزداد بالأيام جِدَّة، وتتبين البشرية فضله وميزته يومًا بعد يوم، فيتمسك به العقلاء، وأصحاب الفطر السليمة.

إنه الدين الذى مرت عليه القرون، ونصوصه فى أعلى درجات الصدق والحق، ومبادؤه وأحكامه تزداد سموًا واعترافًا بكمالها.

ومن هنا يقول ﷺ «ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىّ، فأرجو أن

أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[١].

إن معجزته ﷺ العظمى وحى يُتلى تسعد به العقول، وتسمو به الفطَر، قرآن يُتْلى، وسُنَّة تُبيِّن، والله القدير قدر لهما الحفظ إلى يوم القيامة، فستظل هذه النصوص أمام العقول، ولن يسع العقول السليمة إلا الإعظام والإكبار لهذا الدين، والعمل بما جاء به، مما يجعل الإسلام قويًا على مدى الزمان، قوى أهله أو ضعفوا، كثروا أو قلوا، إن تعاليمه قادرة على جذب العقلاء إليها، فهى تعاليم سامية وكاملة، تسعد من يعمل بها، ويعظمها كل من يتفهمها، يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[٢]. ويقول ﷺ «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»[٣].

إن هذه الخصال من خصال الإيمان تجعل الإنسان يشعر بعظمة الإسلام، وبسموه، أثبت ﷺ له حلاوة، يستعذبها العقلاء، ويسعد بها النبلاء.

إن هذه القوة الذاتية فى الإسلام تجعله دينًا قويًا، لا يعتريه الضعف، ولا تحل به الذلة، وإنما قد تقوى الصوارف عنه فتؤثر على أتباعه نوع تأثير، لكنهم يعودون إلى الحق لما فيه من سمو وعظمة، ويملّون الباطل لما فيه من خسة ونذالة.

لقد بدأ الإسلام فى قلة من الناس وفى ضعف، لكنه بقوته الذاتية جذب الكثيرين حتى قوى واشتد، وهذا شأن الإسلام دائمًا، قد يعترى

(١) أخرجه البخارى فى أول فضائل القرآن ٩/٣ رقم ٤٩٨١ و ٧٢٧٤.

(٢) سورة الإسراء الآية ٩.

(٣) أخرجه البخارى فى الإيمان باب حلاوة الإيمان ١/ ٦٠ رقم ١٦.

أهله شيء من الضعف لكنه الدين الحق الذى يجذب الإنسانية إليه، تجد فيه الخير كل الخير فتتمسك به، وتهتدى بهداه.

٢ـ تأييد الله الإسلام وأهله:

إن الله تبارك وتعالى توكل بحفظ الإسلام بأن يهيئ له أهلاً يقومون به، ويتمسكون به، يعزهم سبحانه، ويثبتهم.

* يقول سبحانه: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (١).

إن الغرباء الأولين آمنوا وعملوا الصالحات فاستخلفهم الله فى الأرض، وجعلهم حكامها وسادتها، ومكّن لهم دينهم، وجعلهم آمنين لا يخافون، ذلك أنهم يعبدونه لا يشركون به شيئًا.

وهكذا كل من آمن وعمل صالحًا يعزه الله، ويمكن له فى الأرض، هذا وعد الله، ووعد الله لا يتخلف.

* ويقول سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ (٢).

* ويقول سبحانه: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ**﴾ (٣).

---

(١) سورة النور الآية ٥٥.
(٢) سورة محمد الآية ٧.
(٣) سورة محمد الآية ١١.

إن الله يتولى عباده المؤمنين فيعمهم بلطفه وعنايته، ويشملهم بكرمه وكلاءته.

* ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[1].

* ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

* ويقول سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[3].

وواضح من هذه الآيات:

أن الله تبارك وتعالى يؤيد أهل الإسلام، وينصرهم على أعدائهم، ويثبتهم على الحق فى الدنيا والآخرة.

وأن الله سبحانه ينتقم من الكافرين، فلا عون لهم من الله، وإنما ينتقم منهم، إنه يرزقهم لأنه خلقهم، وتكفل برزق كل من خلق لكنه لا يعزهم ولا يسعدهم ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ

(١) سورة الحج الآية ٣٨ ـ ٤١.
(٢) سورة الروم الآية ٤٧.
(٣) سورة إبراهيم الآية ٢٧.

الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ (١).

وهذا التأييد والتثبيت يجعل أهل الإسلام لا ينزلون لدرجة الذلة أو الهوان، نعم قد يكونون غرباء، بمعنى غربة أحوالهم، وقد يقلون أو يقوى عدوهم لكن ليس لدرجة الهوان.

إننا نلمح غربة المتمسكين، ونلمح أيضًا أن الشدائد تنزل بجماعة المسلمين فإذا رجعوا لدينهم أعزهم الله وأكرمهم.

٣ ـ خلود الإسلام:

الإسلام الدين الذى ختم الله به الأديان،ومن هنا جعل الله لهذا الدين صفة الخلود، فهو دين لا يموت، ولا ينزوى، وإنما سيظل حيًا قويًا، دين قوى حتى وإن تخلى عنه أهله، فإن الله يحميه قويًا فيجعل له من يقوم به، ولقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم، وفى أحاديث رسول الله ﷺ، نصوص تؤكد أن الإسلام يهيئ الله له أهلاً، وسيظل قويًا إلى أن تقوم القيامة، لا يؤثر فيه كيد الكافرين، ولا يهزه تآمر المنافقين.

* يقول الله تبارك وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾** (٢).

---

(١) سورة طه الآية ١٢٤ ـ ١٢٧.

(٢) سورة المائدة الآية ٥٤.

والمعنى: إذا ارتد أهل الإسلام فالله يهيئ له أهلاً على أكمل وجه، صفاتهم صفات الصحابة، ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ، باعوا أنفسهم وأموالهم لله فينصرون دينه بكل ما أوتوا يقولون الحق وإن كان مرّاً، وينصفون من أنفسهم.

هكذا الإسلام، دين قائم بفضل الله، أعطاه خاصية البقاء، إن تكاسل أهله بالقيام به أتى الله له بأهل أكفاء يقومون به.

والآية تفيد أن الإسلام دين قائم ثابت قوى، حتى ولو تركه أهله فرضًا، فالله يهيئ له أهلاً، دلالة على قوة الإسلام وبقائه وخلوده.

* ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١].

هذا وعد الله: إذا تخاذل المسلمون عن نصرة الإسلام أيده الله بآخرين، يجاهدون فى سبيل الله، وينصرون دين الله تبارك وتعالى، ذلك أن الإسلام دين الله الخاتم فالله يهيئ له أسباب الخلود والبقاء.

* ويقول سبحانه: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [٢].

إن الأمة لو بخلت عن الإنفاق فى سبيل الله، ولم تمول جيوش الإسلام فإن الله يرزق الإسلام بآخرين ينفقون فى سبيل الله، ويجودون

(١) سورة التوبة الآية ٣٨ ـ ٣٩.
(٢) سورة محمد الآية الأخيرة رقم ٣٨.

بالمال فى سبيل نصرة دين الله تعالى.

وهكذا تبين هذه الآيات الثلاث أن الإسلام دين قائم قوى مكن الله تبارك وتعالى له ذاتيًا، لا يضره ارتداد جماعات عنه، ولا يضعفه تكاسل جماعات عن نصرته.

إنه دين محفوظ بحفظ الله تبارك وتعالى.

وهذا قطب من أقطاب خلوده، أما القطب الآخر فهو:

دفع الله تعالى كيد أعدائه: فالله تبارك وتعالى بيَّن أن كيد الكفر للإسلام كيد تالف لن يؤدى إلى القضاء على الإسلام، ولن يؤثر فى قوة الإسلام، وإنما سيكيد الكفار للإسلام ويرد الله كيدهم فى نحورهم.

* يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [1].

هذا وعد الله خالق الخلق، يمكّن للإسلام، ومهما أنفق الكافرون لصد الناس عنه فإن أموالهم حسرات عليهم وسيهزمون، ويمكن الله للحق، وينصر دينه، ويعز عباده الموحدين.

وكثير من آيات القرآن الكريم تؤكد هذا المعنى، وأن كيد الكافرين لن يؤثر على الإسلام، وإنما سيرده الله فى نحورهم.

وأحاديث رسول الله ﷺ تؤيد هذا المعنى وأن الإسلام دين خالد إلى قيام الساعة، بقوته التى أودعها الله فيه:

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٦ ـ ٣٧.

* يقول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس»[(١)].

ومعنى «ظاهرون على الناس»: أى غالبون من ناوأهم، منصورون بوعد الله.

* ويقول ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[(٢)].

وواضح من هذين الحديثين أن الإسلام دين خالد، ستظل جماعات من الأمة متمسكة به، تقاتل عنه ويؤيدها الله وينصرها، ستظل جماعات هكذا إلى قيام الساعة، إن الإسلام قد يضعف فى بعض الأماكن بقلة أهله، إلا أن هذه القلة لها شأنها، وهم طائفة منصورة، فيهم كل عناصر الحياة، ويهيئ الله لهم من يجدد لهم إيمانهم، بطرح البدع وإحياء السنن، يظل دينهم سليمًا، وسلوكهم قويمًا، يظلون هكذا يقيم الله بهم الحجة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهكذا فإن الإسلام يوم أن كان ضعيفًا فى بداية أمره كان أهله أقوى من كل الشدائد التى قابلتهم، وكذلك فى الغربة الثانية سيظل الإسلام قويًا بما فيه من قوة ذاتية، وبما أودع الله فيه من خاصية الخلود، وبتأييد الله أهله، وبإهلاك الله أعداءه.

إنها ستكون غربة لكنها الغربة النسبية، فبعد أن كان المسلمون سادة الدنيا، صاروا أقل من ذلك، لكنهم لا ينزلون لدرجة الذلة، بل إنه سيظل فيهم صفات الأقوياء، يجاهدون فى سبيل الله، ويجدد الله لهم

(١) أخرجه مسلم رقم ١٠٣٧ وأخرجه البخارى رقم ٧٣١٢.

(٢) أخرجه أبوداود فى أول الملاحم ١١/ ٣٨٥. وأفاض الأبادى فى شرحه، وقال أخرجه الحاكم - وصححه - والبيهقى فى المدخل والمعرفة، وصححه العراقى وابن حجر كذا فى ص ٣٩٦.

دينهم، إلى أن تقوم الساعة.

إن غربة الإسلام لا يصح أن تُحزن المسلم، فآيات كثيرة فى القرآن تحث على عدم الحزن على غربة الإسلام الأولى، وهى أيضًا فى الثانية، من ذلك:

* قول الله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [١].

* وقوله سبحانه: ﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [٢].

* وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [٣].

* وقوله سبحانه: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [٤].

إن هذه الآيات تبين أن المسلم لا يحزنه بُعْد الكفار عن الإسلام، ولا يقتل نفسه غَمًّا لمخالفة بعض المسلمين لأحكام الإسلام، لا يحزنه غربة الإسلام، وإنما عليه:

١ ـ أن يجتهد فى فهم الإسلام وتعلمه، ومع العلم العمل.

٢ ـ أن يجتهد فى تعليم الآخرين الإسلام، ويجتهد فى كل ما من شأنه عزة الإسلام.

---

(١) سورة النحل الآيتان الأخيرتان ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) سورة النمل الآية ٧٠.

(٣) سورة النمل الآية ٩١ ـ ٩٢.

(٤) سورة فاطر الآية ٨.

٣ ـ أن يؤمن أن الله ناصر دينه، ومعز أولياءه، وأن كيد الكفار والمنافقين لن ينال من الإسلام شيئًا، ولن يذل أهل الإسلام.

الخامس: صفات الغرباء:

يقول ﷺ «فطوبى للغرباء» أى سعادة وقرة عين للمتمسكين بدينهم، المعتزين بإسلامهم.

لكن ما شأن هؤلاء الغرباء؟ وما صفاتهم؟

إن كل جيل من الأمة يهمه أن يعرف صفات الغرباء، الذين بشرهم ﷺ بالسعادة والخير فى الدنيا والآخرة، فى قوله ﷺ «فطوبى للغرباء» ونحن يهمنا كثيرًا أن نعرف صفاتهم، كى نكون على الدرب.

والناظر فى أحاديث الغربة يتضح له أن الغرباء يجمعون بين ثلاث صفات:

١ ـ متمسكون بدينهم، مهما كانت الفتن والصوارف.

٢ ـ دينهم سليم، قد سلم من البدع والخرفات.

٣ ـ قلة بين الناس، وقلتهم لا تجعلهم يضعفون، بل يعتزون بدينهم ويسعدون.

وهذه هى النصوص التى تفيد هذه الصفات:

* فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل: مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: الذين يَصْلُحون إذا فسد الناس»[1].

(١) أخرجه أبو يعلى ٢/ ٩٩ وأحمد ١/ ١٨٤ وقال فى المجمع ٧/ ٢٧٧: رواه أحمد والبزار وأبو يعلى، ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح.

* وروى من حديث سهل بن سعد الساعدى[١]، وجابر، وأبى هريرة، وسعد بن أبى وقاص، وغيرهم[٢].

هذه صفة من صفات الغرباء: يصلحون إذا فسد الناس.

وهذا يدل على قوة تمسكهم بدينهم، وأنهم ليسوا تبعًا، وإنما هم رؤوس.

وأنهم علماء عاملون، لا تأخذ منهم الفتن، ولا يؤثر فيهم شيوع المعاصى، أناس حرصهم على دينهم أقوى من جذب المجتمع لهم.

وحديث ابن مسعود هذا يفيد أنهم يقوّمون أنفسهم مهما اعوج الناس.

وفى حديث آخر: أنهم يُصلحون غيرهم، وأنهم يأخذون بيد غيرهم إلى هَدْى رسول الله ﷺ، ففى حديث عمرو بن عوف بن زيد بن مِلْحة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدين ليأرز إلى الحجاز[٣] كما تأرز الحية إلى جحرها، وليعقلن الدين فى الحجاز[٤]، معقل الأُرْوِيَّة من رأس الجبل[٥]، إن الدين بدأ غريبًا، ويرجع غريبًا، فطوبى للغرباء، الذين يُصْلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنتى»[٦].

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الصغير ١/ ١٠٤ وفى الكبير ٦/ ١٦٤ رقم ٥٨٦٧ وذكره فى مجمع الزوائد ٧/ ٢٧٨ وقال: رواه الطبرانى فى الثلاثة ورجاله رجال الصحيح غير بكر بن سليم وهو ثقة.

(٢) راجع مجمع الزوائد ٧/ ٢٧٧ والغربة لابن القيم تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، والغربة والغرباء دراسة سليم الهلالى.

(٣) أى أن الإسلام يستمد قوته من بلاد الحرمين، وكلمة «يأرز» معناها: ينضم ويجتمع.

(٤) يعقل معناها: يلتجئ ويحتمى، و«ليعقلن» جواب قسم محذوف.

(٥) الأُرْوِيَّة: الأنثى من المعز الجبلى، والمعنى: والله ليعتصمن الإسلام فى بلاد الحجاز كما تحتمى أنثى الماعز برؤوس الجبال، فتصعد أعلى الجبال حماية لها ممن يريدها بسوء.

(٦) أخرجه الترمذى فى الإيمان باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا ٧/ ٣٨٢. وقال: هذا حديث حسن، ويعترض عليه البعض بأن فى إسناد الحديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، وهو ضعيف، والترمذى إمام جهبذ، أدرى بالأسانيد، وكلامه مقدم.

إنهم صالحون مصلحون، يعرفون سنته ﷺ وهديه، ويلتزمون بذلك فى أنفسهم، ويأخذون بيد الناس إلى ذلك، إذا ترك الناس سُنَّةً نبهوهم لها، وإذا ابتدع الناس بدعة حذروهم منها، إنهم حراس سنته ﷺ.

* وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن عنده «طوبى للغرباء» فقيل: من الغرباء يا رسول الله؟ قال: ناس صالحون قليل فى ناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم»[(١)].

هذه الصفة الثانية من صفات الغرباء، ناس صالحون، عددهم قليل بالنسبة لمجتمعاتهم، لكنهم يدعون غيرهم إلى الخير، بيد أن غيرهم يصر على الباطل، أغراهم بريقه، فلم يستجيبوا لهؤلاء الصالحين، إلا مَنْ رحم ربى.

* وعن عبد الله بن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ: إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا، فطوبى للغرباء. قال[(٢)]: قيل: ومن الغرباء؟ قال: النُزَّاع من القبائل»[(٣)].

---

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك فى الزهد ص ٢٦٧ رقم ٧٧٥، وأحمد ٢/ ١٧٧ ـ ٢٢٢ وأخرجه غيرهما، والحديث وإن كان فى إسناده ابن لهيعة لكنه من رواية أحد العبادلة عنه، من رواية عبد بن الله المبارك عنه، ورواية العبادلة عنه صحيحة، فهذا الحديث صحيح.

(٢) ابن مسعود.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الفتن باب بدأ الإسلام غريبًا ٢/ ١٣٢٠ رقم ٣٩٨٨ وأخرجه الدارمى فى الرقاق باب إن الإسلام بدأ غريبًا ٢/ ٢٢٠ رقم ٢٧٥٨، وأحمد ١/ ٣٩٨ وأخرجه الترمذى فى الإيمان باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبًا ٧/ ٣٨٠ لكن دون السؤال: قيل: ومن الغرباء.. إلخ.
وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب صحيح.
ومن هنا، فإذا كان البعض يضعف هذا الحديث على أساس أنه من رواية أبى إسحاق السبيعى، ويصفونه بأنه مدلس مختلط، فإنى أذهب إلى صحته بناء على:
١ ـ تصحيح الترمذى له.
٢ ـ أنه من رواية الأعمش عن أبى إسحاق وهما من طبقة واحدة، فسماع الأعمش متقدم، والأعمش إمام جهبذ.
=

و«النزاع» جمع نازع ، وأيضًا جمع نزيع. ومادة «نزع» تدل على الترك لكنه ترك فيه علو وشرف، والمراد: الذين تركوا بلادهم وأهليهم وعاشوا متفردين،هجروا أوطانهم وفارقوا جماعتهم من أجل الحفاظ على دينهم.

إنهم قلة من كثرة، أفراد من قبيلة، تمسكوا بدينهم وسط كثيرين غير متمسكين، أو اضطروا لترك عشيرتهم من أجل أن يسلم لهم دينهم.

هذه أوصاف الغرباء كما توضحها النصوص:

١ ـ متمسكون بدينهم كل التمسك، لا يصرفهم عنه صارف مهما كان، تعلموه وفهموه، وعرفوا قدره وعظمته، فاعتزوا به كل الاعتزاز، ابتعدوا عن الفتن، وعملوا بالقرآن الكريم والسنة النبوية، تمسكوا بَهْدى رسول الله كل التمسك، رائدهم قوله ﷺ: «إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنة نبيه»[١].

٢ ـ يضبطون دينهم على الكتاب والسنة، فلا تَزَيُّد ولا نقص، ولا بدع ولا خرافات وإنما ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [٢].

يسألون القرآن عن حالهم، ويدققون فى الأحاديث النبوية كى يكونوا على منهج نبيهم ﷺ. فدينهم سليم، ونهجهم قويم.

= ٣ ـ أن الأحاديث الأخرى تقويه، فكلها تشير إلى قلة عدد الغرباء.

٤ ـ علماء الرجال لا يركزون على هاتين الصفتين فى أبى إسحاق، مما يدل على ضعفهما فيه، فمن الأئمة من لا يصفه بذلك، ومنهم من ينفى عنه صفة الاختلاط، ويصفه فقط بالنسيان فى آخر حياته.

(١) أخرجه الحاكم فى العلم باب خطبته ﷺ فى حجة الوداع ١/ ٩٣، والبيهقى فى الكبرى فى آداب القاضى باب ما يقضى به القاضى ١٠/ ١١٤.

(٢) سورة هود الآية ١١٢.

٣ ـ دعاة إلى الخير، يأخذون بيد الناس إلى الكتاب والسنة، يبيِّنون الحق، ويدلُّون الناس عليه، ويوضحون الإسلام ويحببون الناس فيه، جمعوا بين العديد من صفات الخير، فهم علماء، حلماء، حكماء. رائدهم قول الله تعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (١).

٤ ـ قِلَّةٌ بين الناس، وقلتهم لا تضعفهم، وإنما هم أقوياء بتأييد الله لهم، أعزة بنصرة الله إياهم. إنهم واثقون بسلامة نهجهم معتزون به، فقِلَّتُهم عز، يعرفون ما هم فيه، والحق الذى هم عليه، ومن هنا يثبتون ويتمسكون.

إن قلتهم إنما هى قلة الأطهار الأخيار، تورث السعادة والاستقرار.

السادس: أجر الغربة:

وهؤلاء الغرباء، المتمسكون بدينهم، القليلون فى وسط شعوبهم، هؤلاء الذين يدورون مع الحق حيثما دار، يعتزون به وينصرونه، هؤلاء بيّن ﷺ أنهم السعداء، فقال «فطوبى للغرباء» أى سعادة لهم، وقرة عين.

إنهم على نهج القرآن والسنة، وغربتهم كغربة أوائل الأمة من السابقين الأولين، ومن هنا فلهم عظيم الأجر، وكريم الجزاء.

وكثير من الآيات القرآنية بينت جزاء هؤلاء، فكل الآيات الواردة فى جزاء الصالحين هى فى هؤلاء، بل إن آية سورة الرعد توافق هذا الحديث موافقة صريحة:

---
(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [١].

إن الجزاء فى هذه الآية يتفق مع الجزاء الذى فى هذا الحديث، ففى الحديث «فطوبى للغرباء»، وفى هذه الآية «طوبى لهم» أى سعادة وقرة عين.

وآيات تبين إكرام الله لهم فى الدنيا والآخرة، منها:

قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٢].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [٣].

وآيات تبين حسن مصيرهم فى الآخرة، منها:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [٤].

وأما الأحاديث فكثيرة ذكرت عددًا منها فى «الإخبار بصعوبة المحافظة على الدين»[٥] تبين هذه الآيات وما فى موضوعها، والأحاديث النبوية التى فى جزاء الصالحين، المستقيمين تبين أن هؤلاء الغرباء لهم العون من الله فى الدنيا، وحسن الجزاء فى الآخرة.

إنهم أولياؤه سبحانه، وهم حزبه جل جلاله، يعبدونه كما شرع، ويمتثلون أوامره سبحانه وتعالى، ويجتنبون نواهيه عز وجل، وهو سبحانه يجزيهم خير الجزاء، فى الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٩.
(٢) سورة النحل الآية ٩٧.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٦.
(٤) آخر سورة الكهف.
(٥) ص ٦١.

إنهم يعلمون مكانتهم، ويعرفون رسالتهم، ويستطيعون القيام بواجبهم، فهم عباد الله المؤمنون، رسالتهم الأخذ بيد الناس إلى الحق، وسبيل ذلك فهم الإسلام والتمسك به. وضعوا نصب أعينهم الآيات التى تحث على ذلك ومنها:

* قوله تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ** ﴾ (١).

والمعنى: هلا كان فى الأمم السابقة أناس أصحاب دين وخلق ينهون أنفسهم وغيرهم عن الفساد فى الأرض، إنه لو وجد هؤلاء ما أهلكنا الأمم السابقة، لكنهم لم يوجد فيهم هذا الصنف، إلا قليلاً نجينا هذه القلة بنهيهم عن المنكر.

فالغرباء من أمتنا يحرصون على التمسك بالإسلام، والأخذ بيد الناس إليه، رجاء أن يرضى الله عن الأمة ولا يهلكها، وأن يرضى عن هؤلاء الغرباء ويثيبهم.

* وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ (٢).

إن هاتين الآيتين تتحدثان عن بنى إسرائيل وأن طائفة منهم عصت الله تعالى، فنصحت لها الطائفة الأخرى، ووعظتها وذكرتها، إلا أن طائفة العصاة أصرت على عصيانها، مما جعل طائفة الناصحين تنقسم إلى فرقتين فرقة استمرت فى النصح والوعظ، وفرقة يئست من هداية طائفة

---

(١) سورة هود الآية ١١٦.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٦٤ ـ ١٦٥.

العصاة، فقالت الفرقة اليائسة للفرقة المستمرة فى الوعظ: لا داعى للوعظ، فهؤلاء مستمرون فى عصيانهم، والله سيهلكهم، أو سيعذبهم عذابًا شديدًا.

فقالت الفرقة الناصحة: إننا سنستمر فى نصحهم، أولاً: للاعتذار إلى الله من التقصير فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وثانيًا: رجاء أن يقبل هؤلاء العصاة نصحنا، فيتقون عذاب الله تعالى.

وبين الله نهاية الطائفتين، أما الطائفة الناصحة فنجاهم الله، وسلمهم، وأما الطائفة العاصية فعذبهم الله عذابًا شديدًا، بسبب عصيانهم.

وهاتان الآيتان تقويان عزم غرباء زماننا، فلابد من الوعظ والنصح، ولابد من التذكير والدعوة، فهذا أصل من أصول ديننا، كما قال سبحانه: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (١).

فلننصح ولْنُذَكِّر ـ يثيبنا الله على ذلك، ولعل الآخرين ينتفعون بنصحنا ـ إن هذه الآيات تبين بجلاء أن الغرباء بدعوتهم إلى الحق ينجيهم الله من كل طامّة، ويعمهم سبحانه وتعالى برحمته.

* وقوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (٢).

أى إن الله كافيك وكافى أتباعك كل شدة.

* وقوله سبحانه: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ (٣).

---

(١) سورة التوبة الآية ٧١.
(٢) سورة الأنفال الآية ٦٤.
(٣) سورة الزمر الآية ٣٦.

* وقوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (١).

فالمسلم المتمسك بدينه، المتبع لمنهج رسول الله ﷺ، هذا النوع من البشر يكفيه الله ما أهمه، ويجعل له مخرجًا من كل ضيق، ويرزقه من حيث لا يخطر بباله.

* وقوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢).

* وقوله سبحانه: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (٣).

وهكذا تبين هذه الآيات وجوب الثبات على الحق، ووجوب الأمر بالمعروف، وأهل ذلك لهم من الله الولاية العامة، يعزهم ويعليهم، يرضى عنهم ويرضيهم، أسأل الله أن يثبتنا على الحق، وأن يهدينا صراطه المستقيم.

---

(١) سورة الطلاق الآية ٢ ـ ٣.
(٢) سورة الأنفال الآية ٢٩.
(٣) سورة محمد الآية ١١.

• وجه الإعجاز:

فى وقت أظهر الله الإسلام وأعزه، وسار جيش الإسلام فاتحًا، وتعدى البلاد العربية، وبدأ الإسلام يظهر فى غير الجزيرة العربية، وأصبح الإسلام القوة الأولى من حيث الشنآن، ومن حيث الذاتية الأصيلة، فهو أقوى أمة، وهو الحق والعدل.

فى هذا الوقت من تاريخ الإسلام، وفى السنوات الأخيرة من العهد النبوى، يحدثنا رسول الله ﷺ عن أطوار الإسلام:

* أنه بدأ غريبًا، أتباعه قلة، والناس يرونهم غرباء الحال.

* ثم انتشر وكثر أتباعه، وعلمته البشرية، فالدولة دولته، والكلمة كلمته.

* ثم إنه سيعود غريبًا، فيقل المتمسكون به، ويصبحون غرباء فى جماعاتهم.

وعند النظرة العادية، فالدين الذى قوى شأنه، وعظم فى ذاته، واتبعه الصادقون، عند النظرة العادية لا يُظَن به ضعف، ولا يُنْتَظَر له تغير فأساسه متين، وأصوله لن تتغير.

إن الإسلام دين قد تكفل الله بحفظ أصوله، القرآن الكريم والسنة النبوية، وبالنظرة العادية، فما دامت الأصول محفوظة، فالدين محفوظ، وعليه فلا يتصور لهذا الدين ضعف، ولا تنتظر له غربة.

هذا عند النظرة العادية، إلا أن رسول الله ﷺ الذى آتاه الله الكتاب والحكمة، يخبر بأن هذا الدين لن يظل على قوته، وإنما ستطرأ عليه أسباب ضعف، على العقلاء أن يحذروها، وستحدث له غربة، على الغرباء أن يثبتوا، وعليهم أن يستمسكوا بدين الله تعالى، فأجرهم عظيم،

والله مؤيدهم وناصرهم.

يخبر ﷺ بأن هذا الدين ستطرأ عليه أسباب ضعف، ويستغرب أصحابه، ويتساءلون: كيف؟

ويؤكد رسول الله ﷺ هذا، فيحدث كما أخبر ﷺ!!

نعم، كما أخبر ﷺ، فنلاحظ فى زماننا غربة الإسلام، ما بين قلة المتمسكين به، الملتزمين بهدى رسول الله ﷺ، وما بين استغراب الناس أمر المسلم الملتزم، أو المسلمة الملتزمة!!

سبحان الله !! يقع الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ تمامًا، فالإسلام فى زماننا غريب. المتمسكون به قلة، والملتزمون به غرباء، والكثرة الكثيرة من أهله لا يعرفون حدوده، ولا يلتزمون بأصوله، بل إنهم ربما يعادون المتمسكين به، الملتزمين، المستقيمين، وأكثر من هذا أن من أهله من يحاربه!! يحارب الإسلام، إما نفاقًا وإما جهلاً، وهؤلاء ضررهم خطير، فإن صدور الشر منهم أخطر من صدوره من الكافرين.

لقد قل العلم فى الناس، وقل العمل أيضًا، وأصبح العلم عند الكثير علم الدنيا،وأصبح العلم الشرعى عند من يعرفه غير مرتبط به العمل، فأصيب المسلمون من هذين البابين، قلة العلم، وقلة العمل.

سل الناس عن الالتزام بالإسلام، تجد القلة معك، والكثرة عليك.

إذا سألتهم عن ترك معصية ولتكن «الربا» وجدت الكثيرين يتعاملون بها! وإذا حذرتهم المخدرات وجدت الكثيرين يتعاطَوْنها!

وهذا شأن كثير من المعاصى، تجد الكثيرين مع سفور النساء، واختلاط النساء بالرجال.

وتجد الكثيرين جرءاء على الكسب الحرام، فكثرت الرشوة، وكثر الغش.

وأصبح المجتمع المسلم المعاصر ليس على التزام المجتمع المسلم السابق. فأصبح الإسلام غريبًا.

وكذلك فى الطاعات، فالقليل الذى يخشع فى الصلاة، والقليل هو الذى يصليها كما كان رسول الله ﷺ يصلى.

وأصبح التعليم فى معظمه بعيدًا عن الإسلام، ومن يتعلم الإسلام قليل!! والناس فى منهجهم العام مخالفون للإسلام، يتكلمون كثيرًا فى الخير والشر، وكثرت الغيبة والنميمة، وكثرت الكتابة لكنها ليست فى الكثير الغالب نافعة.

إننا نرى المجتمع المسلم الحالى على غير الصورة التى نقرأ عنها فى الأجيال السابقة، وما ذلك إلا لغربة الإسلام. هذه التى أخبر بها ﷺ فوقعت كما أخبر ﷺ.

معجزة ثانية:

وفى هذا الحديث معجزة ثانية، وهى إخباره ﷺ بأن طائفة ستظل ملتزمة بالإسلام متمسكة به، وقد حدث ذلك، وتحقق ما أخبر به ﷺ.

لقد أخبر بأن الغرباء تلك الطائفة التى تصلح إذا فسد الناس، وتحافظ على دينها كما فى القرآن والسنة، وهم قليلون لكنهم أعزة[1]، لقد أخبر ﷺ ببقاء هذه الطائفة على الإسلام سليمًا قويمًا، وقد حدث ما أخبر به ﷺ، فعلى الرغم من كثرة الفتن، وعلى الرغم من كثرة الشهوات والمغريات إلا أننا نجد فى الأمة شبابًا وشابات يعتزون بالإسلام كل

(١) تقدم تفصيل ذلك فى: صفات الغرباء ص ١٠٥.

الاعتزاز، تسعد به قلوبهم، ومستقرة عليه أعمالهم، يودون إرضاء الله، ويحرصون كل الحرص على تمام الاقتداء برسول الله، إذا علموا حرمة شيء تركوه، وإذا علموا شيئًا فعله رسول الله ﷺ فعلوه، يحبون الله ورسوله والدار الآخرة، يحبون القرآن والسنة، ويبغضون الكفر والنفاق والبدعة، يتعلمون الإسلام بِنَهَمٍ، ويعملون بأحكامه بصدق، رضى الله عنهم ورضوا عنه.

إن وجود هذه الطائفة فى الأمة تصديق ما أخبر به ﷺ، وعَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ. ذلك أن الصوارف عن الإسلام تعددت وكثرت وشاعت، وهؤلاء مقيمون على هَدْى رسول الله ﷺ، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون، حتى إن أعداء الإسلام يستغربون بقاء هؤلاء، لكنه الصادق المصدوق ﷺ، يخبرنا بذلك، فيتحقق الأمر كما أخبر ﷺ.

ومعجزة ثالثة:

ويخبر ﷺ ويدعو لهذه الطائفة المتمسكة بدينها، فيقول «فطوبى للغرباء» أى قرة عين لهم، وسعادة وسكينة لقلوبهم، ويتحقق هذا، فطائفة الإيمان بحمد الله سعداء غاية السعادة، مستقرون غاية الاستقرار[1] يحظون بعناية الله ورعايته، فأمورهم ميسرة، وبالهم سعيد، ويحظون بحب الناس كل الناس مما يتيح لهم حياة السعداء.

وهكذا تظهر هذه المعجزة، ويكون الغرباء كما أخبر ﷺ، وكما دعا، فصلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

---

(١) تعترف المنظمات الإنسانية بخير طائفة المتدينين، فجهاز مكافحة المخدرات يقرر أنه لا يوجد ملتزم واحد فى عداد المدمنين، وأجهزة الأمن العام تقرر أنه لم تحدث حالة اغتصاب لملتزمة. والحمد لله رب العالمين.

وهكذا تظهر كل ما فى هذا الحديث من نبوءاته ﷺ، ويتحقق كل ما أخبر به ﷺ، مما يدل على أن أقواله وحى الله إليه، وأن هذا نصيبنا من معجزاته ﷺ، فلئن كان الصحابة رأوا انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وسمعوا حنين الجذع، فها نحن نرى صدق ما أخبر به ﷺ مما يزيدنا إيمانًا.

وكلما درسنا القرآن والسنة ازددنا يقينًا.

أسأل الله أن يرزقنا الفقه فى الدين.

• ما يستفاد من الحديث:

وفى هذا الحديث فوائد جمة، أذكر منها:

* الإسلام سيقل عارفوه، وسيقل التمسك التام به، وعلى أهل الصدق أن يستفيدوا من إخباره ﷺ فيحرصوا على تعلم الإسلام، ويحرصوا على العمل وتعليم الآخرين.

* ستظل طائفة من الأمة ملتزمة بالإسلام، علمًا وعملاً، وسيكونون على هدى رسول الله ﷺ، فليحرص العاقل على أن يكون معهم وأن يكون منهم إن الأرض لن تخلو من الصالحين، فابحث عنهم وكن منهم.

* طائفة الملتزمين طائفة منصورة مؤيدة من الله، هم أولياء الله، يتولَّوْن الله بالطاعة، ويتولاهم الله بالرعاية، فكن منهم، ولا تخف عليهم.

* وفى الحديث معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ، فلقد تحقق ما أخبر به، من غربة الإسلام، وثبات بعض الأمة عليه، وسعادتهم بالإسلام.

* وفى الحديث تحذير من الجهل بالإسلام، وتحذير من عدم الالتزام به، فلنحذر، ولنتعلم، ولنعمل، ولنُعَلِّم.

والله الهادى إلى الصراط المستقيم[1].

* * *

(١) هذا الحديث قد شرحه عدد من العلماء: فشرحه شيخ الإسلام ابن تيمية وهو فى مجموع الفتاوى ١٨/ ٢٩١ ـ ٣٠٥ وشرحه ابن القيم فى كتابه «مدارج السالكين ٣/ ١٩٤ ـ ٢٠٥ وشرحه الشاطبى فى مقدمة كتابه الاعتصام. وهذه الثلاثة قد جمعها أحد أهل العلم واسمه سليم بن عيد الهلالى فى كتاب واحد سماه «الغربة والغرباء» وللآجرى المتوفى ٣٦٠ كتاب «صفة الغرباء» مطبوع شائع، ولابن رجب الحنبلى رسالة بعنوان «كشف الكربة فى وصف حال أهل الغربة» وهى مطبوعة شائعة، وفيه غير ذلك.

ومن أهل زماننا الأخ سلمان بن فهد العودة له كتاب «الغرباء الأولون» وهو كتاب مفيد فى بابه.

الإخبار بظهور منكرى السنة النبوية

عن المِقْدَام بن مَعْدِى كَرِب قال: «حَرّم النبى ﷺ أشياء يوم خيبر. منها الحمَارُ الأَهْلىّ وغَيرُه، فقال رسولُ الله ﷺ: يُوشك أَنْ يَقْعُد الرجلُ منكم على أَرِيكَتِه، يُحَدِّثُ بحديثى فيقولَ بينى وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استَحْلَلْنَاهُ، وما وجدنا فيه حرامًا حَرَّمْنَاه، وإن ما حَرَّم رسولُ الله ﷺ كما حَرّم الله» هذه رواية الحاكم.

ورواية أبى داود يقول ﷺ: «ألا إنى أُوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه، ألا يُوشك رَجُلٌ شَبْعَانُ على أَرِيكَتِه يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلُّوه، وما وجدتم فيه من حرام فَحَرِّمُوه، ألا لا يَحِلُّ لكم الحمَارُ الأَهْلىُّ، ولا كُلُّ ذى نَاب منَ السَّبُع، ولا لُقْطَةُ مُعَاهد، إلا أن يَسْتَغْنِىَ عَنْهَا صَاحِبُها، ومَنْ نَزَل بقَومٍ فعليهم أن يُقْرُوهُ، فإن لم يَقْرُوهُ فله أن يُعْقِبَهُم بمثلِ قِرَاه»[1].

---

(١) أخرجه الحاكم فى العلم باب إن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله ١/١٠٩ من وجهين عن معاوية بن صالح، وأحد الوجهين عن أحمد بن حنبل عن عبد الرحمن بن مهدى، وهو فى المسند ٤/١٣٢ وصححه أحمد شاكر فى تعليقاته على الرسالة للشافعى ص ٩٠ ـ ٩١، ذكره الحاكم شاهدًا لحديث أبى رافع، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه فى المقدمة باب الاعتصام بالسنة ١/١٨٩ رقم ١٢ وأخرجه أبو داود فى السنة باب فى لزوم السنة ١٢/٣٥٤ والترمذى فى العلم باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ ٧/٤٢٦ وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأخرجه ابن ماجه فى المقدمة باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ ١/٦.

ولهذا الحديث شاهد عن أبى رافع أخرجه الأئمة فى مواضع تخريج الحديث الذى معنا. وحديث المقدام الذى معنا حديث صحيح وحديث أبى رافع أيضًا صحيح أخرجهما كثير من الأئمة، ولقد ذكرت بعضًا وتركت بعضًا خشية الطول، ويراجع التخريج فى ابن حبان وفى الشريعة للآجرى ١/١٧٧ ـ ١٧٩. وفى الفقيه والمتفقه ١/٢٦١، ففى هذه الكتب سعة فى التخريج لمن أراد جمع الطرق والمتون.

• المعانى:

«يوشك» مضارع أوشك، وهو من أفعال المقاربة، والمعنى : سيحدث عما قريب.

«الرجل منكم» فى رواية أخرى «يوشك رجل شبعان» وهو كناية عن البلادة وسوء الفهم الناشئ عن الشبع، أو عن الحماقة اللازمة للتنعم والغرور بالجاه والمال، أو عنهما معًا، والمعنى: يوشك رجل غبى أو أحمق أن يَرُدَّ حديثى.

«على أريكته» الأريكة: السرير المزيَّن، والمراد: لازم ذلك، وهو الترفه والتنعم والكبر، أى يقرب أن يجلس الرجل الشبعان المتكئ على الفرش الناعمة المتكبر، هذا الذى ألهته الرفاهية والكبر عن طلب العلم، يوشك أن يَرُدَّ حديثى.

«يُحَدَّثُ بحديثى» أى يخبره الناس بحديث من أحاديثى، ولم يكن قد عَلِمَهُ ولا عَلِمَ وجوبَ العمل بالسنة، ومن هنا سيقول هذا المترف:

[بينى وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه] هذا كلام المترف المتكئ على أريكته، ومعناه: أنه يرفض السنة، ويريد العمل بالقرآن الكريم وحده، قائلاً: بينى وبينكم كتاب الله، وواضح من هذه العبارة أنه سيكون فردًا أمام جماعة، وأن المنكرين للسنة هم بفضل الله قلَّة قليلة فى الأمة، ثم يبين هذا المترف غرضه فيقول [فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه] إنه يريد الاقتصار على الأحكام الواردة فى القرآن الكريم، وهو لا يعلم أن القرآن الكريم ليس مقتصرًا على الحلال والحرام، وإنما فيه العقيدة الصحيحة، ومنها ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ

فَانتَهُوا ﴾ (١).

«فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه» أى الذى نجد حلّه فى القرآن الكريم فإنا نُحِلُّه، وأما إذا جاء حله من غير القرآن فلا نحله.

«وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه» أى والذى نجد تحريمه فى القرآن الكريم فإنا نقول بتحريمه، وما عدا ذلك فلسنا نحرمه، إنه يريد الاكتفاء بالأحكام الواردة فى القرآن، ونسى أو تناسى أن القرآن الكريم أمرنا بالاقتداء برسول الله ﷺ ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً** ﴾ (٢).

وإلى هنا انتهى كلام المترف، هذا الذى لم يتعلم دينه، فراح يطلب الأحكام من القرآن الكريم وحده، ويظن أن القرآن للأحكام فقط، بينما القرآن جمع الكثير من العقائد والأصول، ومنها وجوب العمل بسنة رسول الله ﷺ.

ثم يقول ﷺ:

«وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله» أى وإن الشىء الذى حرمه رسول الله مثل الشىء الذى حرمه الله تعالى، كلاهما حرام، جاء تحريمهما من عند الله تعالى، فرسول الله إنما هو مبلغ عن الله عز وجل.

وإنما قال ﷺ: «وإن ما حرم...» مكتفيًا على التحريم ولم يذكر التحليل، لأن الأصل فى الأشياء الإباحة، أو اكتفى بأحد القرينين عن الآخر، والمعنى وإن ما حرم أو أحل رسول الله هو كما حرم أو أحل الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة الحشر الآية ٧.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

«ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه»، «ألا» أداة تنبيه و«إنى أوتيت الكتاب» أى آتانى الله القرآن الكريم.

«ومثله معه» أى وآتانى الله مثل القرآن الكريم، فعلّمَه الله وأراه، وبين له القرآن الكريم ومعناه، وهذا البيان له صفة الإلزام مثل القرآن الكريم.

جاء فى رواية أخرى «آتانى الله القرآن ومن الحكمة مثله»[1] والحكمة هى النبوة، والتى هى جموع علوم أخبر ﷺ بها أمته، وسماها «السنة» وهذا القدر من الوحى، الذى مع القرآن الكريم، إنما نحن ملزمون بالعمل به، مثل ما نحن ملزمون بالعمل بالقرآن الكريم.

وستأتى بقية المعانى فى مباحثها إن شاء الله تعالى[2].

• راوى الحديث:

المقدام بن معدى كرب: أحد الصحابة الأجلاء، من قبيلة كِنْدة من بلاد اليمن، يتصل نسبه بيعرب بن قحطان، كنيته: أبو كريمة، وأبو يحيى.

حظى بصحبة رسول الله ﷺ، وعاش فى مدينة رسول الله ﷺ، وكان من صغار الصحابة، توفى رسول الله ﷺ وهو فى الخامسة عشرة.

سأله جماعة من التابعين قائلين: يا أبا كريمة، إن الناس يَدَّعُون أنك لم تر رسول الله ﷺ؟

قال: بلى، والله لقد رأيته، ولقد أخذ بشحمة أذنى هذه، وإنى لأمشى مع عم لى[3].

(١) أخرجه أبو داود فى مراسيله باب فى البدع ص ٢٤٨ عن مكحول عن رسول الله ﷺ.

(٢) راجع ص ١٢٩، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٢٠/ ٢٨٠ رقم ٦٦٤. وابن قانع فى معجم الصحابة ترجمة المقدام ٣/١٠٦.

وحظى أيضًا بالجهاد مع رسول الله ﷺ، يتحدث فيقول: إننى كنت غازيًا مع رسول الله ﷺ فنزلوا ـ أى جيش المسلمين ـ إلى جانب حظائر يهود بخيبر، فتناول أصحاب رسول الله ﷺ عنها، فانطلقت اليهود إلى رسول الله ﷺ، فشكوا ذلك إليه، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فنادى «الصلاة جامعة، ولا يدخل الجنة إلا مسلم» فقام فينا رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «ماذا يحل لكم من أموال المعاهدين لغير حقها؟ يقولون ما وجدنا فى كتاب الله من حلال أحللناه، وما وجدناه من حرام حرمناه، ألا وإنى أحرم أموال المعاهدين، وكل ذى ناب من السباع، وما سخر من الدواب إلا ما سمى الله»[١].

وهكذا كان المقدام صحابيًا، بل ومجاهدًا فى سبيل الله تعالى.

ولقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث عديدة، أخرجها الأئمة فى كتبهم، فأحاديثه عند البخارى وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه[٢] وأيضًا فى مسند أحمد[٣]، ومعاجم الطبرانى[٤]، وغير ذلك كثير.

وروى عن عدد من الصحابة.

وروى عنه آله وكثير من التابعين.

ولقد كان المقدام من المتَّبِعين بدِقَّةٍ، فكان يجتهد فى تَرَسُّمِ خُطى رسول الله ﷺ .

أوصاه رسول الله ﷺ وصية فامتثلها على خير وجه، قال له «أفلحت

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٢٠/ ٢٧١ رقم ٦٤٢ وهو حديث حسن لغيره.

(٢) راجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث جـ ٨ ص ٢٦٣ وتحفة الأشراف جـ ٨ ص ٥٠٥ ـ ٥١٣.

(٣) جـ ٤ ص ١٣٠.

(٤) الكبير جـ ٢٠ ص ٢٦١ ـ ٢٨٤ وله فيه من رقم ٦١٥ إلى رقم ٦٧١.

يا قُدَيْم إن مُتَّ ولم تكن أميرا، ولا جابيا، ولا عريفا»[١].

و«قُديم» تصغير مقدام، والتصغير هنا للتدليل والملاطفة.

و«الجابى» الذى يجمع الأموال لصالح الدولة.

و«العريف» رجل السلطان.

وفى أعمال الفتوح الإسلامية شارك المقدام، واستقر به المطاف فى بلاد الشام، وسكن حمص إلى آخر حياته.

توفى رضى الله عنه سنة سبع وثمانين، وهو ابن إحدى وتسعين سنة.

ولقد أتاح له عمره الطويل هذا أن يبلِّغ العلم، وأن يزداد من أعمال الخير، رضى الله عنه وعن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين[٢].

• الشرح:

تحدث رسول الله ﷺ بهذا الحديث فى أول السنة السابعة الهجرية بينما كان يفتح حصون خيبر، وشأنه ﷺ أنه يحرص على تعليم المسلمين دينهم، فعلى الرغم من أنه كان فى غزوة والموقف شديد، إلا أنه ﷺ كان يخلو بهم بعض الأوقات ويعلمهم أمور دينهم، وبخاصة أن فتح خيبر استغرق شهرين تقريبًا.

وفى هذا الحديث يعلمهم ﷺ بعض الأحكام، ثم ينتقل ليعلمهم أصولاً، وقواعد فى غاية الأهمية، ألا وهى:

١ ـ السنة النبوية من وحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ، وهذا واضح

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٤/١٣٣ وابن قانع فى معجم الصحابة ٣/١٠٧.

(٢) من مصادر ترجمته غير ما سبق: الإصابة ٦/٢٠٤ ترجمة رقم ٨١٩٠ وتهذيب الكمال ٢٨/٤٥٨ وسير أعلام النبلاء ٣/٤٢٧ وتهذيب التهذيب ١٠/٢٨٧.

من قوله ﷺ: «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه».

٢ ـ السنة النبوية مصدر مستقل، والقرآن الكريم والسنة النبوية أساس الإسلام ومصدره، وهذا واضح من قوله ﷺ «وإن ما حرّم رسول الله كما حرم الله».

٣ ـ الإخبار بأنه سيظهر فى الأمة من ينكر السنة النبوية ويدعو للاكتفاء بالقرآن، وهؤلاء لم يتفقهوا فى الدين، وإنما هم جهلة بالإسلام، ومترفون ومتكبرون، وعلى المسلم أن يحذرهم، وهذا واضح من قوله ﷺ «يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته، يُحَدّث بحديثى، فيقول: بينى وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه».

وأفصل القول فى هذه القضايا، فأقول ـ وبالله تعالى التوفيق ـ:

أولاً: السنة النبوية وحى من الله إلى رسوله:

جاءت آيات قرآنية كثيرة تفيد أن السنة النبوية وحى من الله إلى رسوله، من هذه الآيات[1]:

* قول الله تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾[2].

* وقوله سبحانه: ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾[3].

* وقوله سبحانه: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ**﴾[4].

---

(١) تناولت هذا الموضوع بأوسع مما هنا فى كتابى «المدخل إلى السنة النبوية» ص ٤٧.

(٢) أول سورة النجم.

(٣) سورة النساء الآية ١١٣.

(٤) سورة النساء الآية ١٠٥.

وواضح من هذه الآيات الكريمة أنه ﷺ لا يتكلم إلا بوحى الله إليه، وأن الله تبارك وتعالى أنزل عليه الكتاب والحكمة، أما الكتاب فهو القرآن، وأما الحكمة فهى سنته ﷺ. وأن الله أنزل إليه ﷺ القرآن ليحكم بين الناس، لكنه لا يحكم بالقرآن بفهمه فقط، وإنما «بما أراك الله» فالله قد علّمه وبين له، وهو ﷺ إنما يطبق القرآن حسبما أراه الله وعلمه.

وكل هذا يوضح بجلاء أن السنة النبوية إنما هى من وحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ.

وأيضًا جاءت أحاديث نبوية تفيد أن السنة النبوية وحى من الله إلى رسوله ﷺ، من هذه الأحاديث:

* حديث المقدام بن معدى كرب الذى نحن بصدده، وفيه يقول ﷺ: «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه...» الحديث. وقد تقدم فى أول هذا المبحث.

* وحديث عبيد بن نضلة قال: قيل لرسول الله ﷺ فى عام سَنَة[1] سَعِّر لنا[2] يا رسول الله. قال: لا يسألنى الله عن سُنَّة أحدثتها فيكم لم يأمرنى بها، ولكن اسألوا الله من فضله»[3].

تأمل قوله ﷺ: «لا يسألنى الله عن سُنَّة أحدثتها فيكم لم يأمرنى بها» تجد أنه يدل على أنه ﷺ لا يُحْدِثُ أىَّ سُنَّةٍ، وإنما يبلغ عن الله تعالى ما أمره به سبحانه وتعالى، مما يدل على أن السُّنَّة إنما تأتيه بوحى من الله تعالى.

---

(١) أى عام جدب.

(٢) أى ضع ثمنًا لكل سلعة، لا يجوز للباعة تجاوزه.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير بإسناد رجاله ثقات، سوى بكر بن سهل الدمياطى فإنه ضعفه النسائى، ووثقه غيره. كذا فى مجمع الزوائد ٤/ ١٠٠ وهو حديث مرسل لكنه مروى عن أنس عند أبى داود والترمذى وابن ماجه وأحمد. راجع المدخل ص ٥٣.

وغير هذين أحاديث كثيرة[١].

ومن هذه الآيات وهذه الأحاديث يتضح أن السنة النبوية إنما هى من وحى الله تبارك وتعالى إلى رسوله ﷺ، وسلف الأمة وخلفها على هذا.

فها هو سعد بن معاذ الصحابى الجليل يقول: ثلاث أنا فيهن رجل كما ينبغى[٢]، وما سوى ذلك فأنا رجل من الناس:

* ما سمعت من رسول الله ﷺ حديثا قط إلا علمت أنه حق من الله.

* ولا كنت فى صلاة قط فَشَغَلْتُ نفسى بغيرها حتى أقضيها.

* ولا كنت فى جنازة قط فحدَّثْتُ نفسى بغير ما تقول ويقال لها حتى أنصرف عنها[٣].

تأمل الخصلة الأولى: إنه يؤمن أن كل ما يسمعه من رسول الله فإنما هو حق من الله تعالى.

* وها هو عبد الله بن المبارك[٤] يقول: كان جبريل إذا نزل بالقرآن على النبى ﷺ يأخذه كالغشوة، فيلقيه على قلبه فيسرى عنه، وقد حفظه فيقرؤه، وأما السنن فكان يعلمه جبريل ويشافهه به[٥].

والحمد لله إلى الآن الأمة مجمعة على أن سنة رسول الله ﷺ حق

---

(١) راجع «المدخل إلى السنة النبوية» فقد وفيت هذا الموضوع حقه هناك ص ٥٢، وراجع الفقيه والمتفقه ١/ ٢٦٦ فلقد ذكر فى ذلك أربعة آراء كلها تعود إلى هذا الرأى.

(٢) أى كامل الرجولة، أفوق غيرى فيها.

(٣) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ٢/ ١١٩٧ ـ ١١٩٨ رقم ٢٣٥٨ وفى الاستيعاب فى ترجمة سعد ٢/ ٦٠٥ مسندًا.

(٤) أحد أئمة الأمة، توفى ١٨١هـ.

(٥) أخرجه المروزى فى السنة ص ٣٤ رقم ١١٢.

جاءه من عند الله تعالى، فهو رسول الله، علمه الله وأوحى إليه، فيتكلم بوحى، ويراقبه الوحى، بل والوحى يراقب الأمة ويُقَوِّمُها، والأمة الإسلامية على طول تاريخها معصومة من الاجتماع على باطل، فلا يجتمع رأيها إلا على الحق والصدق.

وهكذا فقوله ﷺ فى هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه» هذه الجملة تفيد أن السنة النبوية وحى من الله تعالى إلى رسوله ﷺ، وهذا المعنى جاءت به آيات قرآنية عديدة، وأحاديث نبوية كثيرة، وعليه سلف الأمة وخلفها.

ثانياً: السنة النبوية مصدر مستقل:

وفى قوله ﷺ: «وإن ما حَرّم رسولُ الله ﷺ كما حرم الله» فى هذا القدر من هذا الحديث دليل على أن السنة النبوية مصدر كامل للأمر من أمور الإسلام، تستقل بالأمر، بأن يأتى فيها استقلالاً، فهو من الإسلام، أو توضح الأمر من القرآن الكريم، فهذا البيان أيضًا من الإسلام، والأمة ملزمة بكل ذلك.

إن قوله ﷺ هنا «وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله» وقوله «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه» هاتان الجملتان من هذا الحديث تفيدان أن السنة النبوية وحى من الله إلى رسوله، وأنها قد تستقل بالأمر من أمور الإسلام تفيده، وما دام الأمر وحيًا، فواجب علينا أن نتبعه، وأن نعمل به.

إن قوله ﷺ: «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه» وما معه من آيات وأحاديث كاف لإفادة أن ما جاءت به السنة يجب العمل به، فَفُهِم من هذا أن السنة قد تستقل بالأمر، وأنه يصبح لازما على الأمة أن تتبعه، (٩)

إلا أنه هنا لما كان المجال مجال تحريم قال ﷺ «وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله» ففصَّل ﷺ شيئًا من العام، فما دام قد أوتى السنة وحيًا من الله تعالى فإنه يجب العمل بها، ثم فصل شيئًا من ذلك وهو أنه يصبح ما حرم رسول الله كما حرم الله.

أمور استقلت بها السنة:

ولقد أخذت الأمة من السنة النبوية أمورًا عقدية، مثل شفاعة رسول الله ﷺ لأهل الكبائر من أمته، وجميع معجزاته ﷺ سوى القرآن، والإيمان بعذاب القبر، والإيمان بالميزان، وبالصراط، وبالقضاء والقدر... إلخ[1].

هذه الأمور العقدية وغيرها قد جاءت فى السنة، وتلقتها الأمة عن رسول الله ﷺ.

وأخذت الأمة من السنة أيضًا أمورًا تشريعية، مثل: تحريم كل ذى ناب من السباع، وكل ذى مخلب من الطيور، والحمر الأهلية ـ مما جاء تحريمها فى الحديث الذى معنا والأحاديث التى فى موضوعه[2] ـ وحل ميتة السمك والجراد، وحل الكبد والطحال، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والعكس، وبين المرأة وخالتها، والعكس[3].

هذه الأمور التشريعية، والتى تسمى بـ «الأحكام الشرعية» قد تلقتها الأمة من السنة النبوية، وعملت بها على طول تاريخها، إيمانًا منها بأن السنة مصدر أصيل من مصادر الإسلام، يأتى الأمر من الله تعالى إلى رسوله ﷺ فيعمل به، ويعلمه الأمة، وتعمل به الأمة، لأنها مأمورة باتباع رسول الله ﷺ وبطاعته:

(١) راجع المدخل إلى السنة النبوية ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.
(٢) سيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.
(٣) راجع «السنة النبوية: مكانتها وعوامل بقائها وتدوينها» ص ٤٤ أوجه بيان السنة للكتاب.



يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١).

ففى قول الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ، أمر لنا من رب العزة جل جلاله باتباع رسول الله ﷺ، وتبيين بأن ذلك طريق الهداية، كما جاء فى آية أخرى وهى:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (٢).

ويقول سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٣).

لقد فقهت الأمة هذه الآيات وما فى موضوعها(٤)، فأدركت أن عليها أن تعمل بما جاء فى القرآن الكريم، وبما جاء فى السنة النبوية، فالتزمت بالمصدرين ـ القرآن والسنة ـ علمًا وعملاً، مدركة أن هذا هو الإسلام.

*** العلاقة بين القرآن والسنة:**

إن الأمر يأتى مجملاً فى القرآن الكريم فتبينه السنة النبوية، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٥) هكذا أمر مجمل فجاءت الأحاديث وفصلت ووضحت وبينت، وبكل وضوح ودقة

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٨.
(٢) سورة النور الآية ٥٤.
(٣) سورة النور الآية ٥٦.
(٤) راجع المدخل إلى السنة ص ٧٧ فما بعدها.
(٥) سورة البقرة الآية ٤٣.

صلى رسول الله ﷺ وقال: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»[١].

ووضح ﷺ الزكاة، وأنها تجب فى كذا وكذا من الأموال، وبين النصاب أو القدر الذى إذا بلغه المال وجبت فيه الزكاة، وبيّن القدر الذى يجب أن يخرجه صاحب المال.

ومثل الصلاة والزكاة غيرهما من الصيام والحج، وبقية العبادات، وكذلك المعاملات، والنكاح والرضاع، والميراث . . إلخ.

كل ذلك يأتى الأمر مجملاً فى القرآن الكريم فتوضحه السنة النبوية.

* ويأتى الأمر فى القرآن مطلقًا أو عامًا فتقيده السنة النبوية أو تخصصه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[٢]. فجاءت الأحاديث النبوية، وبينت السارق بأنه الذى يسرق ربع دينار[٣] من حرز المثل[٤]، وبينت الأحاديث القطع بأنه يكون من الكوع أى المفصل الذى يلى الكف، وبينت أنه تقطع اليمنى أولاً.

* ويأتى الأمر فى القرآن الكريم محتاجًا إلى توضيح فتوضحه السنة النبوية: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾[٥] احتار الصحابة فى فهم هذه الآية قائلين: أينا لم يظلم نفسه؟ فسألوا رسول الله ﷺ ففسر لهم «الظلم» بأنه الشرك. كما فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[٦].

---

(١) أخرجه البخارى فى الأذان باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة ٢/ ١١١ رقم ٦٣١.
(٢) سورة المائدة الآية ٣٨.
(٣) الدينار= ٢٦٠ جنيه مصرى.
(٤) أى أن يكون المال محفوظًا بطريقة جرت العادة أن يحفظ بها، أما لو أهمل صاحبه فى الحفاظ عليه فأخذه آخذ فإنه لا تقطع يده.
(٥) سورة الأنعام الآية ٨٢.
(٦) سورة لقمان الآية ١٣.

وهكذا فالسنة النبوية مع القرآن الكريم هما مصدر الإسلام وأساسه، يؤخذ الحكم أحيانًا من القرآن الكريم.

وأحيانًا من السنة النبوية.

وأحيانًا من القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومن هنا قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ (١) إن هذه الآية صريحة فى أننا سيعلمنا رسولُ الله ﷺ الكتاب والحكمة.

أما «الكتاب» فهو القرآن الكريم. وأما «الحكمة» فهى السنة النبوية.

إن الأمة سيعلمها رسولُ الله ﷺ أمرين، هما القرآن والسنة، وعليه فالحكم يؤخذ منهما، ولنتفقه فيهما، ولنعمل بهما.

إن هذه الآية نص صريح فى أن أساس الإسلام القرآن والسنة، ولا يمكن أن يستغنى بأحدهما عن الآخر، فلا يمكن أن يؤخذ الإسلام من القرآن وحده، أبدًا، هذا لا يمكن أن يحدث، فلا يمكن أن نصلى بناء على أوامر القرآن الكريم وحده، وإنما السنة هى التى بينت أن الصبح ركعتان، والظهر أربع ركعات، وهكذا.

وأيضًا بينت السنة أن الركعة مكونة من: قراءة الفاتحة، وركوع باطمئنان، ورفع واعتدال، وسجود باطمئنان، وجلوس باطمئنان، وسجود باطمئنان ونصَّت على التشهد، وأين يكون، وبينت أذكار الركوع، والرفع، والسجود، والجلوس.

إن المتأمل لهذا يتضح له جليًا بأن السنة مع القرآن هما أساس الإسلام

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٤.

ومصدره، كما قال ﷺ: «إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة نبيه»[١].

ثالثا: الإخبار بظهور منكرى السنة:

وفى هذا الحديث يخبرنا رسول الله ﷺ بأنه سيظهر فى الأمة من ينكر السنة النبوية!!

فيقول ﷺ فى الحديث الذى نحن بصدد شرحه: «يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته، يُحَدَّث بحديثى فيقول بينى وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه».

وفى حديث آخر: «لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمَرتُ به، أو نهيت عنه، فيقول لا ندرى، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه»[٢].

ومعنى «لا ألفين» لا أجدن، أى لا أجدن أحدكم متكئًا على أريكته يكذب بأحاديثى، أى أنه لا يصح أن يحدث هذا منكم.

وهذان الحديثان ـ حديث المقدام بن معدى كرب، وحديث أبى رافع ـ أخرجهما البيهقى فى دلائل النبوة[٣] جماع أبواب إخبار النبى ﷺ بالكوائن بعده، باب ما جاء فى إخباره بشبعان على أريكته، يحتال فى

(١) أخرجه الحاكم فى العلم باب خطبته ﷺ فى حجة الوداع ١/ ٩٣. وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى فى آداب القاضى باب ما يقضى به القاضى ١٠/ ١١٤ وله شاهدان عن أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى، أخرجهما الخطيب فى الفقيه ١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥ وتخريجهما فيه.

(٢) أخرجه أبو داود فى السنة باب فى لزوم السنة ١٢/ ٣٥٦ عن أبى رافع مولى النبى ﷺ والترمذى فى العلم باب ما نهى عنه أنه يقال عند حديث رسول الله ﷺ ٧/ ٤٢٤ وقال: هذا حديث حسن.

(٣) جـ ٦ ص ٥٤٩.

رد سنته بالحوالة على ما فى القرآن من الحلال والحرام دون السنة، فكان كما أخبر، وبه ابتدع من ابتدع، وظهر الضرر. اهـ.

إنه ﷺ يحذر من هذه الحال، حال أن يظهر فى الأمة من ينكر السنة وحجيتها، وأنها مصدر من مصادر الإسلام.

*** سبب إنكارهم السنة:**

ويعلل ﷺ تركهم السنة بأمور:

أحدها: الجهل بالإسلام: فيقول ﷺ «يوشك رجل شبعان» وهذا يفيد الجهل، ذلك أن الشبع ينتج عنه البلادة وسوء الفهم، إنهم مترفون، ماديون، هَمُّهُم الماديات، ومن هنا فلا اهتمام لهم بالدين ولا بدراسته، إن الواحد منهم شبعان، يهمه الشبع كثيرًا، وتهمه شهواته قبل كل شىء، ومثل هؤلاء لا يريدون الامتثال لدين الله، ولا الانضباط على مكارم الأخلاق، إن العلم يورث أهله الاستقامة والاتزان، أما الجهل فإنه بمنأى عن ذلك، إنه يجعل هدف أهله الشهوات، بل الغلو فى الشهوات.

ذم الشبع: إن رسول الله ﷺ ذكر أن منكر السنة «شبعان» وقد ورد النهى عن الشبع فى القرآن الكريم فى قول الله سبحانه: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [1].

فأباح سبحانه وتعالى الأكل والشرب، لكنه نهى عن الإسراف، وبين سبحانه أنه لا يحب المسرفين، وورد ذمه فى السنة، فرسول الله ﷺ قال: «ما ملأ آدمى وعاء شرًا من بطنه، بحسب[2] ابن آدم أُكُلات[3] يُقِمْنَ

(١) سورة الأعراف الآية ٣١.
(٢) يعنى: يكفى.
(٣) فى رواية «لقيمات».

صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لَنَفَسه»[١].

ومن كلام السلف: «البِطْنة تُذْهب الفطنة»[٢].

إن الشبع بريد الشر، وقرين الهلاك، ذم الله المترفين المنعمين فقال سبحانه: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[٣].

وبيّن رسول الله ﷺ أن أهل الشبع هم شرار الأمة، فقال ﷺ «شرار أمتى الذين ولدوا فى النعيم وغُذُّوا به، همتهم ألوان الطعام وألوان الثياب، يتشدقون فى الكلام»[٤].

ومدح ﷺ من ابتعد عن الشبع، ورضى بالقليل، فقال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا[٥]، وقنّعه الله بما آتاه»[٦].

إن أهل الشبع ليسوا طلاب حق، وليسوا طلاب علم، ومن هنا ابتعدوا عن السنة، نسأل الله العافية.

ثانيها: الكبر وقسوة القلب: هذا هو السبب الثانى من أسباب إنكار البعض السنة النبوية، وقد وضح هذا من قوله ﷺ «متكئًا على أريكته» إنه يجلس على الفرش الناعمة، وهذا شأن المتكبرين، ويتكئ على هذه

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ٧/ ٥١ وقال : حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه وأحمد والحاكم وصححه الحاكم.

(٢) مروى عن عمرو بن العاص وغيره من الصحابة راجع المقاصد الحسنة ص ١٤٥ رقم ٢٩٥.

(٣) سورة الواقعة الآية ٤١ ـ ٤٥.

(٤) أخرجه ابن المبارك فى الزهد ص ٢٦٢ رقم ٧٥٨ وهناد ٢/ ٣٦٣ رقم ٦٩٢. ووكيع ١٦٨ وأبو نعيم فى الحلية ٦/ ١٢٠ وهو حديث حسن.

(٥) أى بمقدار حاجته.

(٦) أخرجه مسلم فى الزكاة باب فى الكفاف ٢/ ٧٣٠ رقم ١٠٥٤.

الفرش، وهذا ديدن المتعالين، لا يطلب الحق ولا يبحث عنه، ولو قُدِّم إليه ازدراه ولم يقبله، ومن هنا يُحَدِّثُه الناس بحديث رسول الله ﷺ فلا يقبل ولا يستجيب.

إنه يَدّعى اتباعه القرآن، والقرآن يأمر باتباع السنة النبوية ويحذر من مخالفتها، يقول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾ (١) إن الله تبارك وتعالى يأمرنا فى هاتين الآيتين باتباعه ﷺ، ويبين أن العمل بهديه ﷺ طريق حب الله ومغفرته. وتوجب الآية الثانية طاعة الله ورسوله، وأن من تولى ـ أعرض ـ فإنه يخرج من الملة ويصبح فى عداد الكافرين، والله لا يحب الكافرين.

إن منكر السنة إنسان يحتاج لمراجعة أحوال قلبه، فإن الله تبارك وتعالى أمرنا بالاقتداء برسوله ﷺ، وبين سبحانه أنه إنما يقتدى برسوله المسلمون الصالحون، الحريصون على رضوان الله، الذين يستعدون للقاء الله، الذاكرون الله كثيرًا، يقول سبحانه: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ (٢) هكذا إنما يقتدى به ﷺ من كان يرجو الله، أى يرجو رضوانه سبحانه ويرجو اليوم الآخر، أى يستعد للحساب، وذكر الله كثيرًا.

ويفهم من هذا أن أصحاب القلوب القاسية، الذين لا يحرصون على رضوان الله، ولا يستعدون للوقوف بين يدى الله للحساب، ولا يذكرون الله كثيرًا، هؤلاء لا يقتدون به ﷺ ولا يعملون بسنته، وإنما يتنكرون لها.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣١ ـ ٣٢.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

إن منكر السنة جمع بين هاتين الصفتين:

١ ـ الجهل بالإسلام، وبأصوله، ومصادره.

٢ ـ الكبر وقسوة القلب.

وهاتان الصفتان إذا اجتمعتا أهلكتا صاحبهما، فالجهل يعميه، والكبر يطغيه، فلا هو بالعالم الذى يهذبه علمه ويهديه، ولا هو بالمتواضع الرقيق القلب الذى يبحث عن الحق وينشده.

وعلى مر التاريخ نلاحظ هاتين الصفتين فى منكرى السنة، حتى إن وصف منكرى السنة بهاتين الصفتين فى حد ذاته معجزة وعَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ.

لقد جاءت آيات تبين أن عمى القلب يمنع من العمل بالقرآن والسنة، قال تعالى: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ [(١)].

وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ**﴾ [(٢)].

أبانت هذه الآية أن الذين فى قلوبهم زيغ، أى نفاق يتبعون متشابه القرآن، ليفتنوا الناس فى دينهم، ويصرفوهم عن الحق.

وجاء الحديث الذى معنا مطابقًا لهذه الآيات، وأن من الناس من قسا

---

(١) سورة الأنعام الآية ٣٣.

(٢) سورة آل عمران الآية ٧.

قلبه من الكبر، وكره الباطل لجهله، فراح يدعو لترك سنة رسول الله ﷺ.

وآيات كثيرة وأحاديث عديدة تتكلم عن أصحاب القلوب المريضة، وأنهم يَضِلُّون ويُضِلّون[١].

وآيات كثيرة وأحاديث عديدة تتكلم عن أصحاب القلوب السليمة، وأنهم أهل طاعة الله، والعمل بالكتاب والسنة.

ولقد جمع هذين النوعين قول الله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾[٢].

وقوله سبحانه: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا**﴾[٣].

إن القرآن يتلى فيكون سبب هداية وتقى، ويكون شفاء ورحمة، كل ذلك للمؤمنين، أما أصحاب القلوب المريضة فإنهم يزيدون بسماعه فى عتوهم وضلالهم، ولا يزدادون به إلا خسارًا.

وقال ﷺ: «إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعًا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم[٤]»، فيبقى ناس جهال يُسْتَفْتَوْنَ

---

(١) راجع كتابى «دفع الشبهات عن السنة النبوية» من ص ١٢ إلى ص ٣٧.

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٣) سورة الإسراء الآية ٨٢.

(٤) فى رواية أخرى: «ولكن يقبض العلم بقبض العلماء» وهذه الرواية عند البخارى ومسلم فى التخريج الآتى.

فيُفْتُون برأيهم فيَضِلّون ويُضلون»[١].

وقال ﷺ: «الكبر بَطَرُ الحق وغَمْط الناس»[٢] والمعنى: إن الكبر هو تضييع الحق وإنكاره. من ذهب دم فلان بطرا، أى ضاع، فالكبر بطر الحق أى تضييع الحق، ويشمل تضييع أوامر الله ونواهيه، والكبر أيضًا «غمط الناس» أى احتقارهم وإعابتهم.

لقد أبان هذا الحديث الشريف السبب فى عداء البعض للسنة النبوية، وأبانت الآيات والأحاديث معه أن من الناس من فى قلبه مرض من نفاق وكبر وضلال وكفر، وهؤلاء يحرصون على البعد عن الكتاب والسنة، ويحاولون صرف الناس عنهما بكل حيلة.

ومن الناس من استبد به الجهل، وأضله الهوى، فراح أيضًا يعادى السنة، ويحاول صرف الناس عنها.

الإسلام أقوى من كيد أعدائه:

وإذا كانت هذه الطوائف من الكفرة والمنافقين وأصحاب الأهواء إذا كانوا يكيدون للإسلام، فالإسلام دين الله الحق، لا تؤثر فيه مكائد أعدائه، ولا تنال منه مؤامرات خصومه. ولقد بين ربنا ذلك فى كثير من آيات القرآن الكريم.

* فقال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ**

(١) أخرجه البخارى فى الاعتصام بالكتاب والسنة باب ما يذكر من ذم الرأى ١٣/ ٢٨٢ رقم ٧٣٠٧ وهو عنده فى العلم ١/ ١٩٤ رقم ١٠٠ وعند مسلم رقم ٢٦٧٣ من أكثر من طريق.

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان باب تحريم الكبر ١/ ٩٣ رقم ١٤٧/ ٩١.

جَميعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١).

* وقال سبحانه: **﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾** (٢).

ففى هذه الآيات يبين سبحانه أن كيد الكفر لن يحقق أهدافهم، والله ناصر دينه.

* ويقول سبحانه: **﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** (٣).

* ويقول سبحانه: **﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾** (٤).

ففى هاتين الآيتين نص على نصر الله عباده وأهل دينه الإسلام.

وهكذا تبين مجموعة الآيات الأولى ضحالة كيد الكافرين.

وتبين مجموعة الآيات الثانية نصر الله الإسلام والمسلمين.

مما معه يتضح أن الإسلام لا يؤثر فيه كيد أعدائه، وإنما سيظل قويًا، تقوم به حجة الله على خلقه، فمن كان من أهل العقل وسداد الفطرة اعتز بالإسلام واهتدى به. ومن كان من أهل الهوى واعتلال الفطرة فإنه لن يضر إلا نفسه.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) سورة غافر الآية ٢٥.

(٣) سورة الروم الآية ٤٧.

(٤) سورة غافر الآية ٥١.

رابعًا: الرسول ﷺ يرد على أقوى شبهة لهم:

إن أقوى شبهة يثيرها أعداء الإسلام ضد السنة هى: ادِّعاؤهم أن القرآن الكريم يستغنى به عن السنة.

ولقد ذكر رسول الله ﷺ فى الحديث الذى معنا هذه الشبهة بالذات، بأسلوب غاية فى الإيجاز:

يقول ﷺ «يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته، يُحَدَّثُ بحديثى فيقول بينى وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه».

هذه شبهة أعداء الإسلام، أعداء السنة، يريدون الاكتفاء بالقرآن الكريم وترك السنة النبوية.

إنه ﷺ يخبر بهذه الشبهة قبل وقوعها، وهذا من أعلام نبوته ﷺ، فلقد ظهرت وتحققت، فأعداء السنة فى كثير من البلاد يستشكلون بهذا.

ولقد تولى ﷺ دفع هذه الشبهة بأسلوب غاية فى الإيجاز أيضًا:

يقول ﷺ: «وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله» إن مقتضى أنه رسول الله أنه يُحل ما أحل الله، ويُحرم ما حرّم الله، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا** [١] **قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ** [٢] **مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [٣].

والمعنى: إذا سألك المشركون عن أمر فانتظرت الوحى قالوا لك قل فيه آية من عندك، فأمره الله أن يجيبهم بأنه إنما يتبع ما يوحيه الله إليه، ولا

---

(١) أى هلا قلتها من عند نفسك، واخترتها من معلوماتك «اجتبى» معناها: اختار.

(٢) جمع بصيرة، وهى الحجة والبيان.

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠٣.

يقول شيئًا من قِبَل نفسه، إن وحى الله حجج عليكم وبيان لكم، إنه هدى الله ورحمته للمؤمنين[(١)].

إن رسول الله ﷺ ضرب مثلاً من شبههم، وأجاب عليها، ليعلمنا أنهم سيثيرون الشبه،وأن من الواجب على الأمة أن ترد هذه الشبه، وبدأ ﷺ فأجاب.

الشبهة والرد عليها بشىء من التفصيل:

إنهم يقولون إن القرآن الكريم كاف واف، ويستدلون على ذلك:

* بقول الله تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ**﴾ [(٢)].

* وقوله سبحانه: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ**﴾ [(٣)].

إنهم يرون أن القرآن يُسْتَغْنَى به عن السنة النبوية، فإنه قد حوى كل شىء.

إنهم كما أخبر ﷺ عنهم فى هذا الحديث يقولون بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرمناه. إنهم يتظاهرون بأنهم يريدون القرآن ولا يريدون السنة، فإذا سمع أحدهم الحديث عن رسول الله ﷺ رفضه. يرون أن رسول الله ﷺ كانت مهمته تبليغ القرآن فقط، وليس له غير ذلك، والمطلع على كتبهم يتضح له أنهم لا يريدون القرآن ولا السنة، ولكنهم لا يجهرون بهذا حتى لا ترفضهم الأمة.

---

(١) راجع تفسير الطبرى ٩/ ١٦٠ ـ ١٦٢.

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٨.

(٣) سورة النحل الآية ٨٩.

والرد عليهم:

أما استدلالكم بقول الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ وأنه يدل على أن القرآن قد حوى كل شىء، فهذا قول غير مُسَلَّم لكم، ذلك أن الآية كاملة: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (١) وواضح من هذا أن «الكتاب» فى هذه الآية لو كان معناه القرآن، لكان القرآن مشتملاً على شئون جميع المخلوقات، ومقدراتها، وأرزاقها، ولما لم يكن القرآن مشتملاً على ذلك ثبت أن المراد بالكتاب فى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ إنما هو اللوح المحفوظ، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٢).

وأما استدلالكم بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فأتساءل معكم ما معنى «لكل شىء» هل «كل» هنا على إطلاقها؟ بدهى لا، فلو كان على إطلاقه لبيّن القرآن كُل شىء، وبالتالى ما فكر مفكر. وبالتالى فلم يبق إلا تخصيص هذا العموم، وأنه تبيان لكل شىء من أمور الدين.

ثم أتساءل: قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ (٣)، وقال سبحانه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ (٤).

فهل بيّن القرآن الكريم عدد الصلوات المفروضة؟

---

(١) سورة الأنعام الآية ٣٨.

(٢) سورة هود الآية ٦.

(٣) سورة البقرة آية ٤٣.

(٤) سورة البقرة آية ٢٣٨.

وهل بين القرآن الكريم كيفية الصلاة؟

وهل بين القرآن الكريم كيفية صلاة الجماعة؟

إن كل ذلك لم يكن.

وأتساءل:

قال الله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (١).

فهل بين القرآن الكريم الأموال التى تجب فيها الزكاة؟

وهل بين القرآن الكريم المدة التى تجب فيها الزكاة؟

وهل بين القرآن الكريم المقدار من المال الذى تجب فيه الزكاة «النصاب»؟

وهل بين القرآن الكريم المقدار الذى يجب أن يخرجه صاحب المال؟

إن كل ذلك لم يكن، وبالتالى فاستدلالكم بالآية على أن القرآن الكريم قد حوى كل أمور الدين استدلال لا يصح.

إن الله تبارك وتعالى نزل على رسوله الكتاب تبيانًا لكل شىء بما فيه وبما حواه من علوم بينت وفصلت، وأمر سبحانه وتعالى فى كتابه باتباع هذه العلوم، فصار القرآن بذلك أى بما حواه من كليات وأصول الإسلام، وبما أمر به من علوم، صار بذلك مبينًا كل شىء من أمور الدين.

لقد أمر القرآن الكريم باتباع السنة النبوية، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (٢) أى وما أمركم به الرسول فاقبلوه، وما نهاكم عنه فاتركوه(٣).

---

(١) سورة البقرة آية ٤٣.

(٢) سورة الحشر آية ٧.

(٣) راجع كتاب «المدخل إلى السنة النبوية» ص ٧٧ ففيه توسع.

وأمرنا الله فى القرآن الكريم بالعمل بالإجماع، فقال تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ (١) فمن اتبع غير طريق المؤمنين فله جهنم، فما أجمع المؤمنون عليه فهو الحق.

وأمرنا الله فى القرآن بالقياس فقال: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ (٢).

إن القرآن الكريم قد حوى الكثير من أمور الدين، وأمر باتباع السنة النبوية، والإجماع والقياس علوم تقتبس من الكتاب والسنة، فصار القرآن بما فيه، وبما أمر به من علوم صار بيانًا لكل أمور الإسلام.

على هذا تسير أمة الإسلام على مدى تاريخها. وإنكار البعض السنة النبوية، إنما هو فى حقيقة الأمر إنكار للقرآن الكريم، فإن القرآن الكريم أمرنا الله تبارك وتعالى فيه باتباع رسوله ﷺ، فالعمل بالسنة إنما هو عمل بالقرآن الكريم.

ورسول الله ﷺ يؤكد هذا، وأن ما حرّمه ﷺ فإنما هو حرام، لأنه ﷺ رسول الله، فهو المبلغ عن الله سبحانه وتعالى، أراه الله وعلمه، وبين سبحانه وتعالى له أمور الإسلام وفصله، فما أمر به فعن الله أمر، وبما أراه الله تكلم، وبما علمه الله علم.

يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**﴾ (٣).

إن المتأمل لقول الله تعالى لرسوله ﷺ «بما أراك الله» يتضح له أن الله

---

(١) سورة النساء آية ١١٥.
(٢) سورة الحشر آية ٢.
(٣) سورة النساء آية ١٠٥.

علم رسوله الكثير والكثير، وهو ﷺ قد بلّغ الأمة وعلمها، وسنته ﷺ بيننا تقوم مقامه ﷺ.

ويقول سبحانه: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ (١).

إن الله سبحانه يحث الأمة فى هذه الآية حثًا قويًا على اتباعه ﷺ، حتى إنه سبحانه ينفى الإيمان عمن لا يقبل حكمه ﷺ بنفس راضية، فجعل سبحانه لنبيه أن يحكم، وأن يقضى، مما يدل على أنه فى طاقته أن يبين للأمة الحرام والحلال، كما جاء فى الحديث الذى نحن بصدد شرحه «وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله»(٢).

خامسًا: الجانب الفقهى فى الحديث:

وألاحظ فى حديث المقدام بن معدى كرب الذى أشرحه هنا، أن المقدام لم يركز على الجانب الفقهى بمقدار ما ركز على الجانب التأصيلى، جانب وجوب العمل بالسنة، وأن ما حرّم رسول الله فإنه حرام، يجب علينا أن نقبله.

وأيضًا فى حديث أبى رافع ألاحظ أن أبا رافع ركز على الجانب التأصيلى فى هذا الحديث.

ولقد أعطيت جانب التأصيل قدرًا من الاهتمام، وأحلت على مواضع أخرى تُوَفِّيه حقه.

أما الجانب الفقهى فهو قول المقدام «حرم النبى ﷺ أشياء يوم خيبر

---

(١) سورة النساء آية ٦٥.

(٢) راجع هذه الشبهة والرد عليها فى كتابى «دفع الشبهات عن السنة النبوية» ص ٣٨ ـ ٤٥.

منها الحمار الأهلى وغيره» وقد تقدم فى نص الحديث الذى نشرحه.

وفى رواية أبى داود «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السَّبُع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغنى عنها صاحبُها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه، فإن لم يَقْرُوه فَله أن يَعْقُبهم بمثل قراه»[1].

إن هذه الأحكام التى بينها رسول الله ﷺ فى هذا الحديث إنما هى نماذج لما ثبت بالسنة النبوية، وليس له ذكر فى القرآن الكريم، مما يبين أن السنة النبوية قد تستقل بالأحكام.

*** نماذج من استقلال السنة:**

فبعد أن بيّن ﷺ أن الله تبارك وتعالى آتاه القرآن ومثله معه، وبيّن أيضًا أن ما جاء فى السنة فواجب أن يعمل به، بعد أن بين ﷺ هذين الأصلين ذكر نماذج مما استقلت به السنة من أمور فى الإسلام، فذكر ما يلى:

١ـ تحريم الحمر الأهلية:

فذكر ﷺ أن لحوم الحمر الأهلية لا يحل أكلها، بل بين أنها نجسة، وأن القدور تغسل منها.

إن لحوم الحمر الأهلية لم يرد تحريمُها فى القرآن الكريم، وإنما استقلت السنة بالنص على تحريمها، سواء بحديث المقدام الذى نحن بصدد شرحه، أم بأحاديث أخرى كثيرة، منها:

---

(١) أخرجه أبو داود فى السنة باب فى لزوم السنة ١٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٦.

* حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ جاءه جاءٍ فقال: أُكلت الحُمُر، ثم جاءه جاءٍ فقال: أُكلت الحُمُر، ثم جاءه جاءٍ فقال: أُفْنِيت الحمر، فأمر مناديًا فنادى فى الناس، إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجس، فَأُكْفِئت القدور، وإنها لتفور باللحم»[١].

* وحديث أبى ثعلبة الخشنى قال «حَرّم رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية»[٢].

* وحديث عبد الله بن عمر «نهى النبى ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر»[٣].

وغير هذه أحاديث كثيرة فى تحريم لحوم الحمر الأهلية، والأمة على هذا سلفًا وخلفًا، تعمل بتحريم الحمر، إيمانًا بأن السنة قد نصت على تحريمها.

٢ـ تحريم لحوم كل ذى ناب من السباع:

ومن أمثلة ما استقلت به السنة النبوية من أحكام تحريم لحوم كل ذى ناب من السباع، ففى رواية حديث المقدام عند أبى داود يقول ﷺ «ألا لايحل لكم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السبع».

و«الناب» السنُّ المدبب فى جانبى الفم، ويستعمل للتمزيق، والناب فى السباع طويل، وقوى جدًا.

---

(١) أخرجه البخارى فى الذبائح باب لحوم الحمر الإنسية ٩/ ٦٥٣ رقم ٥٥٢٨ ومسلم فى الصيد باب تحريم أكل لحم الحمر الإنسية ٣/ ١٥٤٠ رقم ٣٥/ ١٩٤٠.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم فى التخريج المتقدم، البخارى رقم ٥٥٢٧، ومسلم رقم ٢٣.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم فى التخريج السابق، البخارى رقم ٥٥٢١ ومسلم رقم ٢٤.

و«السِّبَاع» جمع سَبُع - بضم الباء وسكونها - وهو كل ما له ناب، ويعدو على الناس والدواب فيفترسها، كالأسد، والذئب، والنمر.. إلخ.

وقد جاءت أحاديث كثيرة فى تحريم لحوم السباع، منها:

* حديث أبى ثعلبة الخُشَنِى «أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كل ذى ناب من السباع»(١).

* وحديث عبد الله بن عباس «نهى رسول الله ﷺ عن كل ذى ناب من السباع، وعن كل ذى مخلب من الطير»(٢).

* وحديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «كل ذى ناب من السباع فأكله حرام»(٣).

وهذه الأحاديث تفيد تحريم أكل لحوم السباع، وعلى ذلك الأمة سلفًا وخلفًا، عملاً بسنته ﷺ وإيمانًا بأن ما حرمه رسول الله فإنما هو حرام.

٣- تحريم لحوم كل ذى مخلب من الطير:

ومما استقلت به السنة النبوية، وجاء تحريمه فيها، تحريم لحوم كل ذى مخلب من الطير، حدث هذا فى فتح خيبر، والتى كان حديث المقدام الذى معنا فيها.

و«المِخْلَب» للطير، كالظفر لغيره، لكنه أشد منه وأغلظ وأَحدُّ، فالمخلب للطير كالناب للسبع، أراد ﷺ ما يقطع ويشق بمخلبه

---

(١) أخرجه البخارى فى الذبائح باب أكل كل ذى ناب من السباع ٩/٦٥٧ رقم ٥٥٣٠ ومسلم فى الصيد باب تحريم أكل كل ذى ناب من السباع ٣/١٥٣٣ رقم ١٤ تابع ١٩٣٢.

(٢) أخرجه مسلم فى التخريج السابق رقم ١٦/١٩٣٤ من طرق وأخرجه أبو داود والنسائى.

(٣) أخرجه مسلم فى التخريج السابق رقم ١٥/١٩٣٣، وأخرجه مالك فى الموطأ، والترمذى والنسائى.

كالنسر، والصقر، والشاهين، وقد جاء فى تحريمه:

* حديث ابن عباس «نهى رسول الله ﷺ عن كل ذى ناب من السباع، وعن كل ذى مخلب من الطير»(١).

* وحديث جابر بن عبد الله قال: «حرم رسول الله ﷺ يعنى يوم خيبر الحمر الإنسية، ولحوم البغال، وكل ذى ناب من السباع، وذى مخلب من الطير»(٢).

* وحديث العرباض بن سارية «أن رسول الله ﷺ نهى فى يوم خيبر عن كل ذى ناب من السباع، وعن كل ذى مخلب من الطير، وعن لحوم الحمر الأهلية، وعن المجثمة، وعن الخلية، وأن توطأ الحبالى حتى يضعن ما فى بطونهن»(٣).

ومن هذه النصوص يتضح تحريم أكل لحوم الطيور التى لها مخالب تفترس بها، وهذا مما استقلت به السنة، وعلماء الأمة على تحريم ذلك بناء على أنه قد ثبت بالسنة، فالأمة لا تأكل لحم النسر، ولا لحم الصقر، وهكذا، عملاً بحديث رسول الله ﷺ.

٤ ـ تحريم اللقطة:

ومما استقلت به السنة من أحكام تحريم الانتفاع باللقطة، ففى حديث المقدام الذى نحن بصدد شرحه، لكن رواية أبى داود ما نصه «ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى، وكل ذى ناب من السبع، ولا لقطة معاهد، إلا أن

(١) تقدم قريبًا.

(٢) أخرجه الترمذى فى الصيد باب فى كراهية كل ذى ناب وذى مخلب ٥/٥٣ وقال حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه الترمذى فى الصيد باب ما جاء فى كراهية أكل المصبورة ٥/٤٧.

يستغنى عنها صاحبها» وهذا نص صريح فى تحريم الانتفاع باللقطة.

و«اللُّقَطة» بضم اللام، وفتح القاف. مال يجده الإنسان قد سقط من صاحبه و«المعاهد» ما عاهد المسلمين على العيش معهم فى أمان.

وإنما ذكر رسول الله ﷺ تحريم ما نجده من مال المعاهد، لأنه يفيد تحريم ما نجده من مال المسلم من باب أولى. والمعنى: ولا تحل أيضًا اللقطة، ونص على المعاهد لأنه لو قال: ولا تحل اللقطة. ربما تخيل البعض أن لقطة المسلم تحرم، أما لقطة المعاهد فلا تحرم، فنبه ﷺ إلى أن مال[١] الغير إذا وجدناه فى الطريق فإنه لا يحل لنا أن نأخذه وننفقه فى مصالحنا، وإنما علينا أن نعلن عنه لمدة سنة، فإذا ظهر من يطلبه وأعطى أوصافه أعطيناه له، أما إذا لم يظهر له صاحب، فلينتفع به الملتقط، وهو فى ذِمَّته، إذا ظهر صاحبه أعطاه له إن كان باقيًا، وإلا أعطاه قيمته.

فعن زيد بن خالد الجهنى قال: «سئل رسول الله ﷺ عن اللُّقطة، الذهب أو الوَرِق[٢]، فقال: اعرف وكاءها[٣] وعفاصها[٤]، ثم عَرِّفها سَنَةً، فإن لم تَعْرِف[٥] فاستنفقها[٦]، ولتكن وديعة عندك، فإن جاء طالبها يومًا من الدهر فأدها إليه، وسأله عن ضالة الإبل[٧] فقال: ما لك ولها[٨]، دعها

---

(١) المقصود بالمال هنا ما يَعِزُّ على صاحبه، أما الشىء اليسير كالتمرة، وقطعة حبل فإنه لا يدخل فى ذلك.

(٢) الورق - بفتح الواو وكسر الراء - الفضة.

(٣) الوكاء: ما يربط به الوعاء، كرباط كيس النقود.

(٤) العفاص: الوعاء الذى يكون فيه المال، مثل: الكيس، والمحفظة.

(٥) أى فإن لم تعرف صاحبها.

(٦) أى انتفع بها.

(٧) ضالة الإبل: الناقة أو البعير يجده الإنسان وقد ضاع من صاحبه.

(٨) أى لا شأن لك بها.

فإن معها حذاءها[١] وسقاءها[٢]، ترد الماء، وتأكل الشجر، حتى يجدها ربها[٣] وسأله عن الشاة[٤] فقال: خذها فإنما هى لك أو لأخيك أو للذئب[٥]».

وواضح من هذا أن اللقطة لا يحل الانتفاع بها ابتداء، وإنما يُعَرِّفُها من وجدها لمدة سنة، على أن يحتفظ بصفاتها عندما وجدها، فإن كانت ذهبًا أو فضة، فليعرف كيسها ورباطه، وإن كانت غنمًا فليعرف أوصافها عندما التقطها يحفظ ذلك، ويُشْهد به آخرين، خشية أن ينسى، أما إذا كانت اللقطة من الإبل فلا يأخذها، وإنما ليتركها حتى يجدها صاحبها.

يُعَرِّفها سنة بأن يذكرها فى الأماكن العامة، والتجمعات، يذكر نوعها دون أوصافها، فإذا وجد من يذكر تمام أوصافها سلمها إليه، أما إذا لم يجد من يذكر أوصافها، فلينتفع بها، وهى وديعة عنده، فإذا ظهر صاحبها فى أى وقت فهى له، فإن كانت باقية بعينها دفعها إليه، وإن كانت قد تغيرت فليدفع له قيمتها.

هذا إذا كان المال ذا قيمة ويعز على صاحبه فقده.

أما إذا كان المال يسيرًا، كحبل وعصا، فهذا يعرفه ثلاثة أيام فقط، وذلك لحديث يعلى بن مرة قال قال رسول الله ﷺ «من التقط لقطة يسيرة درهمًا أو حبلاً أو شبه ذلك فليعرفه ثلاثة أيام، فإن كان فوق ذلك فليعرفه سنة»[٦].

---

(١) أى خفها الذى يجعلها تتحمل السير فى أنواع الأراضى، ولمدد طويلة.

(٢) أى أن الإبل تتحمل العطش أكثر من غيرها، فلا يخشى عليها أن تموت من العطش.

(٣) أى صاحبها.

(٤) أى عن الشاة يجدها الإنسان وقد ضاعت من صاحبها.

(٥) أى إنك إن لم تأخذها وقد ضاعت من صاحبها فليس لها إلا أن يفترسها الذئب.

والحديث أخرجه مسلم فى اللقطة ٣/١٣٤٩ رقم ٥ تابع رقم ١٧٢٢، والبخارى رقم ٢٤٢٧.

(٦) أخرجه أحمد ٤/ ١٧٣، وأخرجه أيضًا الطبرانى والبيهقى، وذكره فى نيل الأوطار ٨/ ٨٨.

أما إذا كان المال طعامًا يسيرًا كتمرة فإنه لا يعرفها وإنما يأكلها، وذلك لحديث أنس «أن النبى ﷺ مر بتمرة فى الطريق فقال: لولا أنى أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها»[١].

هكذا وضحت الأحاديث أحكام اللقطة، وهو أمر استقلت به السنة النبوية، وعليه عمل الأمة طوال تاريخها، جعل له المحدثون كتبًا مستقلة فى مصنفاتهم[٢]، وأفرده الفقهاء فى مؤلفاتهم[٣].

لقد اجتهد المحدثون فى جمع أحاديث اللقطة، ودرسوها، ودققوا فى ألفاظها وفقهها. وجاء الفقهاء فاستفادوا بعمل المحدثين وأبرزوا أحكامها، وكل ذلك مما تركه القرآن للسنة، فأبانته السنة بيانًا شافيًا.

٥- حق الضيف:

ومما استقلت به السنة النبوية، حق الضيف، ففى حديث المقدام الذى نحن بصدد شرحه يقول ﷺ: «ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه».

والمعنى: إن مَنْ نزل ضيفًا على قوم فعليهم أن يقوموا نحوه بواجب الضيافة، فله الأكل والمبيت، ولدابته أيضًا أن تأكل، يتكلف له صاحب المكان ما أمكن، وبخاصة فى اليوم الأول، فإذا أراد الانصراف أعطاه ما

---

(١) أخرجه البخارى فى اللقطة باب إذ وجد تمرة فى الطريق ٥/ ٨٦ رقم ٢٤٣١، وهى عنده قبل ذلك فى البيوع باب ما يتنزه من الشبهات ٤/ ٢٩٣ رقم ٢٠٥٥ وأخرجه مسلم فى الزكاة باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ ٢/ ٧٥١ رقم ١٦٤/ ١٠٧١.

(٢) أفرد البخارى فى صحيحه كتابًا لللقطة وهو فى جـ ٥ ص ٧٨ وكذلك مسلم جـ ٣ ص ١٣٤٦ وابن حبان ١١/ ٢٤٨ والبيهقى جـ ٦ ص ١٨٥. والفتح الربانى جـ ١٥ ص ١٥٤، وكنز العمال جـ ١٥ ص ١٨٦.

(٣) معرفة السنن والآثار جـ ٩ ص ٧٥ ونيل الأوطار ٨/ ٨٧ والتلخيص الحبير ٣/ ١٦١.

يكفيه يومًا وليلة، ولا يصح أن يقصر المسلم فى ذلك إذا كان الضيف مضطرًا، كأن يكون فى صحراء، ولا يجد ما يشتريه، أو نفد ماله، فإذا بخل صاحب المكان بذلك، فقد أساء، ويجوز للضيف أن يطالبه بحقه، ولو عند القاضى.

لقد جاءت أحاديث كثيرة تفصل أحكام الضيافة، منها:

* حديث أبى شريح الكعبى أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته، يوم وليلة. والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يَثْوِى عنده حتى يحرجه»[1].

إنه ﷺ يحث صاحب المنزل أن يكرم الضيف فى اليوم الأول بتكلف، ويسمى الجائزة أو التحفة، أما اليوم الثانى والثالث فيأكل الضيف من طعام أهل المنزل.

ويحث ﷺ الضيف أيضًا أن لا يطيل الإقامة حتى يحرج صاحب المنزل.

* وحديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[2].

* وحديث عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «... وإن لزورك عليك حقًا»[3] والزور: الضيف.

إن أحكام الضيافة من الأمور التى تركها القرآن الكريم للسنة النبوية، أشار القرآن الكريم إليها إشارات، كما فى قوله تعالى فى شأن موسى

---

(٤) أخرجه البخارى فى الأدب باب إكرام الضيف ١٠/ ٥٣١ رقم ٦١٣٥.

(٢) أخرجه البخارى فى التخريج السابق رقم ٦١٣٦ ـ ٦١٣٨.

(٣) أخرجه البخارى فى التخريج السابق رقم ٦١٣٤.

عليه السلام والعبد الصالح: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (١).

ومن هنا استقلت السنة بأحكام الضيافة ووضحتها، وجاءت فيها أحاديث كثيرة(٢)، درسها المحدثون، واستنبط منها الفقهاء واعتمدوا عليها فى موضوعها(٣).

إن القرآن الكريم وهو يذكر الضيافة إنما يثبتها لكنه لم يوضح أمرها، وأوحى ربنا سبحانه وتعالى ذلك لرسوله ﷺ، فوجدنا السنة وضحت وفصلت، وعلى ذلك الأمة سلفًا وخلفًا.

٦-١٠- أحكام أخرى:

والجامع لأحاديثه ﷺ فى فترة فتح خيبر يجد فيها أحكامًا أكثر مما سبق، فيجد فيها:

٦ ـ تحريم لحوم البغال.

٧ ـ تحريم لحوم الخُلْسة: وهى الشاة يأخذها الذئب، فيدركه الرجل

---

(١) سورة الكهف آية ٧٧، وكما فى مجىء الملائكة فى صورة رجال ضيوفًا على إبراهيم الخليل كما فى سورة الحجر آية ٥١، والذاريات آية ٢٤. ومجيئهم أيضًا لوطا عليه السلام كما فى سورة هود آية ٧٨ وسورة الحجر آية ٦٨، وسورة القمر آية ٣٧.

(٢) أحاديث الضيافة عند البخارى فى كتاب الأدب ١٠/ ٥٣٠ وعند مسلم فى كتاب اللقطة ٣/ ١٣٥٢ وعند أبى داود فى كتاب الأطعمة باب ما جاء فى الضيافة. وعند الترمذى فى البر والصلة. وعند ابن ماجه فى الأدب باب حق الضيف، وغير هذا كثير.

ولقد جمع البخارى فى كتابه «الأدب المفرد» تسعة أبواب فى الضيافة من باب ٣٠٩ إلى باب ٣١٧.

(٣) راجع المغنى لابن قدامة ١٣/ ٣٥٢.

فيأخذها منه، فتموت قبل أن يذبحها الرجل.

٨ ـ **تحريم لحوم المُجثَّمة:** وهى الحيوان أو الطائر يُثَبِّتُه الصبيان، ويجعلونه هدفًا يتعلمون الصيد فيه، فيموت دون ذبح شرعى.

٩ ـ **تحريم بيع المغنم[1] حتى يقسم، وأيضًا تحريم الانتفاع بشىء منه:** كأن يركب دابة من مال الغنيمة، ثم يردها، أو يلبس ثوبًا فترة ثم يرده.

١٠ ـ **تحريم جماع الجارية من السبى قبل انقضاء عدتها[2].**

ونلاحظ أن هذه الأحكام ـ والتى كانت فى فتح خيبر ـ قد شملت أحكامًا فى:

* الأطعمة، كتحريم لحوم الحمر الأهلية، ولحوم المفترس من الحيوان والطيور، وما مات دون ذبح شرعى.

* الأموال، كتحريم الأخذ من مال الغنيمة حتى تقسم.

* الآداب، كبيان حق الضيف.

* الأنساب، كتحريم وطء الأمة حتى يُسْتَبرأ رحمها.

وهذه الأحكام كلها استقلت بها السنة النبوية، يخبرنا بها ﷺ ويُقعِّد عليها أن السنة وحى من الله إليه، وأنها واجبة الاتباع.

ولقد أدرك الصحابة هذا الهدف لرسول الله ﷺ، وأنه يرسى قواعد فى غاية الأهمية، ولذا نجد فى رواية الحاكم والتى فى أول الشرح نجد أن المقدام لم يُعَرِّج على المحرمات، فلم يستقص فيها، وإنما ذكر شيئًا واحدًا منها، ثم انتقل إلى الأصول التى يريدها رسول الله ﷺ من:

---

(١) المغنم: المال الذى يحصل عليه جيش المسلمين من جيش الكفار، ويسمى أيضًا الغنيمة.

(٢) راجع البداية والنهاية غزوة خيبر سنة سبع جـ ٤ ص ٢١٦.

* بيان أن السنة وحى.

* وأنه يجب العمل بها.

* وأنه سيظهر من ينكرها.

● إنه ﷺ يدعونا إلى العمل بسنته، فإنها من وحى الله إليه.

● ويبين قدرها، وأن الحكم منها كالحكم من القرآن الكريم.

● ويحذرنا ﷺ ممن ينكر السنة، ويدَّعى أنه يريد القرآن الكريم، والقرآن منه براء، فالقرآن يدعو إلى العمل بالسنة.

● ويبين ﷺ أن إنكار السنة إنما هو وليد:

ـ عدم التفقه فى الدين.

ـ الرفاهية والدعة

ـ الكبر والعجب.

وبالجملة فطلاب الدنيا ينكرون سنته ﷺ.

أما الصالحون الخاشعون فإنهم يحبون سنته ﷺ، ويعملون بها، كما قال الله سبحانه: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾** (١).

فبين سبحانه أن على المؤمنين أن يقتدوا به ﷺ، ماداموا يرجون رحمة الله، ويرجون الفوز فى الآخرة، وهم من أهل ذكر الله وطاعته.

(١) سورة الأحزاب آية ٢١.

• وجه إعجاز الحديث:

فى وقت كان الصحابة فى أعلى درجات امتثال سنته ﷺ، يخبر ﷺ أنه سيحدث فى الأمة من ينكر سنته!!

ويصف ﷺ هذا الصنف، ويُعَرِّفُنا بهم، فَيَحْدُثُون كما أخبر، وبالصفات التى أخبر بها ﷺ!!

وهذا يدل على أن السنة من وحى الله إليه، وأن هذا الحديث عَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ، وهذا إجمال أفصله فيما يأتى:

فالناظر فى حياة الأمة يتضح له أن الأمة طول تاريخها تسير على النهج الآتى:

١ ـ التمسك بسنته ﷺ.

٢ ـ معرفتهم أنه ﷺ هو الرسول الذى اصطفاه الله وعلمه، فسألوه، وكل جيل يسأل الذى قبله عما كان عليه ﷺ.

٣ ـ المحافظة على حديثه، فحفظوه، وبلغوه بكل دقة واحترام، واحتاطوا فيه كل الاحتياط. وعملوا به، ورفضوا غيره، رفضوا الرأى والابتداع.

هذه أصول منهج الأمة، وأفصِّل ذلك فيما يلى:

أولاً: التمسك بسنته ﷺ:

* عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال: لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، فإنى أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ[1].

---

(١) أخرجه البخارى فى فرض الخمس الباب الأول منه ٦/١٩٧ رقم ٣٠٩٣ ضمن حديث طويل.

* وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: ما كنت لأدع سنة النبى ﷺ لقول أحد[١].

* وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إنه سيأتى أناس يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنة، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله[٢].

* وعن عبد الله بن مسعود قال: عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يُذْهب بأصحابه ـ أو قال بأهله ـ عليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدرى متى يَفْتقِر أو يُفتَقر إلى ما عنده، وإنكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع[٣]، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق[٤]، وعليكم بالعتيق[٥].

ومن هذه الأقوال يتضح أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا على هَدْى رسول الله ﷺ، لا يقبلون غير سنته، ولا يتركون أمرًا كان عليه ﷺ. كانوا يرون سنته الدالة على معانى القرآن الكريم، وهى العصمة من الزيغ والضلال.

لقد التزموا بها كل الالتزام، نطقت بذلك أقوالهم، وكانت على ذلك أفعالهم:

---

(١) أخرجه البخارى فى الحج باب التمتع والقران والإفراد بالحج ٣/ ٤٢١، ٤٢٢ رقم ١٥٦٣.

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة باب التورع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنة ١/ ٤٧ رقم ١٢١، وأخرجه الآجرى فى الشريعة باب الحث على التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ١/ ١٧٥ رقم ٩٩، وفى الباب الذى يليه ص ١٨٠ ـ ١٨١ رقم ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٣) أى الابتداع، والذى هو خلاف السنة.

(٤) التنطع والتعمق: المغالاة فى الدين، والزيادة عما كان عليه رسول الله ﷺ كقيام الليل كله أو صيام العام بأسره.

(٥) العتيق: الذى كان عليه رسول الله ﷺ دون زيادة أو نقص.

وهذا الأثر ـ أعنى كلام عبد الله بن مسعود ـ أخرجه المروزى فى السنة ص ٢٩ رقم ٨٥ والدارمى فى المقدمة باب من هاب الفتيا ١/ ٥٠. وابن وضاح فى البدع ص ٢٥.

* سئلت أم المؤمنين عائشة عن لحوم الأضاحى فقالت: قدم على بن أبى طالب من غزوة، فدخل على أهله، فقربت له لحمًا من لحوم الأضاحى، فأبى أن يأكله حتى سأل رسول الله ﷺ، فقال النبى ﷺ كُلْهُ من ذى الحجة إلى ذى الحجة»[1].

إن عليًا رضى الله عنه كان قد سمع رسول الله ﷺ يقول «لا تأكلوا لحوم الأضاحى فوق ثلاثة أيام»[2]، حثهم ﷺ بذلك على التصدق، فقد كان الناس فى فقر، فلما كان العام الثانى أباح ﷺ لهم أن يَدَّخِرُوا من لحوم الأضاحى، ولم يعلم بذلك على، فلما وجد امرأته قد ادخرت من لحم الأضحية لم يأكل حتى سأل رسول الله ﷺ، فأخبره ﷺ بجواز الادخار إلى أكثر من ثلاثة أيام، وأن النهى عن الادخار فوق ثلاثة أيام إنما كان لظرف خاص.

وهكذا يعرفون أن الأمور تؤخذ من السنة، فيسألونه ﷺ، ويمتثلون تمامًا.

وموقف ثان:

كان للعباس عم رسول الله ﷺ ميزاب[3] على طريق عمر بن الخطاب، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة، وقد كان ذبح للعباس فرخان، فلما وافى الميزاب صب ماء بدم الفرخين فأصاب عمر، وفيه دم الفرخين، فأمر عمر بقلعه[4]. ثم رجع عمر، فطرح ثيابه، ولبس ثيابًا غير ثيابه، ثم جاء فصلى بالناس، فأتاه العباس، فقال: والله إنه للموضع

(١) أخرجه ابن حبان فى الأضحية باب ذكر إباحة الانتفاع بلحوم الضحايا من السنة إلى السنة ١٣/٢٥٦.

(٢) أخرجه مسلم ٣/١٥٦٢ رقم ١٩٧٣.

(٣) قناة أو أنبوبة يصرف بها الماء من سطح بناء أو موضع عال.

(٤) لما فيه من إيذاء المارة.

الذى وضعه النبى ﷺ. فقال عمر للعباس: وأنا أعزم عليك[١] لما صعدت على ظهرى حتى تضعه فى الموضع الذى وضعه رسول الله ﷺ، ففعل ذلك العباس رضى الله عنه[٢].

لقد راعى عُمَرُ مصلحة الشارع ومن يَمُرّ فيه، فلما علم أن رسول الله ﷺ هو الذى وضعه رجع عن ذلك، بل طلب من العباس أن يقف على ظهره - أى ظهر عمر - حتى يُثَبِّتَ الميزاب كما كان، احترامًا وامتثالاً لفعله ﷺ. إنهم يمتثلون فعله ﷺ، ويتبعون سنته، تأدية لعقيدة أنه رسول الله ﷺ، وامتثالاً لأمر الله بذلك.

وموقف ثالث:

عن أم مُبَشِّر امرأة زيد بن حارثة قالت: قال رسول الله ﷺ وهو فى بيت حفصة: «لا يدخل النار رجل شهد بدرًا والحديبية» فقالت حفصة: يا رسول الله، أليس قد قال الله: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾ [٣] فقال رسول الله ﷺ: «فمه ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا**﴾ [٤]».

هكذا كانوا يعلمون أنهم مأمورون بأخذ العلم عنه، وأن سنته هى البيان الصادق للقرآن الكريم.

إن أم المؤمنين حفصة تتفهم، وتقابل النص النبوى بالنص القرآنى،

---

(١) أى أقسم عليك.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٣/٣٠٨ - ٣٠٩ رقم ١٧٩٠ وقال محقق مسند أحمد: حسن وخرجه من ابن سعد ومستدرك الحاكم ومصنف عبد الرزاق وغيرهم، وهو فى نيل الأوطار آخر كتاب الصلح ٥/٣٨٩.

(٣) سورة مريم آية ٧١.

(٤) سورة مريم آية ٧٢. والحديث أخرجه ابن حبان ١١/١٢٥ رقم ٤٨٠٠ وهو حديث صحيح وتخريجه فيه، وأخرجه ابن أبى عاصم فى السنة ١/٥٩٢.

وتسأل رسول الله ﷺ عن كيفية الجمع بينهما، فيجيبها ﷺ بكل هدوء ووضوح.

وموقف رابع:

عن أبى عزيز بن عمير ـ أخى مصعب بن عمير ـ رضى الله عنهما قال: كنت فى الأسرى يوم بدر[١] فقال رسول الله ﷺ «استوصوا بالأسارى خيرًا» وكنت فى نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم[٢] وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعمونى البر[٣]، لوصية رسول الله ﷺ[٤].

هكذا كانوا يمتثلون أمره ﷺ، إنهم يعلمون أن سنته ﷺ دين، وهم مأمورون بطاعته ﷺ، فامتثلوا واجتهدوا فى اتباع سنته ﷺ[٥].

ثانيًا: معرفة قدره ﷺ:

الأمة سلفًا وخلفًا على أن رسول الله ﷺ:

* هو الذى اصطفاه الله لتلقى الوحى، وليبلغ الدين.
* وهو الذى علمه الله كل شىء يتصل بسلامة الدين وسعادة الأمة.
* وهو الذى لا يتكلم إلا حقًا، ولا يفعل إلا صدقًا.
* وهو الذى أحاط بالإسلام علمًا، وأحاط بالقرآن فهمًا.
* وهو الذى حلاه الله بجميل الصفات، ومحاسن الشيم.

---

(١) إذ كان لم يسلم بعد.

(٢) أكلة الصباح، وتسمى الآن «الفطور».

(٣) القمح. ونظرًا لندرته وقت النبوة كان يقدم على سبيل المزيد من الكرم.

(٤) أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط كذا فى مجمع الزوائد ٨٦/٦ وقال الهيثمى: إسناده حسن.

(٥) راجع المدخل إلى السنة النبوية من ص ٢٧ ومن ص ٢٣٥ ففيه بحمد الله زيادة كثيرة فى هذا.

لقد عرف الصحابة قدره فسألوه عن كل ما أشكل عليهم، وعلموا قدره فلجؤوا إليه يسأل الله لهم فى الشدة، فيستجيب سبحانه دعاءه ﷺ.

لقد عرفوا قدره، وقدر سنته، فالتزموا هديه، واقتدوا به ﷺ. وعلمت الأمة فى جميع الأجيال ذلك، فالتزمنا هديه وسنته، لا نقبل الحيد عنها، ولا التبديل ولا التغيير، وإنما نحرص على سلامة سنته ﷺ وتقريبها للعمل.

ولقد سبق أن ذكرت مناقشة أم المؤمنين حفصة له ﷺ فى التوفيق بين حديث «لا يدخل النار رجل شهد بدرًا والحديبية»، وقوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾ وكثير من الصحابة سأله ﷺ، مؤمنين أنه الرسول الذى اصطفاه الله وعلمه، وهو ﷺ الذى يُسأل عن كل أمر من أمور الدين.

* كانت أم المؤمنين عائشة لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبى ﷺ قال: «من حُوسب عُذِّب» قالت عائشة فقلت: أو ليس يقول الله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**﴾ [(١)] قالت فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يَهلِك[(٢)].

إن كل إنسان سيأخذ كتابه، وسيقرؤه، فأهل الصلاح إلى الجنة يسرعون، وأهل الشر يحاسبون وبمقدار أعمالهم مجزيون.

* ولما نزل قول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [(٣)] شق ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله

---

(١) سورة الانشقاق آية ٨.

(٢) أخرجه البخارى فى العلم باب من سمع شيئًا فراجع حتى يعرفه ١/١٩٦ - ١٩٧ رقم ١٠٣.

(٣) سورة الأنعام آية ٨٢.

أينا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ **يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [1].

لقد أشكلت الآية عليهم ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ عَلَّقت الآية الأمن والاهتداء على الإيمان وعدم خلطه بظلم، فَخُيِّل للصحابة أن أى ظلم يجعل صاحبه ليس فى دائرة الأمن وليس مهتديًا فشق ذلك عليهم، فأسرعوا إلى رسول الله ﷺ وسألوه، فأجابهم إجابة من القرآن الكريم، وضَّح ﷺ لهم أن الظلم إنما هو الشرك، واستدل على هذا المعنى بآية من القرآن الكريم ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ .

إن توجه الصحابة إليه بالسؤال إنما هو لمعرفتهم قدره ﷺ، وأنه الذى يبين القرآن الكريم، وأنه الذى يرسم الصراط المستقيم، وأنه الذى أمر الله تبارك وتعالى بطاعته ﷺ.

* وعن المغيرة بن شعبة قال: «أتيت النبى ﷺ فذكرت له امرأة أخطبها، فقال: اذهب فانظر إليها، فإنه أجدر أن يُؤدم بينكما، فأتيت امرأة من الأنصار فخطبتها إلى أبويها، وأخبرتهما بقول النبى ﷺ، فكأنهما كرها ذلك قال: فَسَمِعَتْ ذلك المرأةُ وهى فى خدرها، فقالت: إن كان رسول الله ﷺ أمرك أن تنظر فانظر، وإلا فأنشدك، كأنها أعظمت ذلك، قال: فنظرت إليها فتزوجتها، فذكر من موافقتها» [2].

---

(١) أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء باب قول الله: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ جـ ٦ ص ٤٦٥ رقم ٣٤٢٩. وقول الله تعالى: ﴿لا تشرك بالله...﴾ هذا جزء من آية رقم ١٣ من سورة لقمان.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى كتاب النكاح باب النظر إلى المرأة إذا أراد أن يخطبها جـ ١ ص ٦٠٠ رقم ١٨٦٦ ونقل محققه عن الزوائد: إسناده صحيح، وقد روى الترمذى وغيره بعضه وأخرجه ابن حبان مقتصرًا على الأمر بالنظر ٩/٣٥١ رقم ٤٠٤٣.

لقد نصح رسول الله ﷺ الرجل أن ينظر إلى من يريد زواجها، وفهم الصحابى أن الأمر يكون بالمصارحة فذهب إلى والدىّ الفتاة وطلب أن ينظر إلى الفتاة، ورفض الوالدان كنوع من الحميّة، مدركين بفطرتهما أن النظر لا يكون بالمصارحة والطلب وإنما يكون من حيث لا تعلم، وبالتالى بدون إذن وهذا هو المباح فعلاً كما فى حديث جابر عن رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعو إلى نكاحها فليفعل» قال جابر: فخطبت جارية فكنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعانى إلى نكاحها فتزوجتها»[1].

إن الإسلام أباح للخاطب مجرد النظر، ولم يأمر أهل الفتاة بإظهارها للنظر، فلينظر الخاطب من الوراء، أما إن طلب فأهل الفتاة بالخيار.

إلا أن هذه الفتاة لم تجعل الأمر لعرف قبيلتها، وإنما مادام الأمر قد طلبه رسول الله فلابد أن نفعل، ورجع الوالدان للمثالية الإسلامية، فنزلا على طلب رسول الله ﷺ، وإن كان لا أمر فيه لهما، فالأمر للخاطب بالنظر، لكن مادام رسول الله قد طلب الشىء فلنساعد على إتمامه بكل ما أوتينا، فنحن نطيعه ﷺ، ونتبع هديه.

إنهم يعرفون قدره، ويعرفون قدر حديثه، فيتبعون ويمتثلون غير عابئين برأى أو عرف، وإنما الأمر دين،يتبعون فيه وحى الله سبحانه وتعالى إلى رسول الله ﷺ. إما بقرآن وإما بسنة.

يقول عمر بن الخطاب: أيها الناس إن الرأى إنما كان من رسول الله ﷺ مصيبًا، لأن الله عز وجل يريه، وإنما هو منا الظن والتكلف[2].

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ١٦٥ وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبى، وأخرجه أبو داود فى النكاح باب فى الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها ٦/ ٩٦ عون المعبود وأخرجه أحمد ٣/ ٣٣٤ و٣٦٠ وأخرجه عبد الرزاق ٦/ ١٥٧.

(٢) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ٢/ ١٠٤٠ ـ ١٠٤١ رقم ٢٠٠٠ وفى غير ذلك.

ثالثا: المحافظة على حديثه ﷺ:

يقول عبد الله بن عباس: من أحدث رأيًا ليس فى كتاب الله ولم تمض به سنة رسول الله ﷺ لم يدر على ما هو منه إذا لقى الله عز وجل[١].

وبلغ من تقديرهم لحديثه ﷺ، أن الواحد منهم كان إذا أراد أن يتحدث بحديث أخذته الهيبة، وتملكته الرعدة، وتحدر العرق من جبينه، وما ذلك إلا لمعرفته قدر حديث رسول الله ﷺ، وأنه الدين وأنه من عند الله.

فعن عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهما ـ قال: قلت: للزبير ما يمنعك أن تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث ابن مسعود، وفلان، وفلان؟ فقال: أما والله ما فارقته منذ أسلمت ولكنى سمعته قال كلمة! قال: «من قال على ما لم أقل، فليتبوأ مقعده من النار»[٢].

وعن على بن أبى طالب قال: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخرَّ من السماء أحبُّ إلىّ من أن أقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل، وإذا حدثتكم برأيى فإن الحرب خَدْعة»[٣].

وعن عمرو بن ميمون قال: اختلفت إلى عبد الله بن مسعود سنة، لا أسمعه يقول فيها: قال رسول الله ﷺ، إلا أنه جرى ذات يوم حديث فقال: قال رسول الله ﷺ، فعلاه كرب، وجعل العرق ينحدر عن عينيه، ثم قال: إما فوق ذلك، وإما دون ذلك، وإما قريبًا من ذلك[٤].

---

(١) أخرجه الخطيب فى الفقيه ٤٥٨ رقم ٤٨٨ وابن عبد البر فى جامع بيان العلم ٢/١٠٤٦ رقم ٢٠١٣.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسى ١/١٥٧ رقم ١٨٧ وهو عند البخارى رقم ١٠٧.

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسى ١/١٠٣ رقم ١٠٧ وصححه وخرجه محققه وهو عند البخارى رقم ٣٦١١.

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسى ١/٢٥٦ رقم ٣٢٤ وصححه محققه وخرجه.

وبلغ من معرفتهم قدر حديثه ﷺ أن كثيرًا منهم روى حديث الوعيد على الكذب عليه ﷺ، حتى إن هذا الحديث هو أكثر الأحاديث رواية فى الإسلام.

يقول ﷺ «من كذب علىّ فليتبوأ مقعده من النار»[١].

ولقد أكثر الصحابة من رواية هذا الحديث، بل إن منهم من كان إذا أراد أن يحدث بدأ بهذا الحديث، تذكيرًا لنفسه بأن يتورع فى الرواية، وتعليمًا للحاضرين، وإعلامًا بأنه يدقق فى الرواية، وهذا واجب على كل مسلم[٢].

* * *

وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، كانوا على كتاب الله، وعلى سنة رسول الله ﷺ.

كانوا يعملون بالقرآن الكريم وبالسنة معًا.

كان القرآن والسنة هما العلم، وهما الإسلام.

كانوا يسيرون على هَدْى رسول الله ﷺ.

كانوا يتبعونه ﷺ فى كل ما كان منه.

وفى هذا الوقت، أعنى وقت النبوة الذى يتمسك فيه الصحابة بالسنة النبوية كل التمسك، فى هذا الوقت الذى يحافظ فيه الصحابة على كل ما كان من رسول الله ﷺ، مدركين أن هَدْيه هو خير الهَدْى، وأن قوله وفعله وتقريره ﷺ إنما هو الدين الذى علمه الله وأراه.

فى هذا الوقت يخبر ﷺ بأمر ما كان أحد يتصور حصوله، يخبر بهذا

(١) أخرجه البخارى فى العلم باب إثم من كذب على النبى ﷺ ١/١٩٩ رقم ١٠٧.
(٢) راجع «المدخل إلى السنة النبوية» باب التحذير من الكذب عليه ص ١١٤.

الحديث، وأنه:

* سيظهر من ينكر السنة النبوية، ويرفض العمل بها مع أن الله أمرنا بالعمل بها فى كتابه.

* وسيظهر من ينادى بالعمل بالقرآن الكريم وحده، مع أن القرآن الكريم أمرنا الله فيه بالعمل بالسنة.

* وسيظهر من ينكر الأحكام التى جاءت بها السنة، مع أنها أحكام أوحاها الله تبارك وتعالى إلى نبيه ﷺ، فالسنة من وحى الله إلى نبيه.

ولم يقف إخباره ﷺ فى هذا الموضوع عند هذا الحد، وإنما أخبر ﷺ بمواصفات منكرى السنة، وأنهم:

* ليسوا علماء ولا طلاب علم.

* ومترفون، منعمون، أهل دنيا.

* ومتكبرون، ومتبطرون.

ولفظ حديث المقدام عند أحمد: حرّم رسول الله ﷺ يوم خيبر أشياء، ثم قال: يوشك أحدكم أن يكذبنى وهو متكئ على أريكته، يُحَدَّث بحديثى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله»[1].

وفى لفظ آخر: يقول ﷺ: ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثنى شبعانا على أريكته، يقول عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه

(١) أخرجه أحمد ٢٨/٤٢٩ رقم ١٧١٩٤ وصححه محققه ونقل عن الحاكم ١/١٠٩ تصحيحه، وعند الترمذى ٢٦٦٤ تحسينه.

من حرام فحرموه. . . الحديث[(١)].

ولقد تحقق فى زماننا كل ما أخبر به ﷺ، فظهر:

* أناس ينكرون السنة النبوية.

* ويدعون ظاهرًا إلى الاكتفاء بالقرآن، بينما فى حقيقة الأمر هم ينكرون القرآن أيضًا.

* وينكرون أن تستقل السنة بأحكام، بينما هى أحكام أوحاها الله إلى رسوله يبين بها القرآن الكريم.

* ومنكرو السنة هؤلاء كما وصفهم رسول الله ﷺ، أهل دنيا، وكبر وبطر، وليسوا بعلماء.

تحقق كل ما أخبر به ﷺ، وظهر فى زماننا هذا تمامًا، ومن كبرهم تبجحوا، ومن جهلهم طغوا، يذيعون ضلالهم، وينشرون كفرهم!!

وجدت فيهم قوى الكفر ضالتها فامتطتهم، ووجدت فيهم القفاز الذى يسترها فاستعملتهم، تبلغ بهم ضالتها فى حرب الإسلام، والله من ورائهم محيط.

ورسول الله ﷺ يُحَذِّر ويُحَذِّر، فليتهم إذ سمعوا هذا الحديث عملوا به.

أما أهل الفطرة السليمة، فإنهم وقد سمعوا هذا الحديث، لا يعيرونهم اهتمامًا، وإنما يقولون أنتم الذين حذرنا رسول الله ﷺ منكم.

لقد تحقق ما أخبر به ﷺ، ووقع وفق ما أخبر، وما ذلك إلا لأنه من

---

(١) أخرجه أحمد ٢٨/ ٤١٠ رقم ١٧١٧٤ وصححه محققه، وخرجه من ابن حبان رقم ١٢ ومن أبى داود ٤٦٠٤، ومن مصادر أخرى كثيرة.

وحى الله إليه، ومن وحى الله الذى أحاط بكل شىء علمًا.

إن هذا الحديث دليل على صدق نبوته ﷺ.

ودليل على ثبوت السنة النبوية وعظمتها.

وهو نصيحة لكل مسلم أن يلتزم بالسنة قولاً وعملاً.

ورسول الله ﷺ يقول: «ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى، إلا كان له من أمته حواريُّون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره. ثم إنها[1] تخلف من بعدهم خُلُوف[2]، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن. ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[3].

وهكذا يبين ﷺ واجب المسلم إزاء هؤلاء، وأن علينا أن نجاهدهم ما استطعنا، ونرد كيدهم عن الإسلام، ما أمكننا، مؤمنين بقول الله تعالى: **﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾**[4].

---

(١) ضمير القصة والشأن : أى ثم إن القصة حدوث أجيال بعدهم لا تعمل بالسنة.

(٢) خلوف: جمع خَلْف ـ بسكون اللام ـ وهو من يخلف بشرّ. أما خَلَف ـ بفتح اللام ـ فهو من يخلف بخير.

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان ١/٦٩ ـ ٧٠ رقم ٨٠/ ٥٠.

(٤) سورة الحج آية ٤٠.

• ما يستفاد من الحديث:

١ ـ وجوب العمل بالسنة النبوية، فإنها مع القرآن الكريم أساس الإسلام ومصدره.

٢ ـ أمور الإسلام من عقائد، وأحكام وأخلاق... إلخ إنما تؤخذ من القرآن والسنة، ولا فرق بين ما جاء فى القرآن، وما جاء فى السنة، فكل ذلك مصدره الوحى وعلى الأمة أن تعمل بالمصدرين معًا، القرآن والسنة.

٣ ـ السنة النبوية تستقل ببعض الأمور من الإسلام، ذكر ﷺ فى هذا الحديث نماذج مما استقلت به السنة، وهى: تحريم لحوم الحمر الأهلية، وتحريم لحوم السباع، وتحريم لحوم كل ذى مخلب من الطير، وتحريم اللقطة من أموال المسلمين والمعاهدين، ووجوب القيام بحق الضيف.

والروايات الأخرى، والأحاديث الأخرى التى فى هذا الموضوع تفيد أكثر من هذا.

٤ ـ التحذير من إنكار السنة النبوية، وبيان أنه سيظهر من ينكرها، وهؤلاء يحذرهم رسول الله ﷺ فى هذا الحديث من هذا المسلك، ويحذر سواهم من اتباعهم، ويوصى الأخيار بمجاهدتهم.

٥ ـ بيان أن إنكار السنة النبوية إنما مبعثه الجهل، والكبر، والترف، فمن درس الإسلام لا ينكر السنة، ومَنْ جَهِله يمكن أن ينكر السنة، ويمكن أن يخلط كثيرًا.

وأهل الكبر والترف تأخذهم هاتان الصفتان بعيدًا عن الحق، وتوقعانهم فى الباطل.

٦ ـ والحديث دليل على صحة السنة وثبوتها، فقد وقع الأمر كما أخبر ﷺ، فظهر من ينكر السنة، وصفاتهم كما أخبر ﷺ مما يدل على صدق نبوته، وثبوت سنته، وأن السنة سليمة قويمة.

٧ ـ والحديث من نصيب أهل زماننا من معجزاته ﷺ :

* نزداد به إيمانًا بأن علم الله تبارك وتعالى محيط.

* ونزداد به إيمانًا بأن محمدًا ﷺ رسول الله.

* ونزداد به إيمانًا بأن السنة من وحي الله تعالى إلى رسوله ﷺ.

* ونزداد به إيمانًا بصحة السنة وثبوتها.

* * *

الإخبار عن ندرة المال الحلال، والصديق الوفى، والعمل بالسنة

عن حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ قال: «سَيأتى عَلَيْكُم زَمَانٌ لا يَكُونُ فيه شىءٌ أَعَزَّ مِن ثَلاث: دِرهَم حَلاَل، أَوْ أَخ يُسْتَأنَس بِهِ، أَوْ سُنَّة يُعْملُ بِهَا»[1].

• معانى المفردات:

«لا يكون فيه شىء أعز من ثلاث»: أى تكون هذه الأشياء الثلاثة ـ الدرهم الحلال، والأخ الذى يستأنس به، والسنة التى يعمل بها ـ أندر الأشياء، وأقلها.

«درهم حلال»: المراد كل أنواع النقود، أطلق الدرهم الذى هو أحدها، وأريد الكل. والمراد المال كله.

«أخ يستأنس به»: يُرتاح إليه ويُطمأن له، وذلك لخُلُقه ودينه.

«سُنَّة يُعمل بها»: المراد سنته ﷺ، وهى كل ما كان عليه ﷺ، فتشمل الواجب والمندوب فيفعل، وتشمل الحرام والمكروه فيترك.

والمعنى: أنه يَقِلُّ المتمسكون بالسنة، السائرون على هديه ﷺ، ويقل العمل بالسنة، وتكثر البدع والخرافات. نسأل الله العصمة من الزلل.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ١/ ٩٦ حديث رقم ٨٨. وأبو نعيم فى الحلية ٤/ ٣٧٠، ٧/ ١٢٧.
وهو من رواية روح بن صلاح وثقة ابن حبان والحاكم، وتكلم فيه ابن عدى فى روايته عن بعض شيوخه لكن ليس فيهم شيخه الذى هنا ألا وهو سفيان الثورى، فيض القدير ٤/ ١١٧، الكامل لابن عدى ٣/ ١٠٠٥، لسان الميزان ٢/ ٤٦٥.

● **راوى الحديث:**

حذيفة بن اليمان: أحد الصحابة النجباء، الذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾.

أحد الصحابة الذين أثنى عليهم ربنا فى كتابه، فى كثير من الآيات.

شرف بصحبة رسول ﷺ، وتعلم منه، وقام بخدمته ونصرته. أراد أن يشهد غزوة بدر هو وأبوه مع رسول الله ﷺ، إلا أن المشركين أخذوهما قبل بدر، فأرادوا أن يقتلوهما، لكنهم تركوهما بعد أن أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه أن لا يعينا عليهم، فحلفا لهم، فأرسلوهما، فأتيا النبى ﷺ فأخبراه، فقالا: إنا قد حلفنا لهم، فإن شئت قاتلنا معك، فقال ﷺ: «نَفِى لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»[1] فلم يحضر حذيفة غزوة بدر بسبب ذلك.

وفى غزوة أحد حضر حذيفة، وحضر أبوه، وبدأت المعركة، فحدث أمر تحدثنا عنه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فتقول: «لما كان يوم أحد هُزِم المشركون هزيمة بيِّنة، فصاح إبليس: أى عباد الله أخراكم. فرجعت أولاهم على أخراهم فاجتلدت مع أخراهم، فنظر حذيفة فإذا هو بأبيه، فنادى أى عباد الله، أبى، أبى. فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه. فقال حذيفة: غفر الله لكم. يقول عروة بن الزبير الراوى عن عائشة: فوالله مازالت فى حذيفة منها بقية خير حتى لقى الله عز وجل[2].

(١) أخرجه الحاكم ٣/٣٨٩.
(٢) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار باب ذكر حذيفة بن اليمان ٧/ ١٣٢.

لقد اضطربت جنود المسلمين، فرجعت المقدمة على المؤخرة، والناس لا يعرف بعضهم بعضا، فملابس الحرب تستر كل شىء من الإنسان، والملابس متحدة فى المسلمين والمشركين، فأخطأ بعض الصحابة وظن اليمان والد حذيفة مشركا، فضربوه، ونادى حذيفة، ولكن سبق السيف العزل فاستشهد أبوه، وصبر حذيفة واحتسب، إنه لم يحمل شيئًا فى نفسه من جراء مقتل أبيه،لم يحمل شيئًا على الدعوة ولا على المسلمين، ولا على الصحابى الذى قتل والده خطأ، وقد رآه بنفسه، وهو عتبة بن مسعود. لقد أراد رسول الله ﷺ أن يدفع الدية لحذيفة، لكنه رفض، وتركها لبيت مال المسلمين صدقة، وكانت الكلمة التى يرددها: يغفر الله لكم، يسأل الله المغفرة للمسلمين الذين قتلوا والده. حتى كانوا يرون بركة هذه الكلمة فى تصرفات حذيفة طول حياته، كما يتضح من كلام عروة: فوالله مازالت فى حذيفة منها ـ أى من هذه الكلمة وبسببها ـ بقية خير حتى لقى الله عز وجل.

لقد كان حذيفة معرضا عن الدنيا بالكلية، مقبلا على الآخرة بكل ما أوتى، وماذا بعد قوله: ما من يوم أقر لعينى، ولا أحب لنفسى من يوم آتى أهلى فلا أجد عندهم طعاما، ويقولون ما نقدر على قليل ولا كثير، وذلك أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله أشد حمية للمؤمن من الدنيا من المريض أهله من الطعام، والله عز وجل أشد تعاهدا للمؤمن بالبلاء من الوالد لولده بالخير»[١].

بعث عمر حذيفة على المدائن[٢]، قاضيا وقائما على شئونها، وكتب

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير فى ترجمة حذيفة السابقة لمسنده ٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٢) مدينة كبيرة على نهر دجلة، كانت عاصمة الدولة الفارسية، فلما فتحها المسلمون، كان حذيفة حاكمها فترة من خلافة عمر.

معه كتابا فيه: اسمعوا له وأطيعوا، وأعطوه ما سألكم. فلما وصل حذيفة المدائن استقبله رؤساء القبائل والتجار، فلما قرأ الكتاب عليهم قالوا: سل ما شئت. فقال: طعاما آكله، وعلف حمارى من تبن مادمت فيكم. فأقام فيهم ما شاء الله، ثم كتب إليه عمر: أقدم. فلما بلغ عمَر قدومُه كمن له على الطريق، فلما رآه على الحال التى خرج عليها أتاه فالتزمه، وقال: أنت أخى وأنا أخوك.

لقد خشى عمر على حذيفة أن يكون قد مال إلى الدنيا، فجمع مالا من عمله هذا، فاختبأ له على الطريق قبل دخوله المدينة،وكان أمر يثلج صدر كل مؤمن، فقد عاد حذيفة إلى المدينة كما خرج منها، لم يجمع مالاً، ولم يقبل هدايا، فقط كان يعمل على المدائن بقوت يأكله، وتبن لحماره، يأخذ هذا من بيت المال، ومن هنا سعد عمر رضى الله عنهما، وقال له: أنت أخى وأنا أخوك، أنت مثلى وأنا مثلك نعف عن مال المسلمين، وننصح للمسلمين ما استطعنا،فرضى الله عن عمر ورضى الله عن حذيفة، وعن الصحابة والتابعين.

ولما حضرت الوفاة حذيفة وكان ذلك فى آخر الليل قال: أعوذ بالله من صباح إلى النار، كرر هذه الكلمة ثلاثا، ثم قال: اشتروا لى كفنا، فجاءوا بحلة ثمنها ثلاثمائة درهم، فقال: لا. اشتروا لى ثوبين أبيضين[1]، فإنهما لن يتركا علىّ إلا قليلا، حتى أبدل بهما خيرا منهما، أو أسلبهما سلبا سريعا.

ثم قال: اللهم إنك تعلم أنى أحبك، فبارك لى فى لقائك، ثم مات، وكان ذلك سنة ست وثلاثين، وكان قد شاخ.

---

(١) كان الثوب فى هذا الوقت يساوى أربعة دراهم.

قال عمر بن الخطاب يوما لأصحابه: تَمَنَّوا، فتمنوا ملء البيت الذى كانوا فيه مالا وجواهر ينفقونها فى سبيل الله، فقال عمر: لكنى أتمنى رجالا مثل أبى عبيدة، ومعاذ بن جبل، وحذيفة بن اليمان فأستعملهم فى طاعة الله عز وجل، ثم بعث بمال إلى أبى عبيدة وقال: انظر ما يصنع فقسمه، ثم بعث بمال إلى حذيفة، وقال: انظر ما يصنع. قال: فقسمه. فقال عمر: قد قلت لكم.

من أقوال حذيفة وقد سئل: ما النفاق؟ فقال: أن تتكلم بالإسلام، ولا تعمل به. وإنما سأله السائل هذا السؤال لأن النبى ﷺ كان أعلمه أسماء المنافقين[١]، وكثيرا من الفتن الكائنة فى الأمة[٢].

رضى الله عن حذيفة وعن سائر الصحابة والتابعين..

• شرح الحديث:

«درهم حلال» يخبر ﷺ أنه سيأتى على أمته زمان تتغير الأحوال، وتتبدل المقاييس، فهم فى زمانه ﷺ فى غاية الحرص على الحلال، طعامهم من حلال، وكل نقودهم ومعاملاتهم حلال، يمتثلون الكتاب والسنة، لكنه ستتغير الأحوال، ويجهل الكثيرون الكتاب والسنة، ويقل التزامهم بأحكام الإسلام، فتشيع فيهم المعاملات المحرمة، حتى يعز الدرهم الحلال، ويندر وجوده، ويخص ﷺ الدرهم بالذكر، والدرهم يشمل النقود بكل مسمياتها، وهى أكثر ما دخله الحرام، وعمتها الشبهة.

(١) يراجع فى ذلك معجم الطبرانى الكبير مسند حذيفة ٣/ ١٨٣ ـ ١٨٤ تحت عنوان «تسمية أصحاب العقبة».

(٢) راجع فى ترجمة «حذيفة» سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٦١، والإصابة ٢/ ٢٢٣، ومعجم الطبرانى الكبير ٣/ ١٧٨ ومستدرك الحاكم ٣/ ٣٧٩، ومجمع الزوائد ٩/ ٣٢٥، وأسد الغابة ١/ ٤٦٨، وصحيح البخارى ٧/ ١٣٢.

وإخباره ﷺ بندرة الدرهم الحلال فيه تحذير من الحرام، فليحرص المؤمن على الكسب الحلال، وإذا أظله هذا الزمن الذى يندر فيه الدرهم «النقد» الحلال، فليتحر الحلال، وليحرص عليه.

• ميزة الكسب الحلال:

إن التحرى فى الكسب، والحرص على الحلال يحفظ على الإنسان دينه وشرفه، أما التساهل فى ذلك فيؤدى إلى الوقوع فى الحرام مما يخل بالدين، ويؤدى إلى طعن الناس فيه، بأنه يأكل من حرام.

إن التحرى فى الكسب مغنم فى الدين والدنيا، ومن هنا قال ﷺ: «الحلال بَيِّنٌ، والحرام بَيِّنٌ، وبينهما مُشْبَّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المُشبَّهات استَبْرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشُّبُهات كراعٍ يرعى حول الحِمَى يُوشك أن يُواقعَه، ألاَ وإن لكل مَلك حمًى، ألا إن حمى الله فى أرضه مَحَارِمُه، ألا وإن فى الجسد مضغةً إذا صَلَحَت صَلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَد الجسد كله، ألا وهى القلب»[1].

ومعنى هذا الحديث أن المكاسب التى يتعرض لها الإنسان فى حركته المالية منها ما يَعْرف أنه حلال، ومنها ما يَعْرف أنه حرام، ومنها «مُشْبَّهات» أى أموال تشتبه عليه فلا يدرى أهى حلال أم حرام، كما جاء فى رواية أخرى لهذا الحديث «لا يدرى كثير من الناس أَمِنَ الحلال هى أم من الحرام»[2] وهذا الذى يشتبه على كثير من الناس ليس مشكلا على الجميع، وإنما حكمه معروف عند العلماء، ولذلك قال ﷺ «لا يعلمها كثير من الناس» أى أن أحكامها تخفى على البعض، لا على الكل. فإذا

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه ١/١٢٦.
(٢) رواية الترمذى.

تعرض المسلم لشىء يشك فيه فعليه أن يتركه، حفاظا على دينه وعرضه، أما حفاظا على دينه فإنه يكون قد سلم من المطعم الحرام، ومن الكسب الحرام، وأما حفاظا على عرضه، فإنه لا يستطيع أحد أن يقدح فى عرضه بأنه يأكل الحرام.

ومن فوائد ترك الكسب الذى يشتبه فيه أن من تركه كان أبعد عن الحرام، أما من تجرأ على ما يشتبه فيه فإنه يقع فى الحرام، كما جاء فى رواية أخرى(١) لهذا الحديث «فمن ترك ما شُبِّه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يَشُكُّ فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان» أى أن من ترك المشتبه فيه كان لما استبان أنه حرام أشد تركا، أما من تجرأ على ما يشك فيه، فإنه عما قريب يقع فى ما استبان أى عرف أنه حرام.

ومن هنا يقول ﷺ «دَعْ مَا يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك»(٢) أى اترك ما تشك فيه، وافعل ما لا شك فيه.

ويقول أيضا ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يَدَع ما لا بَأسَ به حَذَرًا لما به بأس»(٣) أى إن المؤمن يترك شيئا من الحلال خشية الحرام، لا أن يفعل شيئا من الحرام لاحتمال أنه حلال، لا، ليس الأمر كذلك، فمقتضى الاحتراز والاحتياط أن المسلم يترك شيئا من الحلال خشية الحرام.

إن المسلم عليه أن يتحرى فإذا اطمأن لحل الشىء أقدم عليه، وإذا شك أحرام هذا الشىء أم حلال ابتعد، فإن من يفعل المشكوك فيه يتجرأ فيفعل

---

(١) عند البخارى فى البيوع باب الحلال بيِّن ٤/ ٢٩٠.

(٢) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه الترمذى وحسنه.

الحرام، كما أن من رعى حول حمى الملك يقع فى دخول ماشيته حمى الملك مما يعرضه للعقوبة، ضرب ﷺ ذلك مثلا فى الحديث السابق، حديث «الحلال بيِّن...» فإن عادة الملوك أن يحموا منطقة لرعى ماشيتهم، فمن رعى حولها أخطأ برعى ماشيته فيها، ومن ابتعد عنها سلم، كذلك من ابتعد عن الشبهات سلم من الكسب الحرام.

• منهج السلف فى الكسب:

ولقد كان سلف الأمة على هذا النهج، كانوا يحتاطون فى كسبهم، ويحرصون على الحلال الطيب، بل كانوا أعلى من ذلك، كانوا يتقون الله فى الحلال الطيب فينفقون منه الكثير فى سبيل الله تعالى، وإنفاق عثمان ابن عفان فى تجهيز جيش العسرة، وتصدقه بالكثير أمر مشهور، حتى قال ﷺ «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»[1] وكذلك تَصَدُّقُ عبد الرحمن بن عوف أمر مشهور، كانوا يجودون بالكثير والكثير رجاء رضوان الله تعالى.

أما فى زماننا فاشتد حرص الناس على الدنيا، وكأنما خلقوا لها، وجهلوا الحقائق التى علمها السلف فحادوا عن الجادة، واختلفوا عن السابقين، لقد كثرت الشبه فى الأموال، فالكثيرون يتعاملون مع البنوك، وهى مؤسسات ربوية، والكثيرون لا يؤدون الزكاة على الوجه المشروع، ومن الناس من لا يعطى الأجير أجره، ومنهم من يجمع المال من التجارة فى الحرام، ومنهم من يرتكب المخالفات فى أمواله، فإذا أخبرته بحرمة ما يفعل تنطع قائلا: لا، بل مكروه، وهذه الأحاديث ترد عليه، فحتى على فرض أنه مكروه، فمن فعل المكروه اليوم - على زعمه أنه مكروه -

(١) أخرجه الترمذى فى المناقب، مناقب عثمان بن عفان رضى الله عنه ١٠/ ١٩٢ تحفة.

فسيرتكب المحرمات غدًا، لأنه لم يُعَوِّد نفسه البعد عن الحرام.

إن الشبهة شاعت فى الأموال بسبب جرأة الناس على الحرام.

وحرصهم على جمع المال.

وجهلهم بالإسلام.

ومن هنا يقول ﷺ «ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»[١] القلب إذا وقر فيه الإيمان، وعمر بالخوف من الله استقام، وفرض على الجوارح أن تستقيم.

إن الحلال أساسه عقيدة تدفع إلى الحلال والاستقامة، وتنأى بصاحبها عن الحرام والمعاصى.

• أخوة الإيمان:

«أو أخ يستأنس به» ويخبر ﷺ أنه سيأتى على أمته زمان، يندر فيه الأخ الذى تزول به الوحشة، ويُسْكن إليه، ويُطمأن به، زمان يندر فيه الأخ الذى تتوافر فيه الأخوة الإسلامية، الأخوة التى يُقَدِّم فيها الأخُ العونَ لأخيه ابتغاء مرضاة الله، فالمؤمنون إخوة، يتعاونون على الخير والاستقامة، كما قال الله سبحانه: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[٢]، وكما قال سبحانه: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾[٣]، ففى الآية الأولى ما يفيد أن المؤمنين تربطهم عقيدة رباطها أقوى من رباط

---

(١) تقدم الحديث بتمامه، وأوله «الحلال بين...».

(٢) سورة الحجرات آية ١٠.

(٣) سورة المائدة آية ٢.

النسب، وهم فى تجمعهم هذا واتحادهم إنما يتعاونون على الخير وطاعة الله تعالى.

ويقول ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا، وشبك بين أصابعه»[١]، ويقول أيضًا: «مَثَلُ المؤمنين فى توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مَثَلُ الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى»[٢]، ويقول أيضا ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسْلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرّج عن مسلم كُرْبة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[٣].

لقد جعل الإسلام أهله جماعة متحابة، خالية من الأمراض النفسية، متحلية بالمكارم الخُلُقية، فلا تحاسد ولا تدابر، ولا كبر ولا احتقار، ولا غش ولا خيانة، ولا شح ولا أنانية، وإنما أخوة تجعل الفرد متجاوبا مع الجماعة، متفاعلا مع أحاسيس إخوانه، إذا أصاب أحدهم سراءُ شاركوه فرحته، وإن أصابته ضراء واسَوْه فى مصيبته، ساعين فى دفعها ما أمكنهم ذلك، واثقين بأن الله سبحانه وتعالى يثيبهم على هذا أعظم الأجر، يصور شيئًا من هذا ما روى عن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه كان معتكفًا[٤] فى مسجد رسول الله ﷺ، فأتاه رجل فسلم عليه ثم جلس، فقال له ابن عباس: يا فلان أراك مكتئبا حزينا؟ قال: نعم يا ابن عم رسول الله، لفلان علىَّ حق ولاء[٥]، وحرمة صاحب هذا

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم، واللفظ لمسلم.

(٤) الاعتكاف: الإقامة فى المسجد، وهو عبادة إسلامية.

(٥) صحبة.

القبر ما أقدر عليه[١]. قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك. فقال: إن أحببت. قال: فانتعل[٢] ابن عباس ثم خرج من المسجد، فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه[٣]؟ قال: لا، ولكنى سمعت صاحب هذا القبر ﷺ - والعهد به قريب فدمعت عيناه - وهو يقول: «من مشى فى حاجة أخيه وبلغ فيها[٤] كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق[٥] أبعد مما بين الخافقين»[٦].

لقد أسعد الإسلام البشرية بهذه الأخلاق، فأى سعادة أعظم من أن يشعر الإنسان أن له إخوة يحرصون على سعادته حرصهم على سعادتهم، وأنه لو نزلت به نعمة لا يحقدون ولا يحسدون وإنما يفرحون، وإذا نزلت به مصيبة شاركوه ضائقته. لقد جعل الإسلام الحياة فترة سعادة بهذه الأخلاق التى أسداها للبشرية، وماذا بعد قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٧]؟ لقد جعلهم إخوة أنقى وأصفى من إخوة النسب، فالإخوة من النسب بدون إسلام نراهم فى زماننا متباعدين متقاطعين، وسل مجتمعات الكفر ترى الرجل لا يبالى بأمه وأبيه، فضلا عن أخته وأخيه، أما المسلمون فبدون أخوة نسب أو معها إخوة متعاونون فى كل بر، متناصرون فى كل حق.

---

(١) ما أقدر على مودته مع تباعده.

(٢) لبس نعله أى حذاءه.

(٣) من الاعتكاف فى المسجد، والمعتكف لا يخرج إلا لحاجة.

(٤) قضاها، أو بذل جهده فى قضائها.

(٥) ثلاث حفرات ، سعة الحفرة ما بين السماء والأرض، والمراد: أبعده الله عن النار.

(٦) أخرجه البيهقى فى الشعب أو الزهد الكبير والطبرانى فى الأوسط والحاكم مختصرًا وصححه ترغيب ٢/ ١٤٩.

(٧) أخرجه البخارى ومسلم.

هذا منهج الإسلام وعليه كان سلف الأمة، والرسول ﷺ يوصى بدوام التمسك به، إنه باب من أبواب الخير، فليكن المسلمون متعاونين متآخين، وهو ﷺ فى نفس الوقت يخبر أن كثرة من الأمة ستحيد عن هذا المنهج، حتى يصبح الأخ الذى يلتزم بمنهج الإسلام وهو الأخ الذى ينفع، يصبح نادرًا عزيزًا، إنه ﷺ يخبر بذلك محذرا الأمة من هذا الأمر، من أن لا تراعى وحدتها، وتعاونها، من أن لا تراعى التناصح والتناصر بين أفرادها، إن ذلك يجعلها على غير طاعة الله، ويذهب بقوتها كما قال سبحانه: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (١).

• العمل بالسنة النبوية:

«سنة يعمل بها» ويخبر ﷺ أنه سيأتى على أمته زمان تتغير الأحوال، فلقد كانوا فى زمانه ﷺ يحرصون على امتثال سنته كل الحرص، كيف لا، وقد جاء الأمر باتباع سنته فى القرآن الكريم فقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (٢).

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (٣).

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (٤).

وجاء التحذير من مخالفة السنة فى القرآن الكريم:

فقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ

(١) سورة الأنفال آية ٤٦.
(٢) سورة الحشر آية ٧.
(٣) سورة الأحزاب آية ٢١.
(٤) سورة آل عمران آية ٣١.

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٢).

● اتباع السلف السنة:

ومن هنا حرص السلف على الامتثال التام، مدركين أن ما جاءت به السنة هو الخير الحقيقى لدنياهم وأخراهم، لقد فهموا الإسلام فهما سليما قويما، أدى بهم هذا الفهم إلى إدراك حقائق الأمور فلم تغرهم المظاهر، ولم تستول عليهم المكاسب الظاهرية، وإنما نظروا نظرة عمق وإدراك، يصور شيئا من ذلك ما أخرجه مسلم عن رافع بن خديج قال «كنا نُحاقل الأرض على عهد رسول الله ﷺ، فنُكْرِيها بالثلث والربع والطعام المسمى، فجاءنا ذات يوم رجل من عمومتى فقال: نهانا رسول الله ﷺ عن أمر كان لنا نافعا، وطواعية الله ورسوله أنفع لنا، نهانا أن نحاقل بالأرض فنكريها على الثلث والربع والطعام المسمى، وأمر رب الأرض أن يَزْرَعها أو يُزْرِعَها، وكره كراءها، وما سوى ذلك»(٣) لقد كانوا يؤجرون الأرض بثلث ما يخرج منها أو بربعه، وكانوا يؤجرونها أيضا على طعام مسمى كأردب من قمح، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك، وأمر صاحب الأرض أن يزرعها بنفسه، أو يعطيها لمن يزرعها بدون أجرة، والشاهد فى الحديث قول الصحابى «نهانا رسول الله ﷺ عن أمر كان لنا نافعا، وطواعية الله ورسوله أنفع لنا» لقد نهاهم رسول الله ﷺ

(١) سورة النور آية ٦٣.
(٢) سورة النساء آية ٦٥.
(٣) أخرجه مسلم فى البيوع باب كراء الأرض بالطعام ٣/ ١١٨١.

عن أمر يرونه نافعا، لكنهم تركوه لإيمانهم بأن طواعية الله ورسوله أنفع لهم، وهذا يدل على تمام الامتثال، وعمق الفهم، فليست الأمور بالمنفعة الذاتية، وإنما العبرة بما هو نافع للأمة، وليس الإيمان هو قبول ما يرضيك، والرفض لغيره، إنما الإيمان: الرضا والتسليم لكل ما جاءنا به رسول الله ﷺ عن الله سبحانه وتعالى.

لقد كان صدر الأمة فى قمة الامتثال، وماذا بعد أن جادوا بأرواحهم فى سبيل نصرة دين الله تعالى، وهجروا أوطانهم، وترك أموالهم وديارهم، وأهلهم. ومن راجع كتب السير والمغازى وجد من ذلك الشىء الكثير، فلقد أمر ﷺ حذيفة فى غزوة الأحزاب أن يذهب إلى المشركين فيأتى بأخبارهم، وكان حذيفة يرتجف من البرد ويرتجف خوفا، لكنه ما أن أمره ﷺ بذلك إلا أسرع وامتثل، وأمر ﷺ الزبير بن العوام أن يذهب إلى بنى قريظة، وكانوا قد نقضوا العهد، وتحولوا مع الأحزاب، أمره ﷺ أن يذهب إليهم، يهددهم، وربما قاتلهم، وهو رجل واحد، وهم تسعمائة مقاتل حتى قالت أم الزبير، صفية عمة رسول الله ﷺ: واَحدِى يا رسول الله!! وامتثل الزبير، وذهب إلى بنى قريظة، سرية وحده، لم يثنه تفرده، ولا دعته رهبة الموقف إلى الانزعاج وعدم الامتثال، لا، لقد كانوا يمتثلون أمره ﷺ بكل رضا وطواعية، فى المنشط والمكره، فيما يسعدهم، وفيما يستثقلونه، فرضى الله عنهم وأرضاهم.

• ترك البدعة:

وكما كانوا حريصين على تمام الاتباع لسنته ﷺ فلقد كانوا حريصين على البعد عن البدعة، وعن كل ما ليس من الدين، كانوا حريصين على اتباع ما جاء به الشرع، وعلى ترك ما لم يأت به الشرع، كانوا فاهمين

لقول الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١)، وكانوا واعين قوله ﷺ: «لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ بعدى عنها إلا هالك»(٢).

لقد كان أهل القرون السابقة مستقيمين، يسيرون على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ثم حدث فى الفترة الأخيرة أن جهل كثير من المسلمين الإسلام!!

وتجبر كثير من الحكام وطغى على العلماء!!

وكثرت الأفكار الهدامة، والتيارات المضلة!!

وضُيِّق على الدعوة الإسلامية!!

فنتج عن هذا قلة الملتزمين بالسنة، وكثرة البدع والضلالات.

إن نظرة عامة على أحوال الأمة تجعل الإنسان يوقن أن البدع قد كثرت، وأن عُبَّاد الهوى قد وجدوا، تجعله يتضح له أن الدعوة الإسلامية قد ظُلمت فى ديارها وفى غير ديارها، بينما الدعوة لِلَّهو والانحراف قد اشتدت وزادت، فها هى وسائل الإعلام وأجهزة اللهو قد عمت البيوت تبث سمومها للصغير والكبير، وها هى الانحرافات قد خطط لنشرها بين الأمة، هذا ما أخبر ﷺ أنه سيكون، وهو إذ يخبر بوجوده فإنما يحذر منه، فلتحذر الأمة مخالفة السنة، ولتعرف قدر دينها، وأنه سبيل السعادة كل السعادة فى الدنيا والآخرة، ولتعرف الأمة كيف تتبع دينها، فلتتمسك بالسنة، ولتحارب كل بدعة، ولتأخذ على يد كل مبتدع، تمنعه من بدعته، وتلزمه باتباع السنة.

---

(١) سورة القصص آية ٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة جـ ١ ص ٢٦ ـ ٢٧ رقم ٤٨.

• قدر العلم:

ولتدرك الأمة أن عظمة الدين الإسلامى، وسمو السنة النبوية ليس كافيا لإبقاء أبناء الأمة على المنهج الذى يرضى الله ورسوله، فإن الجهل يجعل الإنسان لا يعرف عظمة التشريع، ولا سمو السنة، فإذا اجتمع الجهل بالإسلام مع المغريات بالانحراف والضـلال انحرف الإنسان، لا لأن عظمة التشريع لم تقنعه، وإنما لأنه جهلها، فجره بريق الغواية والضلال، يوضح هذا حديث الصحابى الجليل أبى الدرداء إذ يقول: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء[١] ثم قال: هذا أوان يختلس العلم من الناس[٢]، حتى لا يقدروا منه على شىء، فقال زياد بن لبيد الأنصارى: كيف يختلس منا، وقد قرأنا القرآن، فوالله لَنَقْرَأَنَّهُ، ولنُقْرِئَنّه نساءنا وأبناءنا؟ قال: ثكلتك[٣] أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغنى عنهم؟ . . الحديث»[٤] إن نصوص الوحى تحتاج من الأمة أن تتعلمها وأن تعمل بها، وأن يحمل أهلُ الحق أهلَ الباطل عليها، حينئذ تصل الأمة إلى العزة التى كتبها الله للمؤمنين، ويُمكِّنُ الله لهم التمكين الذى وعد به الصالحين.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[٥].

(١) أى رفع بصره إلى أعلى.
(٢) أى يسلب العلم من الناس.
(٣) أى فقدتك، وهى كلمة تقال للتعجب.
(٤) أخرجه الترمذى فى العلم باب ما جاء فى ذهاب العلم ٧/ ٤١٢ وحسنه.
(٥) سورة الحج آية ٤٠ ـ ٤١.

• وجه إعجاز الحديث:

فى العهد النبوى الشريف، فى فترة تنزل الوحى، فى أطيب وقت وأطهره، فى زمن استقامة الأمة على كتاب الله وسنة رسوله، تعيش بأطيب مطعم، والأخوة قوية بين أفرادها، فى هذا الوقت الطيب لا يتصور عقل أن تتغير الأمور وتتبدل الأحوال، لكن المعصوم ﷺ الموحى إليه يبين أن خللاً سيطرأ، وأن انحرافا فى تصرفات كثيرة سيوجد، سيكثر الدرهم الحرام، ويعز الدرهم الحلال، ستضعف الأخلاق حتى يندر الأخ الناصح الأمين، ستظهر البدع، ويصبح العمل بالسنة نادرًا، يخبر ﷺ بذلك فيتحقق ويقع ذلك فى زماننا، فما أقل الدرهم الحلال فى زماننا، لقد كثر الكسب الحرام، حتى أصبح الإنسان لا يستطيع أن يحكم على أى درهم أنه لم يستعمل فى حرام، وأصبح يتعامل مع الناس وهو واثق أن أموالهم قد استعملت فى حرام، وكثرت الشبه وتجرأ الناس عليها، وأصبحوا يخادعون أنفسهم فيطلقون على الحرام مكروها تخفيفا لوقعه على النفس، ولا يحتاطون ولا يتورعون بل وجدت فى الأمة جرأة غريبة على الحرام، حتى عز الدرهم الحلال.

وهذا التعبير النبوى «درهم حلال» فى غاية الدقة، فلقد عز الدرهم الحلال بالذات، فالحرام فى النقود أكثر من غيرها، فالطعام مثلا لم يعز الحلال فيه، ولازال الفلاح الذى يعمل فى حقله طعامه حلال، ولم تعز اللقمة الحلال عنده، وكذلك الراعى فى غنمه، لا زال طعامه حلالا، إنما كثر الحرام فى النقود، فعمت الشبه جل النقود، فضربتها الربا من ناحية، وضربتها أبواب الحرام من نواح.

وتحقق ما أخبر به ﷺ، وندر الأخ الوفى، الأمين إذا استشرته، المخلص إذا عاملته، الصادق فى خلقه ووده، وأصبحت المنافع هى

المسيطرة على علاقات الناس، والمصلحة هى الدافع للتقرب والتعامل، ولا أمانة ولا صدق، حتى أصبح الأخ الملتزم بالخلق الإسلامى سعادة كبرى لمن يجده، إننى إذا وجدت أخا صادقا فى أى مكان استبشرت واسترحت، فلقد وجدت الصدق والوضوح،وجدت الأمانة والإخلاص، وجدت الذى يعمل ابتغاء وجه الله، وجدت إنسانا له عقيدة تفرض عليه حسن الخلق، فيأتى منه كل خير، وهو بمنأى عن الشر.

وتحقق ما أخبر به ﷺ فقل الامتثال للسنة، وأصبح الملتزمون قلة، وأصبحت البدع فى الأمة كثيرة، بل وغلبت البدع على الكثيرين حتى أصبحوا يرونها ليست عملا محرما، أصبحوا من شدة إِلْفِهِمْ لها يظنونها الأصل!! ولا يعرفون ضلالها. ومنهم من انعكس فكره وتشتت أمره فأصبح يرى السنة تأخرا، ويرى البدعة تقدما!! فمثلا لو قلنا لمشجعى لعبة الكرة: هذا لا يصح، والله سائلكم ومحاسبكم على هذه الأوقات التى تضيعونها فى مشاهدة هذه الألعاب، لو قلنا لهم هذا ماذا سيكون جواب معظمهم إن لم يكن كلهم؟ إنهم سيتهمون قولنا هذا بالتخلف وبالرجعية!! ويظن المساكين أن ما هم فيه هو التقدم، هو الحضارة!! سبحان الله!! صار الحق عند هؤلاء باطلا، وصار الباطل حقا، ومثل هؤلاء كثيرون ممن هم على باطل، كالنساء العاريات، أو اللائى يدرن فى الأسواق، والرجال الذين يرتشون ويسرقون، والذين يستمعون الأغانى، ويقضون أوقاتهم فى المجون والخلاعة، هؤلاء وأمثالهم كثيرون قد خالفوا السنة وابتعدوا عن هَدْى رسول الله ﷺ، وتحقق ما أخبر به من ندرة السنة التى يعمل بها.

إن أمورًا كثيرة أهملها معظم الأمة وخالفوا فيها السنة، إذا دعوت الكثيرين إليها وجدتهم منصرفين تماما، وكأن هذه الأمور ليست من

دينهم، فإذا حدثتهم عن تماسك الأمة واهتمام كل مسلم بمصلحة إخوانه المسلمين اهتمامه بمصلحته وجدت فيهم جهلا بذلك، بل ووجدت فيهم عكس ذلك، وجدت فيهم الأنانية، والحرص على المصلحة الخاصة، حتى ولو كانت على حساب مصلحة أعظم للأمة. وإذا حدثتهم عن الجهاد الذى به عز الأمة، وهو أصل من أصول الإسلام، وفرض عين بعد أن استولى الكفار على كثير من أرض المسلمين، إذا حدثتهم عن ذلك على أنه من السنة ويجب القيام به وجدت فيهم انصرافا، وإهمالا، حتى تجد نفسك تلقائيا تردد هذا الحديث «سيأتى عليكم زمان لا يكون فيه شيء أعز من ثلاث: درهم حلال أو أخ يستأنس به، أو سنة يعمل بها».

وإذ يخبر ﷺ بندرة هذه الأشياء الطيبة، إنما يخبر خبر المحذر الناصح، فهو يحذر الأمة من قلة هذه الأشياء وكثرة ضدها، يحذرها من كثرة المال الحرام، ويحذرها من انحدار الأخلاق، وشيوع الأمراض الخلقية بين أفرادها، ويحذرها من الانحراف عن السنة، وهو ﷺ المرغب لها فى عكس ذلك بقوله «من أكل طيبا، وعمل فى سُنَّة[1]، وأمن الناس بوائقه[2] دخل الجنة. قالوا يا رسول الله إن هذا فى أمتك اليوم كثير؟ قال: وسيكون فى قرون بعدى»[3].

• الدروس المستفادة من الحديث:

١ ـ ستظهر فى الأمة أمور تؤدى إلى شيوع المعاملات التى ليست على وفق الشرع، حتى يكثر النقد الحرام، وعلى الأمة أن تحرص على القضاء

(١) أى كانت أعماله كل عمل منها وفق سنة من سنن رسول الله ﷺ.

(٢) أى شروره وأذاه.

(٣) أخرجه الحاكم ٤/ ١٠٤ فى أول كتاب الأطعمة، وصححه وأقره الذهبى، وأخرجه الترمذى فى القيامة الباب الأخير منها قبل أبواب صفة الجنة ٧/ ٢٢٣ تحفة.

على هذه الأمور، وعلى أن تظل المعاملات فيها على وفق الشرع، لا تستهويها المغريات بالحرام، ولا تضعف أمام سطوة الأمم الأخرى، فإن عزها مرهون بالاستقامة على شرع الله، كما قال سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [1].

٢ ـ على الأمة أن تحرص على خلقها المقتبس من القرآن والسنة، لا تخدع بغيره، ولا تقبل أن يكون بعض أفرادها على غيره، فالمجتمعات لا تعيش حياة السعادة إلا بالأخلاق الإسلامية، وبدونها تعيش حياة الأشقياء التعساء.

٣ ـ الالتزام بهَدْى رسول الله ﷺ سبب سعادة الأمة فى الدنيا والآخرة، فلتحرص الأمة على أن تستقيم على هذا الهَدْى، والذى يتمثل فى القرآن الكريم والسنة النبوية، ولتحذر الانحراف عنه فتضل، كما قال ﷺ: «إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا كتاب الله وسنة نبيه»[2].

٤ ـ هذا الحديث علم من أعلام نبوته، ودليل ساطع على رسالته ﷺ، وأيضا دليل على صحة السنة النبوية، وأنها من عند الله تعالى، لم يعترها تغيير ولا تبديل، فإن الأمور التى أخبر ﷺ أنها ستكون قد تحققت وفق ما أخبر، فسبحان الله الذى أحاط بكل شىء علمًا، وعلَّم من شاء من خلقه ما شاء، وصلى الله وسلم على من علمه الله ما لم يعلمه مخلوق سواه.

---

(١) سورة المنافقون آية ٨.

(٢) أخرجه الحاكم فى العلم باب خطبته ﷺ فى حجة الوداع ١/٩٣، وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى كتاب آداب القاضى باب ما يقضى به القاضى ١٠/١١٤ كلاهما عن ابن عباس، وله شاهد عن أبى هريرة أخرجه الحاكم والبيهقى فى التخريج السابق.

الإخبار عن الإقبال على الدنيا وترك الجهاد

عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَة، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَر، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْع، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ، سَلَّطَ الله عَلَيْكُم ذُلاً لاَ يَنْزِعُهُ حَتَى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»(١).

وفى رواية «إِذَا ـ يَعْنِى ـ ضَنَّ النَّاسُ بالدِّينَار وَالدِّرهم، وَتَبَايَعُوا بالعِيْن، وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَر، وَتَرَكُوا الجِهَادَ فى سَبِيلِ الله، أَنْزَلَ الله بِهِمْ بَلاَءً، فَلَمْ يرفَعْهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُراجعُوا دِينَهُم»(٢).

• المعانى:

«إذا تبايعتم بالعينة» العينة: نوع من أنواع الحيل، يتوصل بها الحريصون على المال، الذين لا يبالون بالحرام أم بالحلال اكتسبوه! فيأخذ المرابى قطعة قماش مثلا، ويبيعها للمحتاج بألف يدفعها الفقير بعد عام، ثم يشترى المرابى هذه القماشة بستمائة يدفعها للمحتاج حالا، فيكون قد أعطى ستمائة، وأخذها ألفا، وهذا هو الربا بعينه، لكنه احتال بالقماشة أو نحوها، وجعل العقد عقد بيع وشراء، وكل ذلك من الحيل التى يبطلها حديث رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» فمن عمل عملا ظاهره الحل لكنه أراد أن يحتال به للوصول إلى الحرام فهو آثم، والله

(١) أخرجه أبو داود فى البيوع باب فى النهى عن العينة ٣/ ٢٧٤.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٢/ ٢٨، وصححه من هذا الطريق ابن القطان، وأخرجه أحمد أيضًا ٢/ ٤٢ ـ ٨٤.

سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى.

وقد سئل ابن عباس عن رجل باع من رجل حريرة بمائة ثم اشتراها بخمسين؟ فقال: دراهم بدراهم متفاضلة، دخلت بينهما حريرة. وقال أيضا: اتقوا هذه العينة، لا تبيعوا دراهم بدراهم بينهما حريرة. ومرة أخرى قال: إن الله لا يُخدع، هذا مما حرم الله ورسوله.

وروى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أنه سئل عن العينة ـ يعنى بيع الحريرة ـ فقال: إن الله لا يخدع هذا مما حرم الله ورسوله[1].

وفى رواية أخرى «وتبايعوا بالعين» والعين: المال الحاضر الذى يدفعه المرابى نقدًا، وله فى ذمة المحتاج أكثر منه، ومنه سميت «العينة» فإنها مبنية على حرص المحتاج على الحصول على المال الحاضر لحاجته إليه، ومن أجل ذلك يدفع المقابل أكثر.

«وأخذتم أذناب البقر» أى سرتم خلف ذيول البقر. والمراد: اشتغلتم بالحرث والسقى، اللذين يجعلانكم تسيرون خلف البقرة التى تحرث، أو التى تسقى.

وقد جاء فى رواية «اتبعتم أذناب البقر» وفى أخرى «ولزموا أذناب البقر» وكل ذلك يفيد الدوام والاستمرار خلف البقر فى الحرث والسقى.

«ورضيتم بالزرع» رضيتم أن يكون غايتكم، وأن يكون همكم وشغلكم، فقضيتم العمر فيه، وأفنيتم وقتكم فى جمع المال، ولم تجعلوا للجهاد نصيبا.

«وتركتم الجهاد» المفروض عليكم، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾[2] الجهاد الذى به عز الأمة، وإشاعة العدل فى الأرض، الجهاد

(١) كلام ابن عباس وأنس من عون المعبود ٩/٣٣٨.
(٢) سورة البقرة آية ٢١٦.

الذى به إحقاق الحق، وإبطال الباطل.

«سلط الله عليكم ذُلاً» جاء فى رواية أخرى «ليلزمنكم الله مذلة فى رقابكم»[١] وفى رواية «أرسل الله عليهم ذلاً»[٢] وفى رواية «أدخل الله عليهم ذلاً»[٣].

وفى الرواية الثانية التى معنا فى صدر الموضوع «أنزل الله بهم بلاء» وفى رواية «سلط الله عليهم بلاء»[٤] فالمراد بالبلاء فى الرواية الثانية الذل الذى فى الرواية الأولى، والمراد: أن الله سبحانه وتعالى يسلط عليهم الصغار والمسكنة، ويحرمهم من العزة والكرامة، نظير ما قصروا فى نصرة دينه.

«لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» أى أن الذل الذى يسلط عليكم، وينزل بكم يظل ملازما لكم، لا يفارقكم حتى تتركوا الإقبال على الدنيا، وتعودوا إلى الجهاد والالتزام بدين الله تبارك وتعالى، كما جاء فى رواية أخرى «ليلزمنكم الله مذلة فى رقابكم لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا على ما كنتم عليه»[٥].

• راوى الحديث:

عبد الله بن عمر بن الخطاب: الصحابى الجليل بن الصحابى الجليل، أسلم وهو صغير، وهاجر مع أبيه، وهو فى العاشرة من عمره.

---

(١) عند أحمد ٢/ ٤٢.
(٢) عند الطبرانى فى الكبير ١٢/ ٣٣١.
(٣) عند أبى نعيم فى الحلية ١/ ٣١٤.
(٤) عند الطبرانى فى الكبير ١٢/ ٣٣١.
(٥) عند أحمد ٢/ ٤٢.

تعلم من رسول الله ﷺ، وجالسه طويلا مع الذاكرة القوية والفهم الثاقب، وعاش بعده ﷺ طويلاً، فجمع ما كان عند الصحابة من علم، وتتلمذ عليه الكثيرون من التابعين، ومن هنا قال محمد بن شهاب الزهرى للإمام مالك: لا تعدلن عن رأى ابن عمر، فإنه أقام بعد رسول الله ﷺ ستين سنة فلم يَخْفَ عليه شىء من أمر رسول الله ﷺ، ولا من أمر أصحابه[1].

لقد كان ابن عمر مدرسة جامعة، فلقد تعلم كثيرا، وعلَّم الكثيرين، وعمل بما علم فكان خير قدوة.

لقد كان ممتثلا لأوامر الإسلام خير امتثال، فما من أمر فى القرآن الكريم، وما من أمر فى السنة النبوية إلا وتجده مجتهدا فى فعله، وما من نهى فى القرآن أو فى السنة إلا وتجده مبتعدا كل البعد عنه:

ففى الأمر بالجهاد فى سبيل الله نجد ابن عمر ممتثلا كل الامتثال، حتى إنه يذهب فى غزوة أحد، وكان ابن أربع عشرة سنة، وكان عظمه لم يشتد، فيستصغره رسول الله ﷺ فيرده، لكنه يعيد الكرة فى غزوة الخندق، فيجيزه رسول الله ﷺ، فيشهد المشاهد بعدها، حتى إنه يبايع المصطفى ﷺ تحت الشجرة على الموت مرتين، تلك البيعة التى قال الله فيها: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[2].

وبعد وفاة رسول الله ﷺ يستمر مجاهدا، يشارك فى الفتوحات، ويسهم فى نشر الدعوة، فشهد فتح مصر وإفريقية.

لقد قرأ ابن عمر الآيات التى تحث على اتباع رسول الله ﷺ، كما فى

(١) مستدرك ٣/ ٥٥٩.
(٢) سورة الفتح آية ١٨.

قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [(١)]، فامتثل بدقة، حتى إنه لما سمع رسول الله ﷺ يقول: «لو تركنا هذا الباب للنساء» لأحد أبواب مسجده ﷺ، امتثل ابن عمر، فلم يدخل من هذا الباب مطلقا، سواء كان هناك نساء أو لا.

ولما رسم رسول الله ﷺ لأصحابه المنهج فى تلقى العلم، والذى منه «نضر الله امرءًا سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع»[(٢)] وقف ابن عمر مع كلماته ومنها «فبلغه كما سمعه» فاجتهد فى نقل النص كما سمعه، لا يقدم ولا يؤخر، يوضح ذلك موقف له مع جلسائه، فلقد حدثهم بحديث: «بنى الإسلام على خمس: على أن تعبد الله وتكفر بما دونه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام رمضان» فرواه أحد جلسائه هكذا «بنى الإسلام على خمس: على أن تعبد الله وتكفر بما دونه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان..» فقال ابن عمر: لا، اجعل صيام رمضان آخرهن، كما سمعتُ من رسول الله ﷺ[(٣)].

إنه ـ رضى الله عنه ـ لم يقبل تقديم ركن على ركن، وإنما دعاه التزامه إلى أن ينقل كما سمع، وأن يحفظ تلاميذه كما سمع، وأن يحثه على الالتزام، حتى إنه لا يقرهم على غير ذلك.

لقد جمع ابن عمر بين الدقة فى العلم، والدقة فى العمل، فما سمعه حفظه كما سمعه، وما سمعه عمل به بكل دقة، حتى قالت أم المؤمنين

---

(١) سورة النساء آية ٥٩.

(٢) أخرجه الترمذى فى العلم باب فى الحث على تبليغ السماع ٧/٤١٧ عن ابن مسعود، وقال: حسن صحيح.

(٣) الكفاية ص ٢٧١.

عائشة: ما رأيت أحدا ألزم للأمر الأول من ابن عمر[١]. تريد ـ رضى الله عنها ـ أنه وإن كان الجميع ثابتا على ما كان عليه رسول الله ﷺ، فإن ابن عمر أكثرهم ثبوتا على هذا الحق.

ولم يقف ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عند حد العلم والامتثال، وإنما كان مجتهدا فى عبادة الله سبحانه، متحببا إلى ربه، متقربا إليه سبحانه، يسمع الآية من القرآن الكريم فتبكيه، فعن عبيد بن عمير أنه تلا قوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ**﴾ [٢]، فجعل ابن عمر يبكى حتى لثقت ـ ابتلت ـ لحيته وجيبه من دموعه.

وعن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**﴾ [٣] بكى حتى يغلبه البكاء.

وعن نافع أيضا قال: ما قرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى: ﴿**وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [٤]، ثم يقول: إن هذا لإحصاء شديد.

وقرأ ﴿**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [٥] فبكى حتى سقط، ولم يستطع قراءة ما بعدها.

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [٦] قدَّم

(١) المستدرك ٣/٥٥٩.
(٢) سورة النساء آية ٤٠.
(٣) سورة الحديد آية ١٦.
(٤) سورة البقرة آية ٢٨٤.
(٥) سورة المطففين آية ٦.
(٦) سورة آل عمران آية ٩٢.

غالى ماله لله، وتصدق بلذيذ طعامه، وأعطى الفقراء غالى ملابسه.

وكان ـ رحمه الله ـ مجتهدًا فى الصلاة، حتى قال نافع حينما سئل: ما كان يصنع ابن عمر فى منزله؟ قال: لا تطيقونه، الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما.

وقال نافع أيضا: كان ابن عمر يقرأ فى صلاته فيمر بالآية فيها ذكر الجنة، فيقف ويسأل الله الجنة ويدعو ويبكى، ويمر بالآية فيها ذكر النار فيقف فيدعو ويستجير بالله عز وجل.

كما كان ـ رضى الله عنه ـ كثير الحج، كثير الصدقة، يصور شيئا من كثرة تصدقه قول نافع: كان ابن عمر ليفرق فى المجلس بثلاثين ألفا، ثم يأتى عليه شهر ما يأكل مزعة لحم[1]».

مات ابن عمر ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ثلاث وسبعين، وقد بلغ خمسا وثمانين سنة، ودفن فى الحرم المكى بواد من أودية مكة يقال له «فخ» يقال: هو وادى الزاهر، وقيل: دفن بذى طوى[2].

رضى الله عنه وأرضاه، ورضى عن الصحابة والتابعين، وجعلنا خير خلف لخير سلف.

---

(١) قطعة صغيرة من اللحم.

(٢) مصادر ترجمته: مستدرك الحاكم ٣/٥٥٦. الزهد للإمام أحمد ص ٢٤٠. الإصابة ٢/٣٤٧.أسد الغابة ٣/ ٣٤٠. تهذيب التهذيب ٥/٣٢٨. مجمع الزوائد ٩/٣٤٦. جامع الأصول ٩/ ٦٤. البداية ٩/ ٤.

• شرح الحديث:

الشأن فى الأمة الإسلامية أنها طيبة المطعم، طيبة الكسب، فمطعمها من حلال، وكسبها من حلال. وما اكتسبه المسلم من حلال يجود ببعضه للفقراء المحتاجين، أما إذا وجد فى الأمة جائع فالكل يسارع لإطعامه وإعطائه.

وهكذا فأمتنا الإسلامية مالها مكتسب من حلال، وينفق فى حلال، وفيه حق للفقراء والمحتاجين، يخلفه الله على المنفقين المحسنين، ويعوضهم عما أحسنوا والآيات والأحاديث فى ذلك كثيرة، ومنها قوله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيِّبٌ[1] لا يقبل إلا طيِّبًا[2]. وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين».

فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ**﴾ [3]. وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ [4]. ثم ذكر ﷺ الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر. يمد يديه إلى السماء. يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام. فأنى يستجاب لذلك؟»[5].

إنها أمة لا تحتال لكسب الحرام، فعقيدتها تمنعها من ذلك، وإيمانها بأن الله سبحانه يعلم السر وما هو أخفى من السر يجعلها لا تقترب من

---

(١) أى منزه عن النقص.

(٢) أى لا يقبل سبحانه من الأعمال إلا ما كان سليمًا، فلا يقبل الصدقة إلا إذا كانت من مال حلال.

(٣) سورة المؤمنون آية ٥١.

(٤) سورة البقرة آية ١٧٢.

(٥) أخرجه مسلم فى الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ٢/٧٠٣ رقم ١٠١٥.

ذلك، وإنما هى حريصة كل الحرص على الكسب الحلال الطيب.

بيد أن أمراض الأمم الأخرى يمكن أن تظهر فى هذه الأمة، فالأمم الأخرى، وبخاصة اليهود يجيدون الحيل، ويحرصون عليها، وربما تبعهم بعض المسلمين فى ذلك، يدفعهم إغراء المادة، ولم يمنعهم دينهم لجهلهم به.

• التحذير من الكسب الحرام:

وقد حذر ﷺ من الحيل الموصلة إلى المحرم، فقال ﷺ: «قاتل الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها»[1] و«قاتل الله اليهود» أى لعن الله اليهود. و«جملوها» يعنى أذابوها، وخلطوها، ليزول عنها اسم الشحم، ويحدث لها اسم آخر، وهو «الودك» وجاء حديث آخر عمم فيه ﷺ كل الحيل فحذر منها، وذلك قوله ﷺ: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»[2] إنه ﷺ يحذر من الحيل عموما، فلا يقترب المسلم مما حرم الله، ولا يتفنن فى ابتكار حيل للوصول لهذا المحرم، فإن هذا من فعل اليهود، وقد لعن ﷺ فاعله.

وفى الحديث الذى نحن بصدد شرحه يبين ﷺ شؤم الاحتيال على الحرام ويذكر نموذجا منه هو بيع العينة، فإذا أراد شخصان التعامل بالربا، واحتالا على ذلك بإنفاذه فى صورة بيع، فباع الغنى سلعة للفقير بمائتين يدفعها بعد فترة، ثم اشترى الغنى نفس السلعة من الفقير بمائة يدفعها له حالا، فبدهى أن البيع غير مقصود، إنما المقصود أن يدفع الغنى الآن مائة للفقير، يأخذها مائتين بعد مدة زمنية وهذا الاحتيال دليل ضعف الدين،

---

(١) أخرجه البخارى فى البيوع باب لا يذاب شحم الميتة ٤/ ٤١٤.

(٢) أخرجه ابن بطة فى إبطال الحيل ص ٤٧.

وانحدار الخلق، وبرهان على حب الدنيا والحرص عليها، وإن أمة تحرص على الدنيا وتترك المعالى لهى أمة رخيصة متهالكة، ومن هنا حذر ﷺ من هذا، وبين أنه إذا ظهر هذا الاحتيال فى الأمة أورثها ذلا، وسقطت من عين الله تعالى.

إن الاحتيال على الربا بإنفاذه فى صورة بيع لا يؤدى لحل الربا، ولا يجعل الصفقة بيعا، وهى صفقة كل من شارك فيها ملعون، فعن جابر ابن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه. وقال: هم سواء»[1]. فالاحتيال على الربا، لا يخرج الصفقة عن الربا، وفى هذا الحديث أن آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه كل منهم ملعون، وهم جميعا آثمون.

إن روح الإسلام بما تفرضه من تعاون ومودة، ورحمة ورفق تدعو هذا الغنى لا إلى أن يحتال لأخذ ماله زائدا، ويكتب فى المرابين، وإنما تدعوه إلى أن يقرض هذا الفقير المحتاج، ويكتب فى المحسنين. إن وقوع المحتاجين فى الربا إنما سببه إمساك الواجدين للمال، وقد قال على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ: سيأتى على الناس زمان عضوض، يعض الموسر على ما فى يديه ولم يؤمر بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ويبايع المضطرون، وقد نهى النبى ﷺ عن بيع المضطر»[2].

وروح الإسلام أيضا التى تدعو إلى العمل والكسب، وإلى الاجتهاد والجد، وإلى الاقتصاد فى النفقة تدعو هذا المحتاج لا إلى أن يأخذ المال

(١) أخرجه مسلم فى المساقاة باب لعن آكل الربا. ومؤكله ٣/١٢١٩. وقد سقت أحاديث أخرى فى هذا الموضوع فى شرح حديث «يأتى على الناس زمان يأكلون الربا، فمن لم يأكله أصابه من غباره.

(٢) أخرجه أبو داود فى البيوع باب فى بيع المضطر ٣/ ٢٥٥ والآية من سورة البقرة رقم ٢٣٧.

بالربا، وإنما عليه الاجتهاد فى الكسب الحلال كما قال ربنا سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ (١) وعليه بالاقتصاد فى النفقة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢)، وقال ﷺ: «ما عال من اقتصد» (٣) أى ما افتقر من أنفق فى حدود طاقته وكسبه، فإذا احتاج مع الحرص على الكسب، والاقتصاد فى النفقة، فليقصد أهل الخير ممن يقرضون، ولا يجوز له أن يذهب إلى المرابين، فإنه يأثم بذلك، ولا يشفع له أنه محتاج.

إن الشأن فى الأمة الكريمة المتعاونة أن المحتاج لا يأخذ بالربا، فليس هناك من يقبل الغرم وإنما يأخذ المحتاج بالربا عند انتشار الشح، وشيوع الحرص، والإقبال على الدنيا، والإعراض عن الآخرة، وفى الحديث الذى معنا يحذر ﷺ من هذه الحالة، يحذر من الحرص على المال حتى يُجمع ولو من حرام، يحذر من أن تشغلنا أعراض الدنيا عن الجهاد، فينذر ﷺ أن الأمة إذا ظهر فيها التبايع بالعينة والتى هى حيلة للربا، وانهمكوا فى الزراعة وكسب المال، وتركوا الجهاد، فإن الله تبارك وتعالى ينزل عليهم ذلا لا يفارقهم إلا إذا تابوا إلى الله وأنابوا، فالتزموا بدينهم، والذى لا يوجد معه حرص على الدنيا، وإنما يحرص المسلم معه على أعمال الآخرة، آخذا من الدنيا بقدر حاجته فقط، مدركا أنه لم يخلق للدنيا، وإنما خلق لعبادة الله، ونصرة دينه سبحانه.

---

(١) سورة الجمعة آية ١٠.

(٢) سورة الإسراء آية ٢٩.

(٣) أخرجه أحمد ١/٤٤٧ والطبرانى فى الكبير والأوسط وفى أسانيدهم إبراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف. مجمع ١٠/٢٥٢ لكنه يرتقى بشواهده.

إن الأمة الإسلامية لا يليق بها أن تجعل جهدها للكسب وجمع حطام الدنيا، وتترك الجهاد الذى به عزتها، وبه نصرة دين الله تبارك وتعالى، وإنما عليها أن تجعل الجهاد هدفها الأسمى والأعلى، وكل حياتها تدور فى فلكه، وكل الأحوال لصالحه.

• بين الجهاد والزراعة:

إنه ﷺ يعيب علينا ترك الجهاد، العمل الفاضل العظيم، العمل الذى يرفع شأن الأمة ويشيع العدل فى الأرض، يعيب علينا تركه، وأن نستبدل به لزوم ذيول البقر، والبقاء فى البلاد للحرث والسقى، وجمع المال، كما قال فى حديث آخر «لا تتخذوا الضيعة فترغبوا فى الدنيا»(١) والضيعة: الصنعة والعقار والأرض التى يأتى منها كسب وإيراد لصاحبها، والمعنى: لا تشتغلوا بالأمور التى تحصلون بها أموالا، فإن ذلك يلهيكم عن الآخرة، ويرغبكم فى الدنيا، وإنما اجعلوا شغلكم الشاغل طاعة الله، أما أمور الدنيا فلتكن بمقدار الضرورات.

والإسلام لا ينهى عن الزراعة وغيرها من أبواب الكسب، وإنا يدعو إليها ويحث عليها، وفى ذلك يقول ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»(٢)، وإنما يذم الإسلام الزراعة والمشاغل عموما إذا ألهت عن التكاليف الشرعية، فقد قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (٣). وفى الحديث

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد باب ما جاء فى هم الدنيا وحبها ٦/ ٦٢٠ وحسنه. وأخرجه أيضًا أحمد والحاكم.

(٢) أخرجه البخارى فى الحرث والمزارعة فى الباب الأول ٥/ ٣.

(٣) سورة المنافقون آية ٩.

الذى معنا يبين ﷺ أن نزول الذل بالأمة إنما يترتب على اشتغالها بالدنيا وتركها الجهاد، مما يدل على أنهم لو اكتسبوا بالحلال بمقدار ضرورات الحياة وأقاموا الجهاد وجدّوا فى طاعة الله تعالى؛ فكسبهم هذا ليس مذموما، بل هو محمود، ولهم عليه أجر، لأنه أصبح طريقا للقيام بالتكاليف الشرعية، فأصبح طاعة.

• مآسى المادية:

إن جمع الماديات يورث صاحبه من الأضرار الدنيوية والأخروية الكثير:

* فجامع الماديات يدعوه حرصه إلى الكسب الحرام، ويدفعه طمعه إلى تقديم الماديات على الطاعات، وربما إلى ترك الطاعات.

* إن الحريص على المادة مهموم مغموم، خائف مضطرب، يشتد حزنه إذا فكر فى مصيبة قد تعتريه فى ماله، ويزيد اضطرابه إذا رأى الأمر على غير حاله، أما الذين غايتهم طاعة الله ورضوانه، فليسوا من هذا فى شىء وإنما هم مطمئنون مسرورون، علموا أن الله قد تكفل بالأرزاق، فاطمأنوا، وعلموا أن الخير فى بذل النفس والمال فى سبيل الله فبذلوا، فجاءهم السعد من أوسع أبوابه، وماذا بعد أن قال الله تعالى: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [(١)]. ويقول ﷺ: «عليكم بالجهاد فى سبيل

---

(١) سورة النور آية ٣٦ ـ ٣٨.

الله فإنه باب من أبواب الجنة يُذهب الله به الهم والغم»[١].

* إن الحريص على الماديات الذى ألهته المادة عن نصرة دين الله، والجهاد فى سبيله سبحانه، عرض نفسه لسخط الله وغضبه، وحرم نفسه من لطف الله وعونه، يفهم هذا من قول الله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢]. ومن قول رسول الله ﷺ: «من لم يغز، أو يجهز غازيا أو يخلف غازيا فى أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة»[٣] أى بداهية تفجؤه، فتكون صدمته مضاعفة، فالداهية صدمة، ونزولها فجأة صدمة أخرى، وكل ذلك لأنه لم ينصر دين الله، وإنما عاش لشهواته، نسأل الله العافية.

* إن الحريص على الماديات ليس كامل الإيمان، فلو كان كامل الإيمان لحرص على نصرة دين الله، وإعزاز أهله، فجاهد فى سبيل الله سبحانه، وإنما هو فى قلبه قدر من النفاق الذى قال الله فيه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [٤]، إنه قد أصيب بشىء من النفاق دعاه إلى حب الدنيا والحرص عليها، فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق»[٥].

إن الحريصين على الماديات أناس قد أورثوا أنفسهم وأقوامهم ذلا خطيرا، إنهم أناس ليس فيهم المجاهد الذى يدفع عنهم، وإنما لحرصهم

---

(١) أخرجه الحاكم فى الجهاد باب الجهاد يذهب الله به الهم والغم ٢/ ٧٥.

(٢) سورة التوبة آية ٣٩.

(٣) أخرجه أبو داود فى الجهاد باب كراهية ترك الغزو ٢/ ١٠.

(٤) سورة النساء آية ١٤٥.

(٥) أخرجه مسلم فى الإمارة باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ٣/ ١٥١٧.

على الماديات ابتعدوا عن الجهاد. ولخوفهم على الأموال حرصوا على الاستسلام ولو بقدر من الذل، مما يطمع أعداءهم فيهم، فيزدادون ذلا على ذل، ويزداد أعداؤهم تأسدا عليهم، إنهم زراع وصناع، ورعاة وتجار، يخافون من كل هيعة، ويرتجفون من كل صيحة، والعدو يعرف حال عدوه، فلما علم عدوهم حالهم هذا اشتد طمعه فيهم، وعدو المسلمين لا دين له ولا خلق، فإذا أحس بقوته طغى وبغى، وظلم وأفسد، وأشاع فى الأرض كل خبث، وحينئذ لا تنفع تاركى الجهاد أموالهم، ولا تغنى عنهم زراعاتهم، ومن هنا فإن رسول الله ﷺ رأى شيئا من أدوات الحرث فقال: «لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل»[1] فمن ألهتهم الزراعة عن الجهاد أذلهم الله، أما من أعطى الجهاد حقه فإنه يعزه الله، ولو أخذ من الزراعة بنصيب كأن كان له عمال يزرعون، أو يزرع هو فى بعض الوقت، وهو معد نفسه للجهاد، فإن هذا لا ينقص من درجته كمجاهد.

• مزايا الجهاد:

إن الجهاد فى سبيل الله يورث الفوز فى الدنيا والآخرة:

فالمجاهد يعيش عزيزًا موقرًا والأمة الحريصة على الجهاد يهابها أعداؤها، ودمها غال، وعرضها مصان، وأرضها وخيرها لا يعتدى أحد عليه، إنها أمة لا يفكر أحد فى إيذائها، أو إلحاق الضرر بها، وإنما الكل يخطب ودها.

* والمجاهد يعيش دنياه سعيدا، قرير العين، مسرور البال، فليس خائفا ولا مضطربًا، إنه أعد لكل حالة لبوسها، فهو يجيد الكر والفر، ليس

(١) أخرجه البخارى فى الحرث والمزارعة باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع ٥/ ٤.

بالذليل الجبان، وإنما هو الفارس المغوار، وقد تقدم حديث رسول الله ﷺ: «عليكم بالجهاد فى سبيل الله، فإنه باب من أبواب الجنة يذهب الله به الهم والغم»[١] وهو حديث يبين جانبا من عظمة الجهاد، فهو يورث الجنة فى الآخرة ويُذهب عن صاحبه الهم والغم فى الدنيا، مما يجعله مطمئنا راضيا، وبمقدار طمأنينة الفرد بمقدار طمأنينة الأمة واستقرارها، فالأمة المجاهدة تسرى فيها روح الوحدة والائتلاف، لا روح الفرقة والاختلاف، والأمة المجاهدة لا تعبث فيها أصابع الأعادى، فهى منتبهة لهذا، تقتله إذا ظهر، وغيرها لا يجرؤ عليه.

والمجاهد له فى الآخرة عظيم الأجر، وأعلى الدرجات، وله كامل الرضا وبلوغ الرجاءات، والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة، منها حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر تَرِدُ أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم[٢] قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل سبحانه: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

---

(١) تقدم تخريجه وأنه عند الحاكم ٢/ ٧٥.

(٢) استراحتهم وقت القيلولة.

(٣) أخرجه أبو داود فى الجهاد باب فى فضل الشهادة ٣/ ١٥ وقد أكملت الآيات وهى من سورة آل عمران من الآية رقم ١٦٩ إلى ١٧١.

ومنها حديث عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ قال: حرس ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها»، ومنها أيضا حديث ابن عمر أن النبى ﷺ قال: «ألا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر حارس حرس فى أرض خوف لعله أن لا يرجع إلى أهله»[١].

والآيات والأحايث كثيرة فى ذلك، تبين عظيم منزلة الجهاد، وفضل الجهاد والمجاهدين وتلزم الأمة القيام بهذا الواجب الذى يقرب إلى الله سبحانه وتعالى، ويورثها سعادة الدنيا والآخرة.

فالعاقل الفاهم لدينه يبذل طاقته ووسعه فى نصرة دين الله تعالى، لا تشغله الدنيا لأنها فانية، ولا تلهيه الأموال والمناصب لأنها زائلة، وإنما طاعة الله ونصرة الإسلام شغله الشاغل لأن هذه الأمور هى الباقية، يجاهد بما يستطيع فيجاهد بنفسه، يحارب ويقاتل، ويجاهد بماله، يجهز به مجاهدين، أو ينفق على أسر المجاهدين فى غيبتهم، ويجاهد بلسانه، فيُحدِّث الناس فى أمر الجهاد، ويحثهم عليه، ويحذرهم شؤم التراخى فيه، وعدم قيامهم عليه، ويجاهد بقلمه، فيعرف الناس منزلة المجاهد، وما أعد الله له، يكتب لهم ما يبين قدر الجهاد ويجلى منزلته، إن الوسائل فى نصرة دين الله متعددة، وعلى كل مسلم أن يسلك منها ما يستطيعه، وقد قال ﷺ: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[٢].

والعاقل لا تشغله الماديات عن الجهاد، حتى لا ينزل به الذل، وحتى لا يكون مفارقا لدينه، بل يجاهد ليكون محظوظا بعزة المؤمنين، مستمسكا بدينه القويم، فإذا وجد فى الأمة تفريطا وتضييعا لأوامر الله

---

(١) أخرجهما الحاكم فى الجهاد باب ذكر ليلة أفضل من ليلة القدر ٢/ ٨٠ ـ ٨١.

(٢) أخرجه الحاكم فى الموطن السابق، وأبو داود فى الجهاد باب كراهية ترك الغزو ٣/ ١٠.

ورسوله، ومنها الجهاد، فليجتهد فى تعلم ذلك، والعمل به، وتعليمه الناس، وحثهم على العمل به، ويحرص على هذا قياما بالواجب عليه، وأخذًا بيد الآخرين للقيام بما يجب عليهم، وهو فى هذا له عظيم الأجر، كما قال ﷺ: «فوالله لأن يُهْدَى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم»[1] إن هداية رجل واحد على يديك خير لك من التصدق بالإبل الحمر، التى هى أنفس أموال العرب، إن أمر الهداية عظيم، فهداية رجل بداية لخط طويل من المهتدين، يهدى الله أسرته، وكثيرا من عارفيه، وربما غير عارفيه، فليجتهد العاقل فى النصح والتوجيه، متخذًا للأمر عدته، والله الهادى إلى الصراط المستقيم.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

فى وقت كانت الأمة الإسلامية تحتاط فى كسبها كل الاحتياط، فلا يقبل المسلم شيئا من الكسب الحرام، وكانت حريصة على الجهاد كل الحرص يتسابقون ويضحون، فى وقت كان بينهم رسول الله ﷺ به يقتدون ويهتدون، وأبواب الخير مفتوحة على مصراعيها، وأبواب الشر لا تقوى على الانفتاح، فى هذا الوقت المبارك الميمون يحذر ﷺ من أمور ستحدث للأمة، ما كان لعقل يتصور حينذاك حدوثها، فيخبر ﷺ أنه سيأتى وقت يحتال الناس على الكسب الحرام، ويحرصون على الدنيا يجمعونها من حلال ومن حرام، فتشغلهم عن الجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه، يخبر ﷺ عن ذلك فيتحقق فى زماننا، فكثير من الناس يحرص على كسب المال، ومن حرصهم يقعون فى الحرام، غير مبالين وإنما مستهترين، يتلقفون حيلة، ويتصنعون وسيلة، ويتمنون فتوى أو رأيا

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد باب دعاء النبى ﷺ الناس إلى الإسلام ٦/ ١١١.

ضعيفا بل وربما فتوى أمارات الخطأ فيها ظاهرة، لا يحتاطون لدينهم، وإنما يحرصون على دنياهم، وشغلتهم الدنيا عن الدين، فتركوا الجهاد، فتحقق ما أخبر به ﷺ، ووقع كما أخبر، فصلى الله وسلم وبارك عليه من نبى أعلمه الله فأعلمنا.

ثم إنه ﷺ أخبر أنه إذا وصلت الأمة إلى هذه الحال، فاحتالت على كسب المال من حرام، وشُغلت بالدنيا عن الجهاد، فإن الله تبارك وتعالى ينزل عليها ذلا، لا يرفعه عنهم إلا إذا رجعوا إلى دينهم، وأيضا يتحقق ما أخبر به ﷺ، فتعيش الأمة الآن فى ذل، وفى صغار ومسكنة، لا تملك من أمرها شيئا، القوة فى صفوف أعدائها، أما هى فمشغولة فى جمع الدنيا والاستكثار منها، تأخذ منها ما يضرها، وتستكثر مما يهدم عزها.

إنها أمة تملك، لكنها تسىء التصرف فيما تملك، وهذا ما اشتمل عليه الحديث الشريف، فلقد رتب الذل على الاشتغال بالدنيا، وهذا غير ما يتصوره العقل المادى، فالفكر المادى يتصور أن الاشتغال بالدنيا يورث عزا، إذ يصبح أهله أغنياء يملكون وأقوياء يتحكمون إلا أن النتيجة جاءت على خلاف الفكر المادى، وهذا من أعلام نبوته ﷺ، إذ أخبر أنه جمع الدنيا، لا كما يتصور العقل المادى، يورث عزا، وإنما يورث ذلا، وتحقق ما أخبر به ﷺ تماما، فأقبلت الأمة على الدنيا، تجمع المال من الحلال، وتحتال لجمعه من الحرام، وجعلت كل وقتها لجمع المال، من زراعة وصناعة وتجارة أما الجهاد فلم تقم به، أما نصرة دين الله فكأن ذلك أمرًا لا يعنيها، فسلط الله عليها ذلا، جعلها تعيش ذيلا لا صدرا، تلهث خلف الأمم، فلا تدركها، وتستغيث بالمنظمات فلا تغيثها، وتتقرب إلى أهل الملل والنحل الأخرى فيتكبرون عليها، ولقد بين ﷺ

كل هذه الأمور، وبين أن هذا الذل لن يرفعه الله عن الأمة حتى تعود إلى دينها، حتى ترفع راية الجهاد مرة أخرى، حتى يكون الدين أهم شىء فى حياتها ونصرته أغلى من كل ما عندها.

فالواجب على الأمة الإسراع بالعودة إلى الدين فلقد بين ﷺ العيب الذى سنقع فيه، من إقبال على الدنيا وترك الجهاد، وبين ما سيترتب على ذلك من ذل يجعلنا نعيش فى ذلة ومسكنة، وبين أننا إذا عدنا إلى ديننا ونصرنا دين الله أعزنا الله، وأعاد سبحانه إلينا ما مَنَّ به على الصدر الأول من عزة كتبها سبحانه للمؤمنين، وتمكين وعد به سبحانه عباده الصالحين، فصلى الله وسلم وبارك على من حذرنا الخطأ، وأعلمنا ما سيترتب عليه لو حدث، وعلمنا سبيل الخلاص منه، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين.

• الدروس المستفادة من الحديث:

* التحذير من الاحتيال على الحرام، فإن الحيلة لا تجعل الحرام حلالا، وإنما يخدع بها المحتال نفسه، والله سبحانه وتعالى يعلم السر وما هو أخفى من السر.

* التحذير من الاشتغال بالدنيا، ومن إنفاق العمر فى جمع المال وتضييع الواجبات الأخرى من تعلم العلم وتعليمه، والصلاة والزكاة والحج والجهاد وما شابهها.

* التحذير من ترك الجهاد.

* بيان أن الحرص على جمع المال وترك الجهاد يورث الأمة ذلا، ويضيع قدرها بين الأمم.

* بيان أن الأمة إن سقطت فى هذه الأخطاء - جمع المال وترك الجهاد - فنزل بها الذل يمكنها تدارك ذلك بالتوبة والرجوع إلى دين الله، ورفع راية الجهاد.

* فيه عَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ، ومعجزة ظاهرة له، إذ أخبر بأمور فوقعت كما أخبر، وأخبر بترتيب أشياء عليها فظهرت كما أعلمنا، وبين العلاج، فنسأل الله أن يوفقنا للأخذ به.

* * *

الإخبار عن كثرة الماديات والتنافس فيها

عن عَمْرو بْنِ عَوْف أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «وَالله مَا الْفقر أَخْشَى عَلَيْكُمْ، ولَكنِّى أَخْشَىَ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُم الدنْيا، كَمَا بُسطتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُم، فَتَنَافَسُوها كَمَا تَنَافَسُوهَا، وتُهْلككُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[١].

وفى رواية أخرى: «فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وتُلْهِيَكُم كَمَا أَلْهَتْهُمْ»[٢].

● **المعانى:**

«والله ما الفقر أخشى عليكم» أى أنه ﷺ لا يخشى على أمته الفقر، كالذى يعيشه الصحابة من قلة الشىء، أو لا يخشى على أمته أى فقر.

وأصل العبارة: والله ما أخشى عليكم الفقر. فقدم الفقر للاهتمام به، لأنه الذى يَنْصَبّ عليه الكلام، يريد أن يعلمنا ﷺ أنه وإن كان فى الشفقة علينا كالأب، بل أحنى من الأب، أنه وإن كان كذلك، فإنه يختلف عن الأب فى أمر المال، فالأب يخشى على ابنه الفقر، ويحرص له على الغنى، أما رسول الله ﷺ، فإنه لا يخشى علينا الفقر، فالفقر مضرته دنيوية، أما الغنى فمضرته دينية، كما سيتضح فى شرح الحديث إن شاء الله تعالى.

«أن تبسط عليكم الدنيا» بمعنى أن تفتح زهرة الدنيا على الأمة، فتكثر

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب بعد باب شهود الملائكة بدراً ٧/٣١٩ ـ ٣٢٠ وأخرجه قبل ذلك فى الجزية الباب الأول ٦/٢٥٧ ـ ٢٥٨، وأخرجه مسلم رقم ٢٩٦١.

(٢) هذه الرواية عند البخارى فى الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا ١١/٢٤٣، وعند مسلم تبع الرواية السابقة.

الأمور المادية، فيكثر الطعام والشراب، والفراش والبناء، وتكثر النقود والبيع والشراء، ويقبل الناس على ذلك، يحرصون عليه، وقد جاء فى حديث آخر «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله من بركات الأرض»[1] وإنما يخشى من ذلك إذا ألهى الأمة عن ذكر الله وطاعته.

«كما بسطت على من كان قبلكم» أى كما فتحت على الأمم السابقة على أمتنا الإسلامية، فلقد فتحت عليهم الدنيا، وكثرت الماديات، فشغلتهم وألهتهم.

«فتنافسوها كما تنافسوها» فتنافسوها الأولى حذف منها تاء، فأصلها «فتتنافسوها» حذفت إحدى التاءين تخفيفا، أما «تنافسوها» الثانية فليس فيها حذف.

ومعنى «فتنافسوها» أى فتتنافسوا فيها، أى فترغبوا فيها، ويحب كل منكم الانفراد بالكثير منها، ويحرص كل منكم أن يغلب غيره فى الحصول على أكبر قدر منها.

«فتهلككم» بما يترتب على التنافس من خصومات وبغضاء، تجعل الإنسان يعيش فى ضيق وحزن، وذلك هلاك معنوى.

أو بما يؤدى إليه التنافس والبغضاء من قتل، وهذا هلاك حقيقى.

أو المعنى: فتهلككم بالوقوع فى الحرام، ذلك أن التنافس كثيرًا ما يدعو للوقوع فى اكتساب المال من حرام.

وقد جاء فى رواية أخرى «وتلهيكم كما ألهتهم» أى أنها إذا فتحت عليكم فتنافستموها وألهتكم بمعنى شغلتكم عما خلقتم له، وهو عبادة الله تعالى، فهذا هو الذى أخشاه عليكم.

---

(١) أخرجه البخارى فى موطن الرواية السابقة ١١/ ٢٤٤.

• راوى الحديث:

عمرو بن عوف: حليف بنى عامر بن لؤى المكيين، فهو من مولدى مكة، وهاجر إلى رسول الله ﷺ، فحظى بصحبته ﷺ، وهذا شرف ما بعده شرف.

كان هذا الصحابى الجليل يعرف منزلة الجهاد وقدره، فشمر عن ساعد الجد واجتهد فى نصرة دين الله تعالى، فشهد بدرا هذه الغزوة التى قال رسول الله ﷺ فى أهلها «إن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[١].

وبدهى أنه كان على قدز كبير من العلم، فلقد صحب رسول الله ﷺ وسمع منه، وما حرصه على الجهاد إلا ثمرة من ثمرات ما علم، فلا يجود الإنسان بنفسه، ويعرضها لشدائد الجهاد إلا إذا كان صاحب عقيدة سليمة، وعلم بمنزلة الجهاد.

وعاش عمرو بن عوف بعد رسول الله ﷺ حتى مات فى خلافة عمر، وصلى عليه عمر - رضى الله عنهما -[٢].

• شرح الحديث:

سبب ورود الحديث:

هذا الحديث له سبب ورود[٣]، ذكره الأئمة مع الحديث وهو:

عن عمرو بن عوف أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

(٢) من مصادر ترجمته أُسْدُ الغابة ٤/٢٥٨ والإصابة ٣/٩، وتهذيب التهذيب ٨/٨٥ وفتح البارى ٦/٢٦٢.

(٣) سبب ورود الحديث هو: الأمر الذى يحدث فيقول ﷺ الحديث.

البحرين، يأتى بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمى، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع النبى ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء؟ قالوا: أجل يا رسول الله، قال: فأبشروا، وأمِّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم.. الحديث[1].

• الفقر لا يخاف منه:

وتوضيح هذا أنه عندما انتصر رسول الله ﷺ على أهل الجزيرة جاء أهل البحرين، وصالحوه، على أن يدفعوا قدرا من المال، وأمَّر ﷺ العلاء ابن الحضرمى، ثم إنه ﷺ أرسل الصحابى الجليل أبا عبيدة عامر بن الجراح ليحضر القدر المتفق عليه من المال مع أهل البحرين، وعاد أبو عبيدة بمائة ألف درهم، فأمر ﷺ أن يوضع هذا المال فى المسجد إلى الصباح، فلما علم الأنصار بقدوم المال حرصوا على مقابلة رسول الله ﷺ، معبرين بلسان حالهم عن رغبتهم فيه، وحاجتهم إليه، فطمأنهم ﷺ إلى أنه سيعطيهم ما يريدون، ثم قال لهم هذا الحديث «والله ما الفقر أخشى عليكم.. الحديث».

وتلح قضية الرفض للفقر والشكوى منه فيأتى صحابى آخر فيقول: يا رسول الله، أكلتنا الضبع، فقال ﷺ: غير ذلك أخوف لى عليكم حين تصب عليكم الدنيا صبا، فياليت أمتى لا تلبس الذهب[2].

وهو ﷺ يخبره، ويخبر الأمة كلها أنه لا يخشى عليهم الفقر، فالفقر

(١) أخرجه البخارى، وهو الحديث الذى نشرحه، وقد تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط، كذا فى مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣٧.

لن يفضى بأحد إلى الموت، فكل إنسان سيستكمل أجله، لكنه معه طاعات عديدة، من تواضع وصبر، ودعاء وتضرع، وليس معه حساب على مال من أين اكتسبه وفيم أنفقه.. إن الفقر يحفظ على الأمة قوتها ووحدتها، يحفظ عليها استقامتها وعزتها، يحفظ عليها أخلاقها ودينها.

والفقر ليس دليلا على غضب الله، كما أن الغنى ليس دليلا على رضى الله.

إن الله سبحانه يمنع الكثيرين من أحبابه الدنيا، يعلى بذلك درجاتهم، ويفرغهم لطاعته ومحبته يقول ﷺ: «إذا أحب الله عبدا حماه الدنيا، كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء»[1].

ولقد آثر ﷺ حياة الفقر، ورفض التوسع فى الماديات، حتى كان يدعو بذلك، ويسأل الله أن يكون كذلك، ومن دعائه «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا».. وفى رواية «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا»[2] أى ارزقهم بقدر ما يسد جوعتهم، فلا يحتاجون شيئا من أحد فيسألون الناس ولا يزيد على حاجتهم فيعيشون فى الترفه، والتبسط فى الدنيا.

وتصف أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عيشه ﷺ فتقول لعروة بن الزبير ابن أختها ـ أسماء بنت أبى بكر ـ يا ابن أختى إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين[3] وما أوقدت فى أبيات رسول الله ﷺ نار. فقلت ـ عروة بن الزبير ـ ما كان يعيشكم؟ قلت: الأسودان التمر والماء[4]،

---

(١) أخرجه الترمذى فى أول كتاب الطب ٦/ ١٨٩.

(٢) أخرجهما مسلم فى الزهد ٤/ ٢٢٨١ رقم ١٨ ـ ١٩.

(٣) إنما كانت ثلاثة أهلة فى شهرين على أساس رؤية هلال الشهر الثالث فى أوله، والمراد: تمكث شهرين كاملين فنرى ثلاثة أهلة، هلال الشهر الأول والثانى وأول الثالث.

(٤) «الأسودان» كلمة تطلق على التمر والماء، والماء وإن كان ليس بأسود، فإنه غلبت صفة التمر عليه، فقيل لهما إذا اجتمعا الأسودان.

إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كان لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من أبياتهم فيسقيناه»[١].

• التحذير من الانشغال بالماديات عن الدين:

ولقد حذرنا الله تبارك وتعالى من الاغترار بالدنيا والانشغال بها عن الآخرة:

* فقال سبحانه: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[٢].

* وقال سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٣].

* وقال سبحانه: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[٤].

فلا يجعل المسلم حياته لجمع المال، والجرى خلف الماديات، فإنه لم يخلق لذلك، وما جمعه من مال فليس ملكا له، كما أنه ليس بمغن عنه شيئا، فعن عبد الله بن الشخير قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ وهو يقول: يقول ابن آدم مالى مالى، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[٥].

إن جمع المال وتكثيره ليس فى ميزان حسنات المسلم، وإنما الذى فى ميزان حسناته إنفاقه فى طاعة الله، يقول ﷺ «يُجَاء بابن آدم يوم القيامة، كأنه بذج[٦] فيوقف بين يدى الله تعالى، فيقول الله: أعطيتك وخولتك،

(١) أخرجه البخارى فى الرقاق باب كيف كان عيش النبى ﷺ وأصحابه ١١/٢٨٣.
(٢) سورة فاطر آية ٥.
(٣) سورة آل عمران آية ١٨٥.
(٤) سورة التكاثر آية ١ ـ ٢.
(٥) أخرجه الحاكم ٢/٥٣٣، ٥٣٤.
(٦) البذج: ولد الضأن، والمراد: يؤتى بابن آدم صغيراً ذليلاً.

وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول جمعته وثمرته وتركته أكثر ما كان، فارجعنى آتك به كله، فيقول له: أرنى ما قدمت. فيقول يا رب جمعته وثمرته، فتركته أكثر ما كان، فارجعنى آتك به كله، فإذا عبد لم يقدم خيرا، فيمضى به إلى النار»[1].

إن الكثيرين، بل يكاد يكون الكل يظنون أننا خلقنا لجمع الأموال وتكثيرها، وإقامة المبانى وتعميرها!! يظنون أننا خلقنا للتنافس فى الماديات، والاحتيال فى كسب الجاه، والمناصب، يظنون أننا خلقنا للغلبة والسطوة، والتعالى والشهرة، وهذا هو الذى يخشاه ﷺ يخشى أن تميل بنا الشهوات عن الجادة، وتنحرف بنا الأهواء والرغبات عن الهدى الذى رسمه لنا ﷺ.

ذلك أن الانفتاح على الدنيا، والجرى خلف الماديات يؤدى إلى أمور وخيمة، فى الدنيا والآخرة، فهو يؤدى إلى:

* الالتهاء بالدنيا عن الدين، فيتعلم للدنيا، ويعمل للدنيا، والسهر والكدح للماديات، أما ما كان للدين فلا يتعلم لله، ولا تزود للآخرة، ولا جد فى طاعة، ولا سهر فى عبادة.

* ارتكاب المحرمات، فإن الحرص على الدنيا، وحب الاستكثار منها يدعو إلى الوقوع فى الحرام، وهذا ملحوظ فيمن يجمع الأموال بحرص ونهم، فإنه يحتاط من الحرام اليوم، ثم يدفعه الحرص إلى الجرأة أو الاحتيال عليه غدًا.

* ضياع وحدة الأمة وأسباب عزتها، فالتنافس فى الدنيا، يورث أمراضًا اجتماعية مدمرة، كما قال ﷺ: «إذا فتحت عليكم فارس والروم

---

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة الباب الثالث مما جاء فى العرض ٧/١١٣ ـ ١١٤.

أى قوم أنتم؟» قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله[١] قال رسول الله ﷺ «أو غير ذلك[٢]. تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون أو نحو ذلك»[٣].

لقد سألهم ﷺ عن حالهم وقت أن تفتح الدنيا عليهم، فأجاب ابن عوف بما ينبغى أن يكون عليه المسلم: نحمد الله ونشكره. فلفت الأذهان ﷺ إلى أمر سيحدث، وعلى الأمة أن تحذره، التنافس والتحاسد، ثم التدابر فالتباغض إلى آخر هذه الصفات المدمرة للأمة.

* ظهور الأخلاق الذميمة من الكبر والترفع والتعالى والتفاخر، وهذه مذمومة شرعا وعقلا، يغضب الله على من تخلق بها، ويزدرى الخلق من اتصف بها.

* وهذه الأمور كل منها لو انفرد أهلك صاحبه، فكيف لو اجتمع بعض منها، أو اجتمعت كلها؟!! ومن هنا يقول ﷺ: «اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء»[٤].

ويقول ﷺ «قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجَدِّ[٥] محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار. وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»[٦].

الفقراء الذين تقللوا من الدنيا هم أكثر أهل الجنة، وهم أولى الناس

---

(١) أى نحمد الله تعالى ونشكره.

(٢) أو غير ذلك يحدث، فلا تحمدون الله، إنما تتنافسون الدنيا.

(٣) أخرجه مسلم فى أول الزهد ٤/ ٢٢٧٤.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ١٧٣.

(٥) الغنى.

(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق باب صفة الجنة والنار ١١/ ٤١٥.

دخولا الجنة، أما الأغنياء الذين شغلهم غناهم وألهتهم الدنيا، والنساء الحريصات على زينة الدنيا، هذان الصنفان أكثر أهل النار.

وإذا كان ﷺ قد أخبر أنه لا يخشى الفقر علينا، إنما يخشى علينا أن تبسط علينا الدنيا، فنتنافسها، فتهلكنا وتلهينا، وتحل بنا هذه الانحرافات، فلقد تحقق ما أخبر به ﷺ، فبسطت الدنيا، وظهرت ضلالات انفتاحها بصورة واضحة للغاية، تحقق ما أخبر به وفق ما أخبر:

* فانشغل الكثيرون بالدنيا عن الدين، يتعلمون للدنيا، ويدرسون المحرمات كالربا، ويتعلمون الفجور، كمدارس الرقص والموسيقى، ويكدحون ويسهرون للدنيا، فتجد الرجل فى تجارته طوال اليوم، وتجد الرجل فى مصنعه كل وقته، إذا سألته عن أمور الدنيا وجدته فاهمًا مستوعبًا، وإذا سألته عن أمور دينه وجدته جاهلاً مستغربًا، ورسول الله ﷺ يقول «إن الله يبغض كل جعظرى جواظ، صخاب بالأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة»[(١)].

* ووجد فى الناس جرأة غريبة على الحرام، فلا تحرى فى كسب المال، ولا تحرى فى الطعام، وتجرأ الرجل على المسكرات، وضلت المرأة بالعرى والاختلاط، كل ذلك للجو الذى يعيشونه من حب الدنيا، وإيثارهم الشهوات، وبعدهم عن طاعة الله، وفقرهم فى الأخلاق والسلوكيات.

* وضاعت الروابط الاجتماعية بين أفراد الأمة وجماعاتها، فليس الأمر كما كان عليه سلف الأمة، من تحاب وتعاون، وأخوة وتواصل، لا، بل أصبح الأمر تنافسًا وتحاسدا، وتدابرا وتباغضا، ووصل إلى القتل

---

(١) أخرجه ابن حبان فى كتاب العلم من صحيحه باب ذكر الزجر عن العلم بأمر الدنيا مع الانهماك فيها. . . ١/ ١٤٥ حديث ٧٢.

فأصبح الرجل يقتل أخاه من أجل أمر مادى، بل وصل الأمر أن تقتل الأم ابنها، سبحان الله!! خرج العذاب من مصدر الرحمة، والقسوة من مصدر الشفقة.

وأصبحت الأمة دويلات، تتناحر فيما بينها، وكل مجموعة من الأمة تحت اسم دولة، تتعامل مع بقية الأمة على أنهم أجانب، ولأدنى خلاف بين الحكومات تشيع العداوة بين الشعوب، ونسوا قول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (١).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (٢).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (٣).

وشاعت أخلاق وسلوكيات ما كان لها أن تظهر فى أمة الإسلام.

وكل ذلك جاء من هذا الخطأ الذى أراد ﷺ أن يحصن الأمة منه، خطأ الظن بأننا خلقنا للدنيا، وغايتنا فيها جمع المال، والحصول على المناصب، هذا الخطأ يضيع على الإنسان دنياه وأخراه.

ولا تحسبن الحديث يذم الحياة، أو أنه يدعو إلى الفقر، لا، وإنما يحذر من الحرص على الدنيا، الحرص الذى يؤدى إلى التنافس والتناحر، والتقاتل.

الحرص الذى يؤدى إلى تفضيل الدنيا على الدين.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٣.
(٢) سورة الأنفال آية ٤٦.
(٣) سورة الحجرات آية ١٠.

• الغنى المحمود:

أما أن يكون الإنسان ذا مال، يتقى الله فيه، وليس بخيلا به، يكتسبه من حلال، وينفقه فى حلال، ولا يشغله عن طاعة، ولم يدفعه إلى معصية، فهذا محمود فى الإسلام، وليس داخلا فى موضوع الحديث الذى معنا، ولقد كان فى الصحابة من عنده مال كثير، من هؤلاء عثمان ابن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، لكنها أموال كلها فى طاعة الله، كسبوها من حلال، وأنفقوها فى حلال، ولم يحقق الشيطان فيهم ما توعد به أصحاب الأموال:

فعن عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الشيطان لعنه الله: لن يسلم منى صاحب المال من إحدى ثلاث، أغدو عليه بهن وأروح بهن[1]: أخذه المال من غير حله، وإنفاقه فى غير حقه، وأحببه إليه فيمنعه من حقه»[2] هذه هى الأمور التى تجعل الغنى مذموما، أخذ المال من الحرام، كالربا والرشوة والغش وإنفاقه فى حرام، كآلات اللهو، والقمار، والإسراف، وعدم أداء الواجب فيه، من زكاة، وإطعام الجائع، وإعطاء السائل.

ولقد كان أثرياء الصحابة بمنأى عن ذلك، بل كانوا لله فى كل حياتهم، وماذا بعد أن اشتكى فقراء الصحابة إلى رسول الله ﷺ أن الأغنياء من الصحابة يعملون طاعات لا يفعلها الفقراء كالصدقة والعتق، فأرشد ﷺ الفقراء إلى كثرة الذكر، ففعل الأغنياء ذلك، فاشتكى الفقراء ثانية إلى رسول الله ﷺ، إن الأغنياء يشاركونهم الطاعات التى يقدرون عليها، ويسبقونهم بطاعات الغنى، فقال لهم ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه

(١) أصبح وأمسى بدعوته إلى هذه الثلاثة أمور، أُحَسّنها له حتى يقع فى بعضها أو كلها.

(٢) أخرجه الطبرانى١/ ١٣٦ حديث ٢٨٨ من الجامع الكبير.

من يشاء»[١].

إن هذا يدل على أن هؤلاء الأغنياء، كان غناهم خيرا، استفادوا بالمال لدينهم وآخرتهم. إنه لم يدعهم إلى معصية، ولم يقدمهم إلى ضلال، وإنما ساعدهم فى زيادة الخير والاستكثار من الطاعة. كما قال ﷺ: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»[٢].

● وجه الإعجاز فى الحديث:

فى وقت كانت الدنيا لم تبسط على الأمة،وكانت الماديات قليلة فى أيديهم، حتى أنهم يشتكون من الفقر لرسول الله ﷺ، رجاء أن يدعو لهم بالسعة والغنى، فى هذا الوقت يخبرهم الرسول ﷺ أنه لا يخشى الفقر على الأمة، وإنما يخشى عليها كثرة الماديات، وانبساط الدنيا، ذلك أن الفقر لا ضرر فيه، نعم فيه ضيق فى الماديات، إلا أن هذا لا يضر، أما الغنى ففيه ضرر كثير، كما سبق فى شرح الحديث، فبه تثور الشحناء والبغضاء، وهو مكمن التنافس والتقاتل، به يقتل الأخ أخاه. والغنى أيضا ملهاة عن طاعة الله، وكثيرا ما يدفع للوقوع فى الحرام، وهو يورث أخلاقا ذميمة فى الكثير الغالب.

من أجل هذا فهو ﷺ يخبر أنه لا يخاف على الأمة الفقر،وإنما يخاف عليهم الغنى، فقليل من الأغنياء من استطاع الاستقامة كما قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [٣] ويقول عبد الرحمن بن عوف «ابتلينا مع رسول الله ﷺ بالضراء فصبرنا، ثم ابتلينا بعده بالسراء فلم نصبر»[٤]

---

(١) نص الحديث عند مسلم فى المساجد باب استحباب الذكر بعد الصلاة ١/ ٤١٦.

(٢) أخرجه احمد ٤/ ١٩٧.

(٣) سورة سبأ آية ١٣.

(٤) أخرجه الترمذى فى القيامة ٧/ ١٦٤.

فيقرر هذا الصحابى الجليل أن الفقر أسلم، والصبر على الشدائد أيسر، أما شكر النعم فقل من يؤديه على الوجه اللائق.

لقد كان المنظور فى رأى العقل العادى أن يخاف ﷺ الفقر على الأمة، شأن الأب على أولاده، لكنه ﷺ وهو الذى يوحى إليه يخبر أن المخوف منه إنما هو الغنى، ويخبر أنهم إذا بسطت عليهم الدنيا تنافسوها كما تنافسها السابقون، فتهلكهم كما أهلكت السابقين، وتلهيهم كما ألهت السابقين.

وتحقق ما أخبر به ﷺ تمامًا، فها هى الدنيا قد بسطت على الأمة، وتمرغ الناس فيها بطنا لظهر، وظهرا لبطن، فظهر ما كان يتخوفه ﷺ فالتنافس بين الأفراد على أشده، وبين الجماعات بلغ أقصى حده، والتباغض والقتل قد فشا وشاع، والالتهاء بالدنيا قد عم وذاع، تنظر فى أحوال الأمة، فلا تجد واقع النصوص التى وصفت حالها، فلا تجد واقع الأمة كما وصفها الله فى كتابه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١) ولا تجد حالها كما أخبر سبحانه: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (٢) ولا تجد واقع الأمة كما وصفها رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»(٣)، و«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٤).. وكل ذلك من جراء حرصهم وتنافسهم على الدنيا.

والأفراد أيضا لا تجد واقعهم كما كان السلف، فأين الذين قال الله فيهم: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(٥)

---

(١) سورة الحجرات آية ١٠.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣.

(٣، ٤) أخرجهما مسلم فى البر باب تراحم المؤمنين ٤/١٩٩٩.

(٥) سورة الذاريات آية ١٧، ١٨.

وأين الذين لهم دَوِىٌّ بالقرآن كدوى النحل، كما كان السلف، لقد كانوا يقضون أوقاتهم فى طاعة الله وذكره، وتلاوة القرآن وفقهه، فما بال أهل زماننا؟ أظنوا أنهم للدنيا قد خلقوا، أم لجمع المال قد تُركوا؟!!

لقد ألهتنا الدنيا حتى أصبحنا نقرأ عن صلاح السلف فلا نجد له مثيلا فى مجتمعاتنا، وكأنهم كانوا أمة ونحن أمة أخرى، والواقع أن الأمر ليس كذلك، بل نحن أمة واحدة، غير أنهم لم تلههم الدنيا وألهتنا، ولم تهلكهم وأهلكتنا.

ورسول الله ﷺ يحذرنا هذا، يحذرنا أن تهلكنا الدنيا أو أن تلهينا، فالواجب على أهل زماننا أن يتعظوا بهذا الحديث، فيقبلوا على الطاعة والعبادة، لا تلهيهم عن ذلك الدنيا، وأن يحرصوا على الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة فيطبقوها فى أنفسهم ومجتمعاتهم، يطلبون الرزق من حله دون حرص، وينفقونه فى موضعه دون بخل، يعرفون أن هدفهم فى هذه الحياة رضوان الله تبارك وتعالى، فإن استقاموا على ذلك أعطاهم الله ما يريدون وفوق ما يريدون.

• الدروس المستفادة من الحديث:

* أمراض المادية أهلكت الأمم السابقة، ويخشى منها على أمة الإسلام.

* على الأمة أن تحذر الغرق فى الماديات والتنافس فيها، فإن ذلك مهلكة ومضيعة.

* على الأمة أن لا يليها شىء عن غايتها العظمى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (1).

---

(1) سورة الذاريات آية ٥٦.

* إذا اهتمت الأمة بالماديات، وصارت أمورا جوهرية فى حياة الأمة، قضت على وحدة الأمة، وذهبت بقوتها، وأودت بأسباب الصدارة والعزة.

* الفقر ليس مذموما من كل ناحية، بل جوانب الخير فيه كثيرة، ففيه سلامة من كثير من الأمراض، وبعد عن كثير من الآثام.

* الغنى ليس محمودًا من كل ناحية، بل جوانب السلب فيه كثيرة، فإنه مدعاة لكثير من الأمراض، وموقع فى كثير من الأوزار.

* على أن الغنى المحمود إنما هو لمن اتقى الله فى ماله، فاكتسبه من حلال، وأنفقه فى حلال، ولم يبخل به فى مواطن الجود، ولم يمل به غناه إلى كبر أو فخر، ولم يلهه عن طاعة الله تعالى.

* * *

الإخبار بظهور الجبارين والمتبرجات

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنْفَان مِنْ أَهْلِ النَّار لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَر، يَضْرِبُونَ بهَا النَّاسَ، ونسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائلاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَة الْبُخْت الْمَائلَة، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ ولا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وإِنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وكَذَا»[١].

• المعانى:

«صنفان» يعنى: نوعان أو: طائفتان.

«لم أرهما» أى لم يظهرا فى زمانه ﷺ، وإنما سيظهران بعده.

«سياط» السَّوْط: ما يضرب به من جلد، سواء كان مضفورا أم لم يكن، وجمعه «سياط» كما فى الرواية التى معنا، وجمعه أيضا «أسواط» وقد جاء كذلكْ فى بعض روايات هذا الحديث.

«كأذناب البقر» كذيول البقر، وذيل البقرة يؤلم جدا إذا ضربت به، وعليه فمعنى «سياط كأذناب البقر» أنها سياط تؤلم من يضرب بها جدا.

«كاسيات عاريات» يعنى يلبسن الملابس لكنها لا تسترهن، لقصرها، أو لرقتها فهى تشف عن الجسم، أو لضيقها فهى تصف جسم اللابسة.

«مميلات مائلات» مميلات غيرهن، أى يدعون غيرهن إلى الميل

(١) أخرجه مسلم فى اللباس باب النساء الكاسيات العاريات ٣/ ١٦٨٠ وفى الجنة باب النار يدخلها الجبارون ٤/ ٢١٩٢.

والانحراف، وهن فى أنفسهن مائلات أى منحرفات ضالات. وإنما قَدَّم «مميلات» على «مائلات» للدلالة على أنهن يُغرين غيرهن إلى الانحراف إغراءً شديدًا.

«أسنمة البخت» أسنمة: جمع سَنَام، والسَّنَام: المنطقة المرتفعة فى ظهر الجمل أو الناقة. و«البُخْت» الجمال التى أعناقها طويلة.

ومعنى «رؤوسهن كأسنمة البخت» أنهن يصنعن فوق رؤوسهن شيئًا عاليًا من شعورهن، أو من شعور مستعارة، أو من أشياء أخرى.

«مسيرة كذا وكذا» كناية عن المسافات البعيدة، أى إنهن لا يجدن رائحة الجنة مع أن رائحتها تشم من مسافات بعيدة، وقد جاء فى رواية أنها تشم من مسافة ألف عام.

• ترجمة راوى الحديث:

راوى الحديث هو أبو هريرة، ولقد تقدمت ترجمته فى الحديث الثانى[1].

• شرح الحديث:

«صنفان من أهل النار» أى طائفتان من أهل النار، وفى رواية «صنفان من أمتى من أهل النار»[2] أى على الرغم من إسلامهم فإنهم يدخلون النار. وفى هذا تحذير شديد لكل مسلم أن يكون من هاتين الطائفتين، فإنه إذا كان منهما فإنه من أهل النار، وفيه تحذير أيضا أن يترك المسلم أحدًا من أهله يفعل فعل هاتين الطائفتين، فالمسلم يحفظ نفسه وأهله مما

(١) راجع ص ٧٥.
(٢) عند أحمد ٢/ ٤٤٠.

يوقع فى جهنم نسأل الله العافية منها بمنه وكرمه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (1).

ومطلع هذا الحديث «صنفان من أهل النار» فيه تخويف شديد، فهو يحذر المسلمين من أن تنتشر فيهم أوصاف هاتين الطائفتين المذكورتين فى الحديث، وإلا كانوا من المعذبين بالنار!!

• فظاعة النار:

النار جاءت أوصافها فى القرآن الكريم والسنة النبوية فأفادت أن العاقل يجتنبها بكل ما أوتى من حرص وقوة، وماذا بعد قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (2)، إنها نار تجعل الأم تنسى ابنها الذى ترضعه، وتجعل الحامل تسقط ما فى بطنها، إنها النار التى إذا اطلع الناس عليها أذهبت عقولهم من هولها وفظاعتها، حتى قال ﷺ: «ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءًا من نار جهنم». قالوا: والله إن كانت لكافية قال: إنها فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»(3). وقال ﷺ «لو أن غَرْبا(4) من جهنم جعل فى وسط الأرض

(1) سورة التحريم آية ٦.

(2) أول سورة الحج.

(3) أخرجه أحمد فى مسنده وابن حبان فى صحيحه، وأصله فى البخارى ومسلم عن أبى هريرة.

(4) الدلو الكبيرة.

لآذى نَتَنُ ريحه. وشدةُ حره ما بين المشرق والمغرب، ولو أن شررة من شرر جهنم بالمشرق لوَجَد حرَّها مَنْ بالمغرب»[1].

وقال ﷺ فى قول الله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ قال يُقَرَّبُ إلى فيه فيكرهه، فإذا أُدْنِيَ منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دبره، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾، ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2].

فهذا المطلع ـ مطلع الحديث ـ فيه تخويف شديد، وزجر عن حال هذين الصنفين من الأمة.

«لم أرهما» أى لم يرهما ﷺ، فإن هذين الصنفين لم يكونا فى زمانه، وإنما سيوجدان بعده، فخيرية أهل زمانه ﷺ تمنع ظهور أمثال هذين الصنفين، ولقد بين ﷺ خيرية أهل زمانه فى قوله: «خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[3] فأهل زمانه ﷺ اصطفاهم الله واختارهم لنصرة نبيه، فكانوا على درجة عالية من الخير، ينكرون المنكر ويقضون عليه، وينصرون المعروف ويحرصون عليه. وأمثال هؤلاء لا تظهر فيهم الطوائف المنحرفة، ولا الأصناف الضالة، إنما توجد هذه الأصناف حينما يضعف أهل الحق، وتضعف عزيمتهم فى نصرته.

---

(١) أخرجه الطبرانى عن أنس.

(٢) أخرجه أحمد والترمذى والحاكم وصححه.

(٣) أخرجه البخارى فى أول فضائل الصحابة ٧/٣ رقم ٣٦٥١ ومسلم فى فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ٤/١٩٦٣ رقم ٢١٢.

• التحذير من ضرب الناس:

«قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس» هذا هو الصنف الأول، أناس يعذبون الناس بلا رحمة، ويضربونهم بكل قسوة، يضربونهم بأسواط تشبه ذيل البقرة فى الإيلام، وذيل البقرة قوى لكنه لما كانت فيه الحياة كان مَرِنًا، ولذا فإنه يؤلم أشد الإيلام،والمراد أن هذا الصنف يضرب الناس بما يؤلم كثيرا، ومن هنا فإن رسول الله ﷺ يحذرهم بأنهم إن استمروا على ذلك دخلوا جهنم وبئس المصير.

وفى الحديث أنهم يدخلون النار لضربهم الناس، فمن ضرب الناس بما يؤلم كثيرا عُذِّب، لا يتعلل ولا يخدع نفسه، فلا يقول الثرى إنى أضرب العامل تأديبا، ولا يقول الشرطى إنى أضرب الجانى ليقر بذنبه، أو ليرتدع، ولا يقول الزوج إنى أضرب زوجتى تقويما، ولا يقول الأب إنى أضرب ابنى تربية، ولا يقول الحاكم إنى أضرب الرعية إصلاحا، لا، لا، كل ذلك وما أشبهه مرفوض فى الإسلام، فحتى إقامة الحدود لا تكون بهذه الطريقة، إنما تكون بالضرب بالجريد وطرف الثوب، وتأديب الزوجة يكون بالسواك وأشباهه، ويجتنب الوجه، ولا يُسمع الآخرين صوته إن وعظها، إن التأديب شيء والتعذيب شيء آخر، والإسلام يقر الأول ويرفض الثانى. ورضى الله عن عمر بن الخطاب إذ يقول: إنى والله ما أبعث عمالى[1] ليضربوا أبشاركم[2]، ويأخذوا أموالكم، ولكنى أبعثهم ليعلموكم دينكم وسننكم، ويعدلوا بينكم، ويقسموا فيكم فيئكم[3]، ألا مَنْ فُعِلَ به شيء من ذلك[4] فليرفعه إلىَّ، والذى نفس عمر

---

(١) القائم بالأعمال من قبل الخليفة.

(٢) جلدكم.

(٣) المال الحاصل من الكفار.

(٤) أى من الضرب، أو أخذ المال بغير حق.

بيده[١] لأقصَّنَّهُ منه[٢]، فوثب عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت لو أن رجلا من المسلمين كان على رعية فأدب بعض رعيته إنك لمقصه منه؟! قال: ومالى لا أقصه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، ألا لا تضربوهم فتذلوهم، ولا تمنعوهم حقهم فتكفروهم ولا تجمِّروهم فتفتنوهم، ولا تنزلوهم الغياض[٣] فتضيعوهم[٤].

وتأمل قول عمر «لا تضربوهم فتذلوهم» إنه يفيد أن الضرب الشديد يغير طبيعة الإنسان، فيوجد فيه خوفا وجبنا، ويولد فيه ضعفا وذلا لا يستطيع مع ذلك القيام برسالته فى الحياة.

وقول عمر «وقد رأيت رسول الله ﷺ يُقِصُّ من نفسه» هذا حديث أخرجه الأئمة مستقلاً[٥]، وهو يبين هدى رسول الله ﷺ فلقد كان إذا ضرب شخصا طلب منه أن يأخذ حقه بأن يضربه كما ضربه، فعن أبى سعيد الخدرى قال: بينا رسول ﷺ يقسم شيئا أقبل رجل فأكب عليه فطعنه رسول الله ﷺ بعرجون[٦] كان معه فجرح الرجل فقال رسول الله ﷺ: تعال فاستقده. قال: بل قد عفوت يا رسول الله»[٧].

فلم يقبل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن يكون تأديب الرعية

(١) أى والله.

(٢) أى سأجعل المضروب يأخذ حقه من الوالى قصاصًا.

(٣) الأماكن كثيرة الشجر، وهذا إذا كان فى الغزو مكَّن عدوهم منهم إذ يتفرقون فيتمكن العدو منهم.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٤. وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٤/ ٤٣٩ واللفظ له وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

و «تجمروهم»: تحبسوهم فى حراسة الدولة جنودًا، لا يرجعون إلى أهلهم.

(٥) أخرجه النسائى فى القسامة باب القصاص من السلاطين ٨/ ٣١.

(٦) بعود.

(٧) أخرجه النسائى فى القسامة باب القود فى الطعن ٨/ ٢٩.

سببا يبيح للراعى أو الأمير أن يضرب رعيته، فالضرب يفسد طبائع الرجال.

وهذا الصنف من الناس القساة الغلاظ بين ﷺ هنا أنهم من أهل النار فى الآخرة، وجاءت أحاديث أخرى تبين أنهم من أهل الشقاوة فى الدنيا أيضا، فهم خاسرون فى الدنيا خاسرون فى الآخرة، منها قوله ﷺ لأبى هريرة «إن طالت بك مدة أوشكت أن ترى قوما يغدون فى سخط الله، ويروحون فى لعنته، فى أيديهم مثل أذناب البقر»[1] وفى رواية «يغدون فى غضب الله،ويروحون فى سخط الله»[2] و«يغدون» أى يذهبون فى الصباح. و«يروحون» أى يرجعون فى آخر النهار.

والمعنى: أنهم ينزل عليهم دائما سخط الله وغضبه، ومقته ولعنته، فهم بعيدون عن رحمة الله، لا توفيق يحالفهم، بل الخذلان حليفهم، ولا حظ لهم من عناية الله وعونه، ومن حرمه الله من رحمته وتوفيقه أهلك نفسه بنفسه كما قال القائل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول مـا يجنى عليـه اجتهـاده

يا حسرة على هؤلاء، محرومون من توفيق الله، ومن عونه فى الدنيا، مطرودون من رحمته فى الآخرة، ساكنون جهنم وبئس القرار، أشعلها الله ألف عام حتى ابيضت، ثم أشعلها ألف عام حتى احمرت، ثم أشعلها ألف عام حتى اسودت، فهى سوداء كالليل المظلم البهيم.

ومن هذا الصنف بل من أسوئه حالا، وأشده نكالا الذين يعذبون الناس المسلمين الموحدين، أحباب الله وأهل مودته، لا لذنب إلا لتمسكهم بالإسلام، ألا فليعلم هؤلاء بأن ذلك ـ التعذيب ـ يجعلهم من

(١، ٢) أخرجهما مسلم فى الجنة باب النار يدخلها الجبارون ٤/ ٢١٩٣.

أشد أهل النار عذابا، فقد توعد الله الذين يعذبون المؤمنين صدا لهم عن دينهم، توعدهم سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ (١).

أى إن الذين يحاولون صرف المؤمنين والمؤمنات عن دينهم ولم يرجعوا عن هذا الذنب، فإن الله يعذبهم بعذابين، بعذاب البرد ـ الزمهرير ـ وبعذاب النار، فهم يعذبون بصنوف العذاب جزاء لهم على قسوتهم، وعقوبة على إيذاء المؤمنين والله سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى: «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب»(٢) فمن آذى أهل «لا إله إلا الله» فهو مُعْلَنٌ بحرب من الله سبحانه، ولا قِبَلَ لأحد بعذاب الله، فمن أذى أهل الله أهلكه الله وأذله، وهو فى الآخرة من الخاسرين، فليتعظ بذلك أصحاب العقول.

• التحذير من عُرْى النساء:

«ونساء كاسيات عاريات» هذا هو الصنف الثانى من الصنفين اللذين بيّن ﷺ أنهما من أهل النار، نساء لم يلتزمن بهدى الإسلام فى مظهرهن، فيسرن فى الطرقات كاسيات عاريات، يلبسن الملابس لكنها شفافة لا تستر، أو أنها ضيقة تجسد جسم المرأة، أو أنها ملابس قصيرة لا تستر كل الجسم، وإنما أبانت عن مفاتن اللابسة، أو أنها ملابس ألوانها زاهية تلفت أنظار الرجال للمرأة، فهى كاسية لأنها تلبس الملابس لكنها عارية إذا لم تؤد هذه الملابس رسالتها،بل على العكس من ذلك أصبحت الملابس وسيلة للزينة والظهور، ومصدرا من مصادر الافتتان بالمرأة.

(١) سورة البروج آية ١٠.
(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق باب التواضع ١١/ ٣٤٠ رقم ٦٥٠٢.

«مميلات مائلات» وهؤلاء النسوة مميلات لغيرهن مائلات فى أنفسهن، فهى تُميل من يراها من الرجال ممن فى قلبه ضلال، وتُميل من تعرف من الفتيات والنساء فتدعوهن إلى ما هى عليه من السفور والخلاعة، والخروج على أحكام الإسلام، الذى أمر أن تستر المرأة جميع جسمها بما لا يصفه، ولا يشف عنه، وبألوان عادية غير ملفتة للنظر، وأوصاها أن لا يظهر منها رائحة الطيب والعطر إذا كانت ستخرج ويشم ذلك منها الرجال الأجانب.

«رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة» أى: يصنعن من شعورهن، أو من شعور مستعارة شيئا عاليا على رؤوسهن، يشبه سنام الجمل، كل ذلك طلبا للزينة والجمال، ولفتا لأنظار الرجال.

هذه أوصاف الصنف الثانى من أهل النار، ممن حذر رسول الله ﷺ من الاقتداء بهن، فمن فعلت فعلتهن فهى من أهل النار، والقائم عليها من زوج أو أب أو أخ أو ابن هو أيضا من أهل النار، فما انحرفت امرأة إلا بتساهل رجالها، ولو وجدت هذه السافرة من يُقَوِّمُها من زوج أو أب أو أخ أو ابن ما فعلت كل هذا الذى فعلته، إنها تحتاج من ينصح ويوضح شؤم هذا السفور، إنها تحتاج من يشد عليها كى تترك هذا الانحراف، إنها تحتاج من يعلمها دينها، ويأخذ بيدها للالتزام بأحكامه، فلا يتساهل الرجال ويظنون أنهم بمنأى عن عقوبة هذا التبذل، وهذا الانحراف، لا، إنكم لستم بمنأى عنه، وإنما قال ﷺ: «ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم»[(١)] بل إنه ﷺ نفى عن الرجل الذى

(١) أخرجه مسلم فى الإمارة باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر ٣/١٤٥٩ وأخرجه البخارى وغيرهما و«البعل» الزوج.

يترك زوجته تمشى كاسية عارية نفى عنه الرجولة الكاملة فقال: «سيكون فى آخر أمتى رجال يركبون على سروج، كأشباه الرجال، ينزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات، على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف، العنوهن فإنهن ملعونات، لو كان وراءكم أمة من الأمم خدمهن نساؤكم، كما خدمكم نساء الأمم قبلكم»[1] ليت ولى المرأة المتبرجة يعلم ما عليه من الوزر، وما اقترف من الإثم، فإنه ترك المنكر يصول ويجول فى بيته، وهل هناك منكر، أعظم من أن يترك من يعول تخرج متبرجة، تظهر مفاتنها للأجانب، وتدعو الجميع للانحراف والانحلال؟

• مفاسد السافرة:

وهذا الصنف من النساء ـ الكاسيات العاريات ـ مفاسده فى الأمة كثيرة وخطيرة فماذا يُنتظر من امرأة خرجت متمايلة متبخترة، قد لبست من كل زينة، وأظهرت كل فتنة، تداعب الرجال بميوعتها وتستثير الشباب بأنوثتها، ماذا ينتظر من هذه؟ أتكون أما تربى الأجيال على الخلق، أتكون زوجة تتقى الله فى نفسها ومال زوجها، أتكون فاضلة تدعو إلى الخلق الكريم؟ بدهى، لا، وألف لا. إنها على العكس من ذلك تماما.

إن المرأة المتبرجة قد هتكت حجاب الحياء الذى هو من أخص خصائص المرأة، فإذا خرجت الفتاة متزينة متكشفة أمام الناس زال عنها الحياء، وأصبحت جريئة، ليس فيها أدب الأنثى، وحياء العذراء.

والمرأة السافرة تقدم نفسها للشر والفاحشة، فالذى يقوم بعملية التزيين لها رجل أجنبى، أو امرأة كثيرة الشر، ومن هنا تدخل السافرة دائرة

---

(٢) أخرجه ابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان ٧/ ٥٠٢.

الشر، الذى عاقبته وخيمة.

إن المتبرجة تتزين بكل زينة تقدر عليها، وتخرج فى أوساط الرجال، وفى هذا إثارة للغرائز الكامنة، وإغراء للرجال بالنساء، ميوعتها تغرى الرجال بها، وتَجَمُّلُها يغرى بها من فى قلبه زيغ وضلال، وبعد ذلك يحدث كل الحرام من نظرات وكلمات ملاطفة، ثم ضحكات ثم قبلات، ثم الزنا، نسأل الله العافية، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [1] ويقول ﷺ: «لم تظهر الفاحشة فى قوم قط، حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا»[2].

إن المرأة لا تُظهر مفاتنها إلا إذا كان قلبها خاليا من الخوف من الله، مليئا بالضلال والهوى، ومثل هذه ضاع حياؤها، وقتلت عفتها، وتبلد حسها، وانطلقت فى طرق الهوى والانحراف، فتربى أولادها على غير خلق.

إن السافرة تقتل أعراض وأنساب أهلها، وفى ذلك تضييع للرجولة، وقضاء على الأسر.

إن السافرة تنشر فجورها وعهرها بين عارفيها، فهى شر مستطير على الأمة.

إن السافرة زوجها غير واثق فى عفتها وطهرها، غير واثق فى أن أولاده منها هم أولاده، وفى ذلك تحطيم للرجل وقضاء على الأسرة.

إن السافرة أولادها غير واثقين بأسرتهم، غير واثقين من نسبهم،

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٢.

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه فى الفتن باب العقوبات ٢/١٣٣٣.

نشأوا على رؤية الضلال فألفوه.

إن السافرة يَحزن زوجها حينما يسمع ما يقع من أهوال السفور والاختلاط.

إن السافرة غير حريصة على زوج وأسرة، فهى تحب حياة الإباحية والفجور.

إن السافرة تُضَيِّع أموال الأسرة فيما لا يفيد، فتضيق عليها فيما هو مفيد.

إن السافرة قد أشقت نفسها وزوجها وأهلها وأمتها بغير ما سبب، وبدون داع فكان جزاء وفاقا أن تدخل النار مع الداخلين.

• بين السافرة والصالحة:

إن الفارق كبير بين السافرة والمحتشمة، فأين السافرة من الصالحة المحتشمة العفيفة التى قال فيها رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها[1]، وحصنت فرجها[2]، وأطاعت بعلها[3]، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت»[4]؟ إن الفرق شاسع، امرأة تعيش لشهواتها وملذاتها، تعيش لشيطانها وضلالها، تعيش فى معصية ربها. وامرأة تعيش للحق وللخير، لدينها وآخرتها، تعيش فى طاعة ربها، بدهى أن الأولى من أهل الجحيم والثانية من أهل النعيم.

---

(١) أى الصلوات الخمس المفروضات.

(٢) أى كانت طاهرة عفيفة.

(٣) زوجها.

(٤) أخرجه ابن حبان فى صحيحه.

• الحفاظ على المرأة:

إن الله سبحانه وتعالى لم يبح للرجل أن ينظر إلى المرأة، ولا أن يقترب جسمه من جسمها، ولا نَفَسُه من نَفَسها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [١]، وقال ﷺ: «لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة»[٢] وقال ﷺ: «لأن يُطعن فى رأس أحدكم بمخيط[٣] من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له»[٤] وقال ﷺ: «ليس للنساء وسط الطريق»[٥] وفيه زجر عن مماسة النساء الرجال فى المشى، كل ذلك صيانة للمرأة، وخشية الوقوع فى الزنا، الذى به تدنس الأعراض، وتختلط الأنساب، وتقع الشرور، وكثيرا ما تكون المرأة هى الضحية لما جلبته على أهلها من خزى وعار.

ودعا الإسلام إلى صيانة المرأة، وبقائها فى منزلها، بعيدا عن الرجال، معززة مكرمة، وماذا بعد قوله ﷺ «صلاة المرأة فى بيتها خير من صلاتها فى حجرتها، وصلاتها فى حجرتها خير من صلاتها فى دارها، وصلاتها فى دارها خير من صلاتها فى مسجد قومها»[٦] كل ذلك حفاظا على شرف المرأة، وصيانة لها من القيل والقال، وعملا على راحتها وإبقاء على حيائها، فلتبق فى بيتها مصونة مكرمة، فإن خرجت لأمر يقتضى ذلك خرجت فى صورة الفاضلة العفيفة الحيية النبيلة.

---

(١) سورة النور آية ٣٠.

(٢) أخرجه الترمذى وأبو داود.

(٣) إبرة.

(٤) أخرجه الطبرانى والبيهقى ورجال الطبرانى ثقات رجال الصحيح.

(٥) أخرجه ابن حبان فى الحظر والإباحة باب الزجر أن تمشى المرأة فى حاجتها فى وسط الطريق ٧/٤٤٧.

(٦) أخرجه أبو داود وأخرجه الحاكم.

«لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها» هذا تأكيد لما جاء فى أول الحديث ففى أول الحديث، أن الصنفين من أهل النار، القساة الغلاظ الذين يعذبون الناس، والنساء الفاجرات،فجاءت هذه الجملة مؤكدة لما فى صدر الحديث، مبينة أن السافرات المتبرجات لا يدخلن الجنة، ولا يقتربن منها، حتى إنهن لا يجدن ريحها، مع أن ريحها يُدْرَك من مسافات بعيدة.

إنهن من أهل النار، ولا نصيب لهن فى الجنة، فلتتعظ العاقلة، ولترتدع الذكية، فهل تقبل عاقلة أن يلقى بها فى النار، النار التى هى أشد من نار الدنيا مرات ومرات؟!!

إن هذا الحديث كاف لردع كل مسلمة، ولإعادتها إلى عداد الصالحات المستقيمات، إنه يبين المصير والخاتمة، فلتفق العاقلة إلى رشدها، ولتبادر بالتوبة إلى الله ربها.

● شقاء السافرات:

وإذا كان هذا الحديث يبين أن السافرات لهن سوء المصير فى الآخرة، فإن أحاديث أخرى تبين أن هذا الصنف - أى السافرات - محرومات من رحمة الله فى الدنيا، فلا توفيق من الله لهن، ولا عون من الله لهن، يخترن خبيث الأشياء، ويملن إلى الضار، ويبتعدن عن النافع، عليهن حلت لعنة الله كما سبق فى حديث «سيكون فى آخر أمتى رجال يركبون على السروج، كأشباه الرجال، ينزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات، على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف، العنوهن، فإنهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم خدمهن نساؤكم كما يخدمكم نساء الأمم قبلكم»[1] ولتتأمل العاقلة قوله ﷺ «العنوهن فإنهن

(١) تقدم.

ملعونات» إنهن مطرودات من رحمة الله، إنهن محرومات من لطف الله، تنزل المصائب عليهن ولا لطف، وتنزل عليهن الأمراض الخطيرة ولا عافية، إنهن يبتن فى معصية الله، ويصبحن فى معصيته، فغضب الله عليهن، وهو سبحانه وتعالى القائل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ (١)، فالمعرض عن دين الله وطاعته يجعل الله معيشته فى الدنيا ضنكا، وله فى الآخرة العذاب الشديد المديد، نسأل الله العافية.

وفى قوله ﷺ: «لو كانت وراءكم أمة من الأمم خدمهن نساؤكم...» الحديث دليل على أن السافرات سبب فى نزول غضب الله على الأمة، فيورثها ذلا بعد عز، فعلى الأمة أن تنتبه إلى هذا المرض الخطير، مرض تفسخ المرأة وتبذلها، مرض انحرافها وضلالها، لتنتبه الأمة إلى ذلك وتعمل على القضاء على هذه الزلة، رجاء أن يعزنا الله الذى كتب العزة للمؤمنين. إن الأمة لا تنهض بالأمهات العاهرات، ولا يستقيم النشء بالأمهات الضالات، وإنما تنهض الأمة بالأمهات الصالحات، ويستقيم النشء بالأمهات المستقيمات، كما قال القائل:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق

(١) سورة طه آية ١٢٣ ـ ١٢٧.

• ريح الجنة:

«وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا» هذا بيان لبعد السافرات البعيد عن الجنة، فهن لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، ثم بين ﷺ أن ريحها يوجد من مسيرة كذا وكذا، أى يوجد من مسيرة سنوات عديدة، وقد جاء فى روايات أخرى أنه يوجد من مسيرة أربعين عاما، وفى روايات أنه يوجد من مسيرة سبعين، وروايات أنه يوجد من مسيرة مائة، وروايات أنه يوجد من مسيرة خمسمائة، وروايات أنه يوجد من مسيرة ألف. ويجمع بين هذه الروايات بأن ريح الجنة لا يدركه الإنسان بقدراته، وإنما يدركه إذا رزقه الله ذلك، وبعض الناس يرزقهم الله ريح الجنة من مسيرة أربعين سنة، وبعضهم يرزقه الله إدراك ريح الجنة من مسيرة سبعين، وبعضهم يرزقه الله إدراك ريح الجنة من مسيرة مائة عام، وبعضهم من مسيرة خمسمائة، وبعضهم من مسيرة ألف عام.

وهذا الأخير أفضلهم يليه الذى قبله، وأقلهم درجة الذى يرزق إدراك ريح الجنة من مسيرة أربعين عاما[1].

وظاهر النص الذى معنا أنه ﷺ أراد أن النساء السافرات بعيدات عن الجنة مسافات ومسافات، محرومات من كل نعيم، حتى إنهن لا يجدن ريح الجنة الذى يدرك من مسافات بعيدة، حتى لربما أدركه من بينه وبين الجنة مسيرة ألف عام.

---

(١) راجع فتح البارى فى شرح حديث «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة....» كتاب الديات باب إثم من قتل ذميًا بغير جرم ١٢/٢٥٩ ـ ٢٦٠.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

فى هذا الحديث أخبر ﷺ عن ظهور صنفين فى الأمة على أحوال معينة، فوجد الصنفان كما أخبر ﷺ، وما ذلك إلا من أعلام نبوته ﷺ.

لقد أخبر ﷺ عن ظهور طائفة من الناس يضربون الناس بأسياط كأذناب البقر، فوجد هذا، ورأينا فى الأمة أناسا فى غاية القسوة، بل إن أجهزة الشرطة فى الدول تتبارى فى ابتكار أجهزة التعذيب الأقوى والأشد، يستعملها أناس قلوبهم خلت من الرحمة، وامتلأت بالقسوة.

ولقد أخبر ﷺ عن ظهور هذا الصنف فى وقت كان العقل لا يتصور وجوده فى الأمة، فلقد كانت الأمة متراحمة متعاونة، يراقب المسلم ربه سبحانه وتعالى فى كل أموره، كانت الأمة على خير حال، أمة قال الله فيها: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ أمة حاكمها رجل منها، إذا أصاب أعانوه، وإذا أخطأ قوموه، لا يتعالى ولا يستبد، لا يعمل بهواه ومزاجه فى الأمة، وإنما هو والأمة محكومون بدين الله تعالى.

وإن أمة كهذه لا يتصور العقل أن تهبط لدرجة ظهور أناس يعذبون إخوانهم بوسائل التعذيب القاسية، وإنما يتصور العقل أن تسمو وترتفع ولو وجد هذا القاسى لأخذت الأمة على يديه ومنعته من ظلمه، لكنه ﷺ يخبر أنه سيوجد هذا الصنف القاسى الذى لا يمنعه خلقه من هذه القسوة ولا تمنعه الأمة أيضا، ويتحقق ما أخبر به ﷺ، ويظهر هذا الصنف، مما يدل على أن الله سبحانه وتعالى الذى أحاط بكل شىء علما إنما هو الذى أخبر رسوله بهذا فأخبر ﷺ الأمة تحذيرا وترهيبًا.

وأخبر ﷺ عن ظهور نساء يلبسن الملابس الضيقة التى تصف أجسادهن، والرقيقة التى تشف عما تحتها، يلبسن الملابس القصيرة التى

لا تستر كل البدن، ويقع الأمر على ما أخبر ﷺ، فتوجد طائفة من النساء لا يوجد وصف أدق لحالهن من هذا الوصف الذى أخبر به ﷺ «كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة» وهذا أيضا من أعلام نبوته ﷺ، فما كان عقل يتصور فى صدر الأمة وسلفها الصالح أن يوجد هذا الصنف، فلقد كانت المسلمة على خير حال فى عصر النبوة، كانت فى أعلى درجات العفة والطهر، والصيانة والشرف، فما كان يُعرف العرى مطلقا، وما كان هناك اختلاط وتزاحم أجساد النساء بأجساد الرجال، وكانت المرأة تربأ بنفسها عن الزنا تماما، ولما بايع رسول الله ﷺ النساء، بايعهن على ألا يشركن بالله فبايعناه، ثم بايعهن على أن لا يسرقن فبايعناه، ثم بايعهن على أن لا يزنين فقالت هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان: وهل تزنى الحرة[1]؟ وفى رواية أنها قالت: أو تزنى الحرة؟ لقد كنا نستحى من ذلك فى الجاهلية فكيف بالإسلام[2]؟ إنها بهذه المقولة تكشف عن طبيعة المرأة فى هذه الفترة الخيرة، إنها تقول إن الحرة لا تزنى فلم المبايعة أو المعاهدة على ذلك، إن الزنا أمر يرفضه خلقها، ونص على تحريمه دينها. وإن أمة هكذا، لا يتصور العقل أن تنحدر المرأة إلى العرى، وكشف المفاتن، والاختلاط بالرجال، والممازحة والمضاحكة، فماذا بعد ذلك إلا الزنا، إن العقل لا يتصور حدوث ذلك فى الأمة، لكنه ﷺ أخبر بوجوده، ووجد وفق ما أخبر تماما، وما ذلك إلا لأن الله الذى يعلم الغيب قد أنبأه بهذا، فأخبر به الأمة تحذيرًا، فليحذر ذلك أولو الألباب ولتسلم العقول برسالة من أخبر بهذه الأمور، فوقعت كما أخبر ﷺ، حتى أصبحت سنته ترقب الأمة، وكأن الوحى مازال ينزل. فصلى الله وسلم وبارك عليه.

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن سعد كذا فى الدر ٦/٢٠٩.

• الدروس المستفادة من الحديث:

١ ـ التحذير من القسوة، ومن تعذيب الناس بما يؤلم كثيرا، وقد قال ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقى» فليحذر المسلم أن يعذب أحدًا من الخلق، مسلما كان أو غير مسلم، حذار أن يعذب أو يضرب بما يؤلم كثيرا، فإن ذلك يجعل فاعله من أهل النار وتحل عليه اللعنة.

ومن رأى شيئا من ذلك يقع فلا يسكت عليه، وإنما عليه أن ينكر وأن يُقوِّم ما استطاع، ولا يصح أن يستشرى المنكر فى أمة هى خير أمة.

٢ ـ التحذير من عرى النساء، فلا تبرج ولا سفور، ولتلبس المسلمة ما يتفق مع دينها، وإلا كانت من أهل النار، أى عاقلة تقبل هذا؟ نسأل الله الكريم أن يحفظنا من النار، ومما يقرب إلى النار.

إن بعض النسوة يلبسن الملابس القصيرة أو الشفافة اتباعًا للعرف الجارى فى مجتمعها، وهى لا توافق على هذا فى داخلها، وإنما غلب العرف إرادتها، ولهذا الصنف من النساء أقول: إسلامنا أعز وأعلى، فيجب أن نتبع ما يرضى الله، وإن لم يوافق العرف، وها هو رسول الله ﷺ يعالج هذا المرض بقوله.. لا تكونوا إِمَّعَةً، تقولون إن أحسن الناس أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»[1]، و«إِمَّعَةً»: أى لا رأى لكم، وإنما تقلدون الغير. و«وطنوا»: أى عودوا أنفسكم واحملوها على ذلك.

٣ ـ التحذير من السبق فى الشر، فلما كان هذا الصنف من النساء «مميلات» أى تدعو الغير إلى الانحراف كن من أهل النار، فلا يكن المسلم رأسًا فى الشر، ولا سباقًا إلى المعصية، وإنما يجب عليه أن يبتعد

(١) أخرجه الترمذى فى البر باب ما جاء فى الإحسان والعفو جـ ٦ ص ١٤٣ تحفة الأحوذى.

عن الشر، وأن يحرص على الخير، وليستعد للقاء الله ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ (١) أى من خاف القيام بين يدى الله للحساب دعاه ذلك للاستقامة فكان من أهل الجنة.

٤ ـ الإسلام دين يحترم آدمية الشخص وإنسانيته، فلا تعذيب ولا ضرب بالسياط ومن أخطأ خطأ فيه حد أقيم عليه الحد فى ضوء ما شرع الله تعالى وهذا كاف فى الردع والزجر، إنه دين يرى الإنسان كريما فلا يمتهن، عزيزا فلا يُذَل، لا تنتزع إرادته، ولا تصادر حريته، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٢).

٥ ـ الإسلام دين يحافظ على الأعراض، ويرعى صحة الأنساب، فأمر المؤمنة بغض البصر، وإخفاء الزينة، أمرها بالحشمة، والبعد عن الرجال، وأمر الرجل بغض البصر أيضا، والبعد عن النساء، ورهب من الزنا وحذر منه: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (٣).

٦ ـ الإسلام دين يباعد بين الناس وبين الشر، ويأمر المسلم أن لا يتقدم نحو الشر، فإن الشر من بعيد أيسر من الاقتراب منه ثم الترك، فيأمر بعدم النظر إلى المرأة الأجنبية، ويأمر الأجنبية بالتستر والحشمة، ويأمر بعدم خلوة الرجل بالمرأة، وكل هذا من شأنه أن يباعد بين الناس وبين جريمة الزنا.

٧ ـ الإسلام دين يحرص على الاتزان والوقار، فلا ميوعة، ولا تمايل، ولا تبختر ولا تكسر وإنما جدية واتزان، واستقامة واعتدال.

---

(١) سورة الرحمن آية ٤٦.

(٢) سورة الإسراء آية ٧٠.

(٣) سورة الإسراء آية ٣٢.

الإخبار بكثرة الفتن وطريق النجاة

عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «يأتى عَلَى النَّاسِ زمَانٌ خَيْرَ مال الرَّجُل الْمُسْلمِ الْغَنَمُ، يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفرُّ بدينه مِنَ الفتَنِ»[1].

• المعانى:

«شعف الجبال» أعاليها ورؤوسها. وشعف جمع شعفة، وشعفة كل شىء أعلاه.

«مواقع القطر» أى مواطن نزول المطر، وخصها بالذكر لأنها الأماكن التى يكثر فيها العشب الذى يرعى.

«يفر بدينه من الفتن» من الأشياء التى تضر بدينه، كالتى توقعه فى أمر مُحرَّم، أو تمنعه من القيام بأمر واجب. أو تدخله فى بدعة، أو تجعله يغير أو يبدل فى سنة.

• راوى الحديث:

أبو سعيد الخدرى: الصحابى الجليل، الفقيه المجتهد، الصابر المحتسب، مفتى المدينة: سعد بن مالك بن سنان الأنصارى.

أبوه مالك بن سنان صحابى مجاهد، وأخوه لأمه قتادة بن النعمان أحد البدريين.

---

(١) أخرجه البخارى فى الرقاق باب العزلة راحة من خلاط السوء ١١/ ٣٣١ وفى غير هذا الموضع.

تحدث أبو سعيد عن نفسه فقال: عرضت يوم أحد على النبى ﷺ، وأنا ابن ثلاث عشرة، فجعل أبى يأخذ بيدى، ويقول: يا رسول الله، إنه عَبْل العظام[1]، وجعل نبى الله يُصَعِّد فىَّ النظر ويصوبه، ثم قال: رده فردنى.

ويتضح من ذلك حرص أبى سعيد على الجهاد، وحرص والده، فلقد كانا شأن بقية الصحابة حريصين على نصرة دين الله سبحانه وتعالى، متمنين الشهادة فى سبيل الله، كما يتضح منه أيضا أن أبا سعيد رُدّ ولم يقاتل فى غزوة أحد. أما أبوه فحضرها وأبلى فيها بلاء حسنا، ولما جرح رسول الله ﷺ فى هذه الغزوة أسرع والد أبى سعيد (مالك بن سنان) إليه ﷺ، فمسح الدم عن الجرح، لكنه لم يُلق بالدم، وإنما مصه وابتلعه فقال رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى من خالط دمى دمه فلينظر إلى مالك بن سنان»[2] (والد أبى سعيد).

واجتهد والد أبى سعيد فى القتال ومجاهدة الكفار حتى حظى بما يرجوه كل مخلص، حظى بالشهادة فى سبيل الله، فرضى الله عنه وأرضاه.

ولما انتهت الغزوة ـ غزوة أحد ـ عاد رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وكان فى مستقبليه ﷺ أبو سعيد الخدرى سعد بن مالك، فنظر إليه ﷺ وقال: سعد بن مالك؟ فقال أبو سعيد: نعم بأبى وأمى أنت. يقول أبو سعيد: فدنوت منه فَقَبَّلْتُ ركبتيه فقال: أجرك الله فى أبيك.

ولم تضعف عزيمة أبى سعيد، ولا خشى المعارك بسبب مقتل أبيه،

---

(١) ضخم العظام.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٦/٣٤ رقم ٥٤٣٠، والحاكم فى معرفة الصحابة ٣/٥٦٣، ٥٦٤ من أكثر من طريق.

بل ولا غضب على الدعوة لأنه كان يريد نصرة تعتمد على المعجزات، بلا مجهود ولا شهداء وإنما ظل على نهج المسلمين، فارتدى آلات الحرب وحضر المشاهد كلها بعد ذلك مع رسول الله ﷺ.

أما عن الجانب المالى فى حياة أبى سعيد، والذى يصور عقيدته، ويبين سلوكه فيوضحه لنا هذا الحديث والذى يقول فيه أبو سعيد أنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام، فأصبح وقد عصب على بطنه حجرا من الجوع، فقالت لى امرأتى: ائت النبى ﷺ فقد أتاه فلان فأعطاه، وأتاه فلان فأعطاه، قال: فأتيته فقلت: ألتمس لى شيئا، فذهبت أطلب فانتهيت إلى النبى ﷺ وهو يخطب وهو يقول «من يَسْتَعِفّ يُعِفّه الله، ومن يستغن يغنه الله عز وجل، ومن سألَنا شيئا فوجدناه أعطيناه وواسيناه، ومن استعف عنا واستغنى فهو أحب إلينا ممن سألنا» قال: فرجعت وما سألته شيئا فرزق الله حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالا منا[1].

على الرغم من أنه قد ربط حجرا على بطنه من الجوع رجع ولم يطلب من رسول الله شيئا، فإن ما سمعه منه ﷺ جعله يؤثر جانب عدم السؤال، وكيف يسأل وقد سمع «ومن يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله عز وجل» لقد امتثل أبو سعيد فورا هذه النصيحة، وكانت النتيجة كما أخبر ﷺ فلقد أغناهم الله ووسع عليهم. فرضى الله عن أبى سعيد فى امتثاله ويقينه وتوكله.

وأبو سعيد من أحداث الصحابة، فلقد هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأبو سعيد فى العاشرة من عمره تقريبا، وتوفى ﷺ وأبو سعيد

(١) أخرجه أحمد ١٧/٤٨٨ رقم ١١٤٠١ وتقدم عنده مختصراً ١٧/١٤ رقم ١٠٩٨٩. وهو حديث صحيح.

فى العشرين، وهذا يدل على نضج قوى، فإن أبا سعيد قد وقف المواقف المشرفة، ولم يكتمل عمره العشرين، فحضر غزوة الخندق، وبيعة الرضوان، واستقبل نبأ استشهاد والده بكل صبر وثبات، كل ذلك وهو بين الثالثة عشر والعشرين من عمره.

وأبو سعيد من مدرسة الاعتماد على الذاكرة، رائيًا أن العلم الذى يُحفظ فى الصدور يكون قريبًا إلى العمل، ولا يعتريه خطأ ولا تحريف، ومن أقوال أهل هذه المدرسة:

ليس بعلم ما حـوى القمطر[1]　　　ما العلم إلا ما حواه الصدر

ومن أقوالهم أيضا:

استـودع العلم قرطاسا[2] فضيعـه　　　لبئس مستودع العلم القراطيس

ومن هنا لما قال بعض تلامذة أبى سعيد له: إنك تحدثنا بأحاديث معجبة، وإنا نخاف أن نزيد أو ننقص، فلو كتبناها. قال: لن تكتبوه ولن تجعلوه قرآنا، ولكن احفظوا عنا كما حفظنا.

وقال لهم مرة أخرى: خذوا عنا كما أخذنا عن رسول الله ﷺ[3].

وهو إذ يوصى بالحفظ وعدم الكتابة، يوصى أيضًا بما يديم الحفظ، فيقول لتلامذته: تحدثوا فإن الحديث يذكر الحديث.

عمَّر أبو سعيد، فتوفى سنة أربع وسبعين، عن عمر يفوق الثمانين، فرضى الله عنه وأرضاه ورضى عن الصحابة والتابعين[4].

---

(١) الدُّرج.

(٢) ورقا.

(٣) المستدرك ٣/ ٥٦٤.

(٤) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء.ومستدرك الحاكم ٣/ ٥٦٣. والمعجم الكبير للطبرانى ٦/ ٤٠. وتهذيب التهذيب ٣/ ٤٧٩.

• شرح الحديث:

يخبر ﷺ أنه سيأتى على الأمة زمان تكثر فيه الفتن، أى الأمور الضارة بالدين، أمور تصرف الإنسان عن دينه، أو تجعله لا يستطيع امتثال أوامره واجتناب نواهيه، أو تُحيِّرُهُ حتى يصبح لا يعرف الحق من الباطل، أمور تكثر فى المجتمع وهى تتنافى مع الإسلام!

يحتاج المسلم لجهد كبير فى إبعادها عن نفسه وعن أهله، أمور تُلِحُّ عليه كثيرا، تعرض عليه أول الأمر فينكرها، ثم يضعف إنكاره أمامها شيئًا فشيئًا حتى يقع فيها، أمور ينكرها أول الأمر ثم لا يلبث تحت خداع المنطق وتبريرات الأشرار أن يقع فيها!

هذه الفتن نصح رسول الله ﷺ أمته أن لا يقعوا فيها، وأن لا يضعفوا أمامها، وأسدى إليهم فى هذا الموضوع خير النصائح، وما به ينجو المسلم منها ويسلم.

ومن هذه النصائح الحديث الذى معنا، فهو يبين أنه إذا ظهرت الفتن وخاف المسلم منها على دينه فليعتزل الناس، وليجعل رأس ماله عددا من الغنم، يرعى بها هنا وهناك يشرب لبنها ويلبس صوفها، توفر له أسباب الحياة مبتعدًا بها عن الفتن، فارا بدينه سليما، وبخُلُقِه قويما.

• العزلة والفتن:

والإسلام دين لا يحرص على العزلة، وإنما يأخذ بها حينما تتعين طريقا للحفاظ على الدين. ذلك أن العزلة تمنع المسلم من خير كثير، تمنعه من مجالس العلم التى أعلى الإسلام قدرها، وقدر أهلها كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [1].

(١) سورة المجادلة آية ١١.

ورسول الله ﷺ يقول: «ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة[١]، وغشيتهم الرحمة[٢]، وحفتهم الملائكة[٣]، وذكرهم الله فيمن عنده[٤]، ومن بطأ به عمله[٥] لم يسرع به نسبه»[٦].

إن العزلة تحرم صاحبها من هذه المجالس فلا يكون متعلما ولا معلما، وهاتان حالتان يحرص عليهما المسلم.

والعزلة أيضا تحرم صاحبها من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، اللذين بنى عليها خيرية هذه الأمة، قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾[٧].

وأيضا تحرم المسلم من الجهاد الذى هو سهم من أسهم الإسلام، وأصل من أصوله، وفيه يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[٨].

وهذه الآية توضح أن الأصل فى المؤمنين أنهم رجال جهاد فى سبيل

---

(١) الطمأنينة.

(٢) عمتهم الرحمة.

(٣) أحاطت بهم الملائكة.

(٤) ذكرهم الله فى الملأ الأعلى.

(٥) من كان عمله ناقصًا لا يلحقه نسبه بأصحاب الأعمال الصالحة.

(٦) أخرجه مسلم فى الذكر باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ٤/ ٢٠٧٤.

(٧) آل عمران آية ١١٠.

(٨) سورة التوبة آية ١١١.

الله، وأن دينهم وشأنهم أنهم طلاب نصرة لدين الله، أو شهادة فى سبيل الله، هذا دين المؤمنين وشأنهم.

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١].

ويقول ﷺ: «تضمن الله لمن خرج فى سبيله، لا يخرجه إلا جهادًا[٢] فى سبيلى، وإيمانا بى وتصديقا برسلى، فهو على ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة. والذى نفس محمد بيده ما من كَلْمٍ يُكْلَمُ[٣] فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونه لون دم، وريحه مسك، والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف[٤] سرية[٥] تغزو فى سبيل الله أبدًا، ولكن لا أجد سعة فأحملهم[٦] ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى. والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»[٧].

---

(١) سورة الصف آية ١٠ ـ ١٣.

(٢) نصب «جهادا» و«إيمانا» و«تصديقا» على المفعول لأجله، والمعنى: أنه لا يخرجه شىء إلا للجهاد والإيمان والتصديق.

(٣) ما من جَرْحٍ يُجْرح.

(٤) أى خلف.

(٥) القطعة من الجيش ترسل لمجاهدة العدو، وغالبًا لا تتعدى الأربعمائة مجاهد.

(٦) أى لا أجد نفقة تكفى المسلمين جميعًا ليذهبوا للجهاد، والنفقة تشمل الطعام والسلاح والمركوب.

(٧) أخرجه مسلم فى الإمارة باب فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله ٣/ ١٤٩٥.

إن العزلة تحرم المسلم من هذه المزايا الثابتة لتعلم العلم وتعليمه، وللجهاد فى سبيل الله تعالى، إنها تحرمه من خير كثير، ولذا قال ﷺ «المؤمن الذى يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، أعظم أجرا من المؤمن الذى لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»[١]. وقال عبد الله بن مسعود: «خالط الناس، ودينك لا تَكْلِمَنَّهُ»[٢] أى خالط الناس، ودينك لا تجرحه، وإنما حافظ عليه، ولا تجعل مخالطتك للناس على حساب دينك.

وهكذا يتضح أن الإسلام لا يدعو إلى العزلة، ولا يحبذها، لكنه إذا كثرت الفتن، وتعددت الأمور التى تصرف عن الدين وتلهى عن امتثال أوامر الله، وخشى المسلم أن تنال هذه الفتن من دينه، فإن الإسلام حينذاك يحثه على البعد عن الفتن وأهلها، ولو أدى ذلك إلى أن يعيش فى عزلة بعيدا عن الناس، ومن هنا جاء الحديث الذى معنا «يأتى على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم.. الحديث» جاء حاثا على اجتناب الفتن، وفرار المسلم بدينه منها.

وجاء أيضا أى الحديث الذى معنا، يعرف بأيسر السبل، وأسعد مناهج الحياة، فإذا ظهرت الفتن فلا يكن المسلم فى حيرة، ولا تختلط أمامه السبل، وإنما ليكن السبيل أمامه واضحا، وهو اعتزال الفتنة، والتمسك بالكتاب والسنة.

وقد يقول قائل: كيف أعتزل الفتنة وهى قد شاعت وذاعت؟

والجواب: اعتزل الفتنة، ولو أدى ذلك لاعتزالك الناس جميعا.

فيقول: وكيف أعتزل الناس جميعا والناس فى حاجات بعضهم ولا

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن باب الصبر على البلاء ٢/١٣٣٨.

(٢) أخرجه البخارى معلقًا فى الأدب باب الانبساط إلى الناس، وأشار الحافظ إلى أنه وصله الطبرانى فى المعجم الكبير، كذا فى الفتح ١٠/٥٢٦.

يُستغنى عن الآخرين؟

والجواب: عليك بالغنم، ارعها بعيدا عن الناس، وكل منها لبنا ولحما، والبس وافترش من صوفها فإنها توفر لك وسائل الحياة.

لقد أجاب ﷺ على كل هذه الأسئلة بهذا الحديث المعدود الكلمات، والذى بين فيه أنه ستظهر الفتن، وأن طريق السلامة منها إنما هو بالبعد عنها، وإذا اقتضى البعد عنها اعتزال الناس، فهذا أيضا ميسور باقتناء عدد من الأغنام تكفى المسلم حاجياته.

• الغنم:

وقوله ﷺ: «يكون خير مال الرجل المسلم الغنم» يفيد مزية للغنم على غيرها، فإنه ﷺ ذكر أنها تصبح خير مال المسلم، ويتضح للمتأمل أن الغنم فعلا فيها مزايا عديدة:

- فهى سريعة التناسل، وكثيرته، تلد فى المرة الواحدة عددا، وتلد فى العام أكثر من مرة.

- توفر لراعيها المطعم والمشرب والملبس بسهولة ويسر، يشرب لبنها، ويلبس ويفترش صوفها.

- سهلة الاقتناء، فرعيها سهل ميسور، تكفيها أصغر النباتات، وترعى الأخضر، وتأكل اليابس، تصعد المرتفعات، وتنزل المنخفضات، يرعاها الكبير أو الصغير.

● وفائدة أخرى فى الغنم هى أنها تنمى فى راعيها خصالا خلقية طيبة:

* فتنمى فيه السكينة والوقار، فالغنم هادئة وديعة، وسيرها خفيف

رتيب، لا تحدث فى حياتها ضجيجا كما فى جلبة الإبل، ولا سرعة حركة كما فى البقر، وإنما هى رقيقة رتيبة، ومن هنا قال ﷺ: «والفخر والخيلاء فى أصحاب الإبل، والسكينة والوقار فى أهل الغنم»[١].

* وتنمى فى راعيها اليقظة والانتباه، فإنها كثيرة التفرق، سهلة الاستتار، يُخشى عليها من عدوها كسبع أو سارق، وكل هذا يقتضى من راعيها أن يكون يقظا يجمعها، ويدفع عنها عدوها.

* وتنمى فيه الرحمة والشفقة، فإنها ضعيفة لا تتحمل قسوة، وفى بعض فترات حياتها تحتاج من راعيها المساعدة، فبعد الولادة يحمل صغيرها، ويهتم به بعض الوقت، حتى يشتد عظمه، إنه يعلمها بالإشارة بعصاه، ولا تتحمل منه ضربا، فإنه لو ضربها كسرها فأتلف ماله.

* وتنمى فى راعيها الصبر والتريث، فإنها كثيرة التفرق، وهو يجمعها من هنا وهناك، بعضها يسبق، وبعضها يتأخر، وعليه أن يهدئ سير من سبق، وأن يحث من تأخر على السير، وهو يقطع بها المسافات بحثا عن المرعى، ويسير فى السهل والوعر من الأرض، مما يقوى صبره وتريثه.

ونحن فى زماننا هذا ندرك أكثر من أى وقت آخر، أن الغنم خير مال المسلم فراعيها يسلم من أمراض المدنية، يعيش بعيدا عن الزحامات، وعن الحياة المصطنعة، فلا ضجيج يجهد أعصابه، ولا أجهزة تتلف صحته، وإنما يعيش فى الهواء بنقائه، وفى الشمس بأشعتها يستمتع بالنظر فى الكون الرحيب، ويسعد بحياة الحركة والنشاط.

وندرك أن الغنم أصبحت خير مال المسلم، لأن راعيها مطعمه حلال، لا تشوبه شائبة الربا التى عمت أهل المدنية، ولا تصيبه أبواب الكسب

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم.

الحرام التى ابتلى بها الكثير من أهل الحضر.

وندرك أيضا فى زماننا هذا خاصة أن الغنم خير المال، لأن راعيها طعامه أنفع الأطعمة للجسم، لم تشبه ما شاب الأغذية الحديثة من مواد سامة، أو مؤثرة فى شخصية أفراد الأمة، أو معدومة الفائدة، ولم تشبه ما شاب الأغذية المحفوظة من أضرار المواد الحافظة، أو ضياع الفائدة بالحفظ.

وإذا كان البعض يرى فى الرعى حرمانا من المدنية فهؤلاء أناس مبهورون بالمدنية، ولو عقلوا لعلموا مزايا الفرار بالدين من الفتن، وأن خير مال المسلم الغنم.

إن المتأمل يتضح له أنه ﷺ إنما نصح المسلم بما ينفعه فى دينه، ويصلح دنياه، وهذا شأن الإسلام فى كل أموره، يسعد الإنسان فى الدنيا، ويسعده فى الآخرة.

وكفى رعى الغنم منزلة أنه عمل اختاره الله تبارك وتعالى لأنبيائه، فقد قال ﷺ: «ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط[1] لأهل مكة»[2].

«يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر» أى أنه لا يرتبط بمكان يقيم فيه، وإنما يرتحل وراء ما ترعاه غنمه، فهو وراء الكلأ والعشب، لا يستقر بمكان، ولا يحرص على أن يكون له رفقة وجيران.

«يفر بدينه من الفتن» هذا يفيد أن هذا المسلم يفهم دينه، فإن الفاهم لدينه هو الذى يعرف قدر دينه، فيعتز به ويحافظ عليه، ويعرف ما يضر

(١) قراريط جمع قيراط، والمراد بالقيراط هنا: جزء الدينار أو الدرهم.
(٢) أخرجه البخارى فى الإجارة باب رعى الغنم على قراريط ٤/٤٤١.

بدينه فيجتنبه ويحترز منه، إنه الذى يعرف ضرر الفتنة وخطرها، وأن الواجب عليه أن يبتعد عنها، إنه يعرف كيف يعبد الله، وكيف يستقيم على شرعه سبحانه ومن هنا قال ﷺ «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، ومن لم يفقهه لم يُبَلْ[١] به»[٢].

والأصل فى المسلم أن يكون فاهما لدينه، يعلم المطلوب منه، ولذا قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٣].

لقد كثرت الفتن فى زماننا، ووقع الكثيرون فيها، بل أُعجب الكثيرون بها، وما ذلك إلا لجهلهم بالإسلام، وراح العلماء يحذرون وينصحون، لكن دون جدوى!! فالسيل جارف، وانحدار الأمة شديد، والسبيل لإنقاذ الأمة هو تعليمها الإسلام، فإن الفاهم لدينه جندى له، مستمسك به، وكفى الجهل ذما قوله ﷺ: «إن الله يبغض كل جَعْظَرِىٍّ[٤] جَوّاظ[٥]، صخاب بالأسواق[٦]، جيفة بالليل[٧]، حمار بالنهار[٨]، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة»[٩].

---

(١) لم يلق له بالا، ولم يهتم به.

(٢) أخرجه أبو يعلى فى مسنده ١٣/ ٣٧١ ح ٧٣٨١ والجزء الأول أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة باب فضل العلماء .... ١/ ٨١ ح ٢٢٤.

(٤) الفظ الغليظ المتكبر.

(٥) الحريص على جمع المال، البخيل به.

(٦) عالى الصوت فى البيع والشراء بالأسواق.

(٧) لا يقوم أثناءه للصلاة.

(٨) لا يطلب علمًا.

(٩) أخرجه ابن حبان فى صحيحه، فى العلم باب الزجر عن العلم بأمر الدنيا مع الانهماك فيها ١/ ١٤٥ ح ٧٢ الإحسان.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

فى زمان رسول الله ﷺ كان الخير سائدا، والشر منزويا بائدا، فالمسلمون مجتهدون فى العبادة، ومجالس العلم عامرة، والوفود رائحة غادية، تأتى إلى رسول الله ﷺ، من قريب ومن بعيد يتعلمون الإسلام، ويحفظون القرآن، ورسول الله ﷺ، يرسل رسله يبلغون دعوته، وينشرون دين الله بين عباده، والجهاد على قدم وساق، غزوات وسرايا، وانتصارات وفتوحات، والإسلام، ينتشر بين الناس سريعا. وإن حالا كهذه لا يتصور العقل معها انتشار الفتن حتى يصبح المسلم فى حاجة لاعتزال الناس، فرارا بدينه من الفتن، لكنه ﷺ يخبر بأن ذلك سيكون!!! يخبر بأن الفتن ستنتشر ويصبح خير مال المسلم قطيعا من الغنم، يرعى به فى الجبال والوديان، فرارا بدينه من الفتن، ويتحقق ما أخبر به ﷺ، فمسلم اليوم الفاهم لدينه، المدرك لما عليه الناس من بدع وخرافات، وما وقعوا فيه من فتن وشر، يتضح له أن أسلم طريق له أن يعتزل الناس، وأن أسلم مسلك فى الاعتزال أن يرعى غنما يكتسب منها رزقا حلالا، ويبتعد عن المجتمعات، وما فيها من بدع وخرافات وفتن.

إن كثيرًا من المسلمين الآن يعجزون عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ورايات الجهاد قد نسيت، وكتائب الجهاد غير موجودة، فماذا بقى من مزايا التجمعات، إنه لم يبق من مزاياها شىء، وإنما كثر شرها، فاللقمة الحلال فيها نادرة، والفتن وجوارح الدين فيها ظاهرة، والربا قد شاع فيها، والآمر بالمعروف لا يُسمع له، والناهى عن المنكر، لا يسْلم، أما مجالس العلم فما كان منها لله فقد عز وجوده، فكثر شر التجمعات، وقل خيرها، وتحقق حديثه ﷺ «يأتى على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم، يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»

تحقق فينا، فى زماننا وأهل زماننا، وهذا من معجزاته ﷺ، ومما أعلمه الله به من أمور الغيب.

وهو ﷺ إذ يخبر بذلك، إنما يحذر وينصح، يحذر من انتشار الفتن، والتساهل معها، فعلى الأمة أن تكون جادة فى أمر الله، وأن تكون قوية فى محاربة ما يغضب الله، وينصح من أظله زمان الفتن أن يعتزل الناس فرارا بدينه، وخير سبيل لاعتزالهم ولسلامة دينه أن يقتنى قطيعا من الغنم يقتات منه ويلبس.

إن المسلم مطالب أن يفهم دينه، وأن يلتزم به، فإذا وجد شيئا يؤثر على دينه كأمور تصرفه، أو بدع لا أصل لها فى الدين، فليعتزل أهل هذه الضلالات، مهما كثروا، وإن أدى ذلك لأن يعيش وحده.

• الدروس المستفادة من الحديث:

١ - سيأتى على الأمة زمان تكثر فيه الفتن، أى الأمور الصارفة عن الدين، أو المؤدية لاعوجاج فى امتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

٢ - إذا أظل الأمة هذا الزمان، فليفر المسلم بدينه من هذه الفتن، وليحرص على سلامة دينه، بكل وسيلة ممكنة، أما وإنه قد أظلنا زمن هذه الفتن فليحرص المسلم على سلامة دينه، وليجتنب الفتن ما ظهر منها وما بطن، وهذا الأمر يحتاج منه أن يفهم دينه، وأن يمتثل أوامره، ثم ليفكر جيدا فى سبل البعد عن المنكرات والفتن، ثم ليكن جازما فيطبق هذا، حتى يسلم له دينه، وهو فى هذا مأجور مثاب، بل له أعظم الأجر، فإن رسول الله ﷺ لما سئل عن قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [1]. قال ﷺ: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٥.

المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا[١]، وهوى متبعا[٢]، ودنيا مؤثرة[٣]، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك[٤] ودع العوام[٥]، فإن من ورائكم أياما، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم. قيل: يا رسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم؟ قال: لا، بل أجر خمسين رجلا منكم»[٦] فبين ﷺ أن العامل بالكتاب والسنة فى أيام الفتن له أجر خمسين صحابيا، وذلك لما يعانيه من فساد الزمان، وإقبال الناس على الضلال، نسأل الله العافية.

٣ ـ من أطيب وسائل السلامة من الفتن أن يعتزل المسلم المجتمعات بقطيع من الغنم، يأكل لبنه ولحمه، ويلبس صوفه.

إنه بذلك يبتعد بدينه عن المنكرات التى ظهرت، وينأى عن البدع التى استحدثت، ويسلم من المطعم الحرام، والكسب الحرام. يعيش عيش السعداء، يهنأ بسلامة دينه، وكثرة عبادته ربه، مع طيب العيش والعافية.

* * *

---

(١) الشح، البخل، ومعنى «شحا مطاعا» بخلا يقبله الكثيرون، بمعنى: أن يبخل المسلم بالمال أو بالأمر بالمعروف أو بالنصيحة، يبخل بذلك، وهو راض، ومن حوله راضون، ويشيع ذلك فى طبع الكثيرين.

(٢) أى يتبع الناس أهواءهم لا دينهم.

(٣) أى يختار الناس الدنيا ويؤثرونها ـ أى يفضلونها ـ عن الدين.

(٤) أى احفظ نفسك من المعاصى.

(٥) أى اترك أمر عوام الناس، والزم طريق الخاصة السائرين على الكتاب والسنة.

(٦) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة المائدة ٧/ ٤٢٣ وحسنه، وهو عند أبى داود فى آخر الملاحم.

الإخبار عن أخذ المال من الحرام

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يُبَالِى الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ أَمِنَ الحَلالِ أَمْ مِنْ حَرَامٍ»[1].

• المعانى:

«ليأتين على الناس زمان» أى أن هذا لن يحدث فى زمانه ﷺ، وإنما سيحدث فى أزمنة أخرى.

«لا يبالى» لا يهتم. ولا يتدبر، وإنما يتجرأ ويتجاسر.

«المرء» الشخص، رجلا كان أو امرأة، فردا كان أو جماعة.

«المال» كل شىء له قيمة، فيشمل النقود وغيرها من السلع التى لها قيمة.

«لا يبالى المرء بما أخذ المال أمن الحلال أم من حرام» أى لا يهتم الإنسان بقضية الحلال والحرام، وإنما يهتم بالكسب، فالمهم عنده أن يحصل على الشىء، أما أنه حصل عليه بأى طريق فهذا لا يبالى ولا يهتم به، وهذا سر الذم، وهو أنه ليس حريصا على الحلال، ولا مُصِرًا على البعد عن الحرام، وإنما المهم عنده جمع المال.

---

(١) أخرجه البخارى فى البيوع باب قول الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة﴾ جـ ٤ ص ٣١٣ وقبله فى باب من لم يبال من حيث كسب المال جـ ٤ ص ٢٩٦.

• راوى الحديث:

راوى هذا الحديث هو الصحابى الجليل أبو هريرة وقد تقدمت ترجمته فى الحديث الثانى[١].

• شرح الحديث:

منهج الإسلام فى الكسب:

الناس طبائعهم مختلفة ومصالحهم متعارضة، فلو تُرِكوا وشأنهم لأكل القوى الضعيف، ولاستعبد الغنى الفقير، ولاستذل القاسى الكثرة من البشر!!

فجاء الإسلام ليكبح جماح نوازع الشر فى الإنسان، فوضع منهجا لكسب المال، هذا المنهج يراعى مصلحة الجميع، لا يضار فيه الغنى لغناه، ولا الفقير لفقره، وإنما حقق الخير للجميع، إنه لم يضيق على الغنى الماهر، وفى نفس الوقت لم يعطه فرصة لانتهاز ضعف الضعفاء، فليكتسب الماهر من المال ما شاء، ولتتحرك ملكاته، وليستعمل قدراته، لكن دون مخالفة شرعية، والتى أساسها مراعاة مصالح الجميع، فلا يستغل حاجة الفقير ويعطيه المال بالربا، ولا يحتكر، ولا يغش، ولا يتجر فى محرم، ولا يغتصب.

وعلى الضعيف أن يتحرك ما استطاع ليكتسب قوته من حلال، ولا يسأل الناس، ولا يسرق، ولا يأخذ المال بالربا.

وإنما ليتصرف الجميع قدر طاقته دون إضرار بأى مخلوق آخر.

فها هى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تفتح أبواب الكسب الحلال

(١) ص ٧٥.

وتحث عليه، نجد هذا واضحا فى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾[١]، ففيه أمر بالانتشار فى الأرض، والمشى فى نواحيها باحثين عن أرزاقهم. وإذا كان هذا فى الصلاة ففى الحج أيضا يفتح الله أبواب كسب الرزق للحجاج، فيقول سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾[٢]، يقول عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية فتأثَّموا أن يتجروا فى المواسم فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فى مواسم الحج[٣].

ومعنى «تأثَّموا» خافوا الوقوع فى الإثم، وهو الذنب، فلقد كان الحجاج يخافون إن اتجروا أن يؤثر ذلك على حجهم، ورأوا أن يتفردوا للحج، ففتح الله باب التجارة وكان من شأنهم أنهم لا تشغلهم الشواغل عن التكاليف الشرعية، كما قال سبحانه: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾. يقول قتادة: كان القوم يتبايعون ويتجرون، ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله[٤].

---

(١) سورة الجمعة آية ٩ ـ ١٠.

(٢) سورة البقرة آية ١٩٨.

(٣) أخرجه البخارى فى التفسير باب ﴿ليس عليكم جناح...﴾ ٨/١٨٦.

(٤) ذكره البخارى فى البيوع باب التجارة فى البز وغيره ٤/٢٩٧.

فهذا وغيره يدل على أن الإسلام لا يضيق أبواب الكسب الحلال. وأحاديث رسول الله ﷺ كثيرة فى هذا:

* فيقول ﷺ «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[(١)] شأن الأنبياء جميعًا أنهم يأكلون من عمل أيديهم، وإنما خص ﷺ داود عليه السلام بالذكر لأنه كان خليفة، فكان يمكنه أن يأكل بلا عمل، لكنه وحرصا على الأفضل كان يأكل مما باشره بيده.

* ويقول ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»[(٢)].

* ويقول ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»[(٣)].

• مدح الكسب الحلال:

وهذه النصوص إذ تحث على الكسب الحلال تأتى نصوص أخرى لتبين قدر هذا الكسب الطيب، حتى إن القارئ للقرآن الكريم وللسنة المطهرة ليجد تركيزا على الكسب الحلال، ويشعر بأن النصوص تؤكد على أن المسلم من شأنه أن يحرص على أن يأكل من مال طيب، ويأتى فى صدر ذلك حديث رسول الله ﷺ، والذى فى ثناياه آيتان من كتاب الله تعالى:

---

(١) أخرجه البخارى فى البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده ٤/ ٣٠٢.

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة باب الاستعفاف عن المسألة ٣/ ٣٣٥ رقم ١٤٧١ وفى غير هذا الموضع.

(٣) أخرجه الترمذى فى البيوع باب ما جاء فى التجار ٤/ ٣٩٩ تحفة وقال: هذا حديث حسن.

* فيقول ﷺ: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (١)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (٢) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟»(٣) ففى الآيتين الكريمتين أمر للمرسلين وللمؤمنين بالأكل من الحلال الطيب، وفى صدر الحديث بيان أن الله يقبل من الصدقات ما كان من حلال، أما الكسب الحرام فلا ثواب على التصدق به، وفى نهاية الحديث ترهيب آخر من الكسب الحرام فالرجل يطيل السفر أشعث أغبر ينادى ربه، يرفع أكف الضراعة يا رب! يا رب! إلا أن هذا الجاهل لم يأخذ بأسباب قبول الدعاء وأولها الكسب الحلال، أن يكون طعامه حلالاً وشرابه من حلال، وملبسه حلالا، فلما لم يكن كذلك لم يُقبل دعاؤه، فليكن المسلم طيب الكسب ليكون قريبا من ربه، مقبولا عمله.

• ذم الكسب الحرام:

وبقدر ما تحث نصوص القرآن والسنة على الكسب الحلال، وتعلى من قدر المال الطيب، بقدر ما تحذر كل التحذير من الكسب الخبيث، ومن المال الحرام:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ

(١) سورة المؤمنون آية ٥١.

(٢) سورة البقرة آية ١٧٢.

(٣) أخرجه مسلم فى الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب ٢/٧٠٣.

فى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [١] جعل سبحانه المال الحرام هلاكا لآكله فى الدنيا، وتوعده بالسعير ـ جهنم ـ فى الآخرة.

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [٢] من رحمته سبحانه نهانا عن الظلم، ومن رحمته سبحانه توعد الظالمين زجرًا لهم، ونصرا لهم على أنفسهم وشياطينهم.

ويقول سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٣] والمطففون تفسيرها ما بعدها إذا أخذوا من الناس أخذوا الكيل والوزن زائدا، أما إذا أعطوا فإنهم يخسرون الكيل والميزان بمعنى ينقصونهما، ويذكِّر ربنا عباده بأنه: ألا يتذكر هؤلاء الذين يظلمون الناس أنهم سيبعثون وسَيُحْيِى الله الناس للحساب فى يوم عظيم يوم يقف الجميع أمام الله للحساب، إن الواجب على العاقل، أن يتعظ، فإذا اشترى أخذ حقه دون زيادة، وإذا باع أعطى الكيل أو الميزان حقه دون نقصان.

ويقول رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة لحم نبت من سُحْت»[٤] والسحت: الحرام.

---

(١) سورة النساء آية ١٠.

(٢) سورة النساء آية ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) سورة المطففين من آية ١ إلى الآية ٦.

(٤) أخرجه ابن حبان فى صحيحه ٣/ ١١١ ـ ١١٢ الإحسان، وذلك ضمن حديث طويل.

ويقول ﷺ: «لا يدخل الجنة جسد غُذِّى بحرام»[١].

ويقول ﷺ: «لا يكسب عبد مالا من حرام، فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار. إن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[٢].

لقد جمع ﷺ عدة أوجه من شؤم الكسب الحرام فى هذا الحديث، فهو لا تقبل منه الصدقة إذا تصدق منه كاسبه، ولا بركة فيه إذا أنفق منه، وحينما يموت كاسبه ويتركه، فإنه يكون سببًا لدخوله النار.

إن الذى يأخذ المال من الحرام لا بركة فيه، فإذا أنفق منه على زوجته نزعت منها البركة فكانت ضد زوجها تؤذيه وتقلقه، وإذا أنفق منه على ولده نزعت منه البركة فكان عاقا لوالده، لا يطيعه، ولا يكون قرة عين له، بل يكون حسرة وندامة، وهكذا فالكسب الحرام خسارة فى الدنيا وخسارة فى الآخرة، نسأل الله العافية.

• الحرام خسارة:

وذهبت النصوص لأبعد من التحذير والتنفير، ذهبت إلى حد تفنيد أسباب الكسب الحرام، فأبانت أن البواعث على الكسب الحرام لا قيمة لها، ولا خير يرجى منها:

فيقول الله تعالى: ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا**﴾ يبين سبحانه لأهل الحرص والشح الذين دفعهم حرصهم على جمع المال إلى أخذه من الربا يبين لهم

(١) أخرجه أبو يعلى ١/ ٨٤ ـ ٨٥ رقم ٨٣ ـ ٨٤ قال فى المجمع ١٠/٢٩٣: رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى فى الأوسط، ورجال أبى يعلى ثقات، وفى بعضهم خلاف.

(٢) أخرجه أحمد ١/٣٨٧.

سبحانه أن فعلهم هذا لا يثمر، وحرصهم لا يجدى، وإنما يمحقه الله أى يهلكه ويفنيه.

وجاءت السنة لتوضح وتبين، فالناس يقعون فى الحرام بسببين:

١ ـ الحرص على الرزق وخوف فواته.

٢ ـ استبطاء الرزق.

فيعالج ذلك ﷺ ويبين أن الرزق يصل صاحبه لا محالة، وأنه لا يصح أن يزيد الحرص حتى يوقع فى الحرام، كما أن الاستبطاء لا يصح أن يكون مدعاة للوقوع فى الحرام، وإنما ليكن الحرص والاستبطاء دافعين إلى الاجتهاد فى طاعة الله التى بها يُنال ما عند الله من خير وأجر.

فيقول ﷺ: «لا تستبطئوا الرزق فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزق هو له، فأجملوا فى الطلب، أخذ الحلال وترك الحرام»[1].

وقال ﷺ : «ليس من عمل يقرب إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، ولا عمل يقرب إلى النار إلا قد نهيتكم عنه، لا يستبطئن أحد منكم رزقه، إن جبريل ـ عليه السلام ـ ألقى فى روعى أن أحدا منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، فاتقوا الله أيها الناس، وأجملوا فى الطلب. فإن استبطأ أحد منكم رزقه، فلا يطلبه بمعصية الله، فإن الله لا ينال فضله بمعصية»[2]. و«ألقى فى روعى» أى فى قلبى، و«أجملوا فى الطلب» تقدم بيانها فى الحديث السابق، وفسرها الرسول ﷺ بأخذ الحلال وترك الحرام، أى اطلبوا رزقكم طلبا جميلا بأخذه من الحلال ليس إلا.

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى البيوع باب لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزق هو له ٢/ ٤ وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه الحاكم فى الموضع السابق ساقه شاهدًا للحديث السابق.

وقال ﷺ: «إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله»[(١)] فليسترح العبد، فإن رزقه يأتيه حتما، ولا يمكن أن يأخذه غيره.

وشىء مهم فى المسألة ، وهو أن العبد هو الذى يصبغ رزقه بالحلال أو بالحرام، فرزقه سيأتيه، فإن أصر على الحلال أتاه من الحلال، وإن دفعه الحرص، أو العجلة، أو سوء الطبع إلى طلبه من حرام أتاه أيضا لكن من حرام، وبأسلوب آخر إن الحرام لا يجلب للإنسان رزقا، وإنما سيكتسب من الحرام ما قدر له، لكنه بالحرام، ولو أنه لم يطلبه من الحرام لأتاه من الحلال، ولا يمكن للسارق أن يسرق ما لم يقدر له، ولا للمرتشى أن يأخذ ما لم يقدر له، ولو أنهما عفّا عن الحرام لجاءهما من الحلال هذا الذى سرقاه أو أخذاه رشوة.

• الرزق مضمون:

أما كفى المسلم قول الله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[(٢)]؟

• الرزق يزيد بالطاعة:

أما استولى على قلوب المسلمين قول الله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[(٣)]؟

ففهموا وأدركوا أن الأرزاق والخير والبركة تأتى بالتقوى والعمل

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه فى الزكاة باب ما جاء فى الحرص ٥/٩٨.

(٢) سورة هود آية ٦.

(٣) سورة الأعراف آية ٩٦.

الصالح، واتضح له هذا جليا بقوله ﷺ فى الحديث السابق: «فإن الله لا ينال فضله بمعصية» إن الأرزاق تطلب بطاعة الله، ويبارك فيها بفعل الصالحات وفى الحديث «من أحب أن يبسط له فى رزقه، وينسأ له فى أثره فليصل رحمه»[١] فمن أراد سعة الرزق، والنسء فى الأثر ـ أى التأخير فى الأجل، والمراد به: البركة فى العمر ـ من أراد ذلك فليصل رحمه، وفى حديث آخر يقول ﷺ: «صلة الرحم، وحسن الجوار، وحسن الخلق يعمران الديار، ويزيدان فى الأعمار»[٢].

• المنهج السليم فى طلب الرزق:

إن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية أبانت فى موضوع الرزق بيانا ما كان يمكن بعده أن تزل أقدام المسلمين إلى المطعم الحرام، فلقد أباحت الكسب الحلال، بل وحثت عليه وأعلت قدره، وحذرت من الكسب الحرام، وبينت خطره، وأظهرت للمسلم مصدر الخطأ الذى يمكن أن يقع فيه فى باب الرزق وعالجت ذلك، فلم يبق أمام المسلم إلا أن يسير فى الطريق الصحيح، وأن يطلب رزقه من حلال.

وجاء الحديث الذى نحن بصدد شرحه ليبين خطأ سوف يحدث فى أزمنة غير زمانه ﷺ، هذا الخطأ هو أن بعض الناس سيجهلون منهج الإسلام وهديه، فى حين يعرفون مسالك الأمم الأخرى، والذين هَمُّ الإنسان فيهم شهواته، مما يحدو به إلى جمع المال من أى وجه، وبأى سبيل، فينهج المسلمون الذين جهلوا الإسلام نهجهم، ويقتدون بهم، فيتجرؤون على الحرام، ويصبح هدفهم جمع المال ليس إلا، لا يعنيهم أن يكون هذا الكسب من الحلال أو من الحرام، إنما يعنيهم جمع المال

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٥٧ وهو عند البخارى رقم ٥٩٨٥، ٥٩٨٦.
(٢) أخرجه أحمد ٦/١٥٩.

وكثرته، وهذا الخطأ يحذر رسول الله ﷺ الأمة منه، فليحذر كل مسلم أن يكون من ذاك الصنف الذى يأكل الحلال والحرام، وليحذر كل مسلم أن يقتدى بهذا الصنف من الناس إذا وجد، وليحذر كل مسلم أن يترك هذا الصنف إذا وجد دون أن ينكر عليه، فإن شؤم المعصية يعم.

إن ظهور هذا الصنف فى الأمة كانت الآيات المنفرة من الحرام، والأحاديث المحذرة من خبث المطعم كانت كافية فى بيان حاله، والتحذير من الاغترار به، لكنه لما كان الطعام إذا خبث فسدت العبادة، ولم يقبل الدعاء، اقتضى الأمر التصريح والتوضيح، فأخبر ﷺ بذلك، وحذر منه، حتى إذا ظهر آكلو الحرام فى أزمنة بعد زمانه، كان أمرهم جليا، والتحذير من مسلكهم قد تضمنته السنة صراحة، فتكون الأمة على بينة من أمرهم، تأخذ على يد هذا الصنف وتأطره على الحق أطرا، أى تجبره على الالتزام بالحق، إن وضوح حال هذا الصنف فى هذا الحديث يجعل الأمة تغلبه ولا يغلبها، ويجعل أهل الحق ثابتين على حقهم، عارفين بحاله، لا يميلون إلى باطله، وإنما يحرصون على الأخذ بيده إلى شريعة الإسلام ونور اليقين.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

فى وقت كانت أمة الإسلام بخير حال، وكانت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية كافية لإبعادها كل البعد عن الحرام، كانت الأمة كما قال الله: ﴿**رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ**﴾ [١]. قال قتادة[٢]: كان القوم

(١) سورة النور آية ٣٧.

(٢) قتادة بن دعامة الدوسى، من الائمة الاعلام، تابعى، رأس فى علوم الإسلام، توفى ١١٨ تذكرة الحفاظ ١/١٢٢.

يتبايعون ويتجرون، ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله[١]. فى وقت كانت الأمة تتقى لقمة الحرام بكل حزم، يصور ذلك:

ما أخرجه البخارى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: كان لأبى بكر غلام يُخْرِج له الخَرَاج، وكان أبو بكر يأكل من خَرَاجه، فجاء يومًا بشىء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدرى ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تَكَهَّنْتُ لإنسان فى الجاهلية، وما أُحْسِن الكهانة، إلا أنى خدعته فأعطانى بذلك، فهذا الذى أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شىء فى بطنه»[٢].

ومعنى «يخرج له الخراج» أى يتكسب ويدفع كسبه لسيده، ومعنى «تكهنت» أى ادعى أنه يعرف الكهانة، والكهانة: الإخبار بما سيكون من غير دليل شرعى، يقوم بذلك بعض المشعوذين والدجالين، ويقبل السذج دجلهم، ويوهمون العامة أنهم يعلمون ما سيحدث لهم، وهذا لا يليق بالمسلم أن يفعله، ولا يليق به أن يقبله، فلا يتكهن، ولا يصدق من يتكهن، فالله وحده الذى يعلم الغيب.

هكذا كانت الأمة، يخرج أبو بكر لقمة أكلها، علم أنها ليست من الحلال الطيب، ومع أن غلامه كان تكهن فى الجاهلية، إلا أن أبا بكر أخرج اللقمة وَرَعًا، واحتياطا لدينه، وإن أمة هكذا لا يتوقع العقل منها أن تنحدر، وتلتقم الحرام، إلا أننا نجد أن رسول الله ﷺ يخبر بما لا يتوقعه العقل، يخبر بأنه «سيأتى على الناس زمان لا يبالى المرء بما أخذ المال أمن الحلال أم من حرام»، يخبر به لا من توقع العقل المجرد، وإنما

(١) ذكره البخارى فى البيوع باب التجارة فى البز ٢٩٧/٤ وبعده بيابين ص ٣٠٠.
(٢) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار باب أيام الجاهلية ١٤٩/٧.

بما أوحاه إليه ربه سبحانه وأعلمه به.

وتحقق ما أخبر به ﷺ فى زماننا، فوجدنا فى بعض أهل زماننا جرأة عجيبة، مسرفون على أنفسهم، كأن النار خلقت لغيرهم، وكأن آيات العذاب ومواقف القيامة لأناس سواهم، لا يحترزون من الحرام، ولا يخافون منه، بل منهم والعياذ بالله من مكاسبه كلها من حرام.

* فأناس يتجرون فيما تحرم التجارة فيه كالمسكرات، والأفلام الداعية إلى الانحراف.

* وأناس يقيمون البنوك الربوية حرصا على فوائدها الربوية يظنونها نافعة.

* وأناس يحصلون على مبالغ من البنوك بالربا لإقامة مشروعات ضخمة يظنونها تورثهم ثراء.

* وأناس يُصْدِرون المجلات التى تدعو إلى الانحراف.

* وأناس فتحوا باب الرشوة على مصراعيه.

هل كان العقل يتصور فى عهد السلف الصالح أن توجد هذه الطوائف فى الأمة؟ بدهى، لا. لكنه أخبر ﷺ به، فوجد كما أخبر!! طوائف تأخذ المال من أوسع أبواب الحرام لا تبالى، مكاسبها كلها من حرام، لا تبالى!!

بل العجيب أنهم يجدون من يساندهم، ويزين أفعالهم حتى أصبح الإنكار عليهم ليس بالقوة التى تناسب إجرامهم، والقوة التى تليق بأمة تنكر على صنف يريد أن يشيع فيها ما يحرمه دينها.

ورسول الله ﷺ حينما أخبر بهذا الحديث، لم يشأ به الإخبار لذاته، وإنما أراد أن يحذر الأمة أن تنحدر إلى هذا الدرك، وتسقط فى مستنقع

الحرام، أراد أن يحذر الأمة من أن تقر ذلك أو أن يروج فيها، فلا يليق بأمة الإسلام أن تترك الباطل يعيش فيها وينتشر، وإنما عليها إذا بدت ظاهرة شر أن تحاربها وتقضى عليها حتى يظل الحق وحده عاليا أبلجا، ويبقى الباطل مطمورا لجلجا.

إنه ﷺ يحذر أنه سيأتى زمان يتجرأ البعض على الحرام، حتى يسوى بينه وبين الحلال فلا تغترن أيها المسلم بأفعالهم، وعليكم أن تتمسكوا بالحق الذى فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. لا يكن فعل هؤلاء مدعاة للوقوع فى الحرام، ولكن ليكن تمسككم بالحق مهلكا لباطلهم ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (١) أى لينصرن الله من نصر دينه، وأقام شرعه، إن الله هو القوى العزيز سبحانه وتعالى، يقهر أعداء دينه، ويعز أهل دينه، ويمكن لهم، ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ (٢).

• الدروس المستفادة من الحديث:

* سيظهر فى الأمة أناس أو هيئات فيهم جرأة على الحرام، يحرصون على كسب المال، سواء كان من الحلال أو من الحرام.

* على الأمة أن تحذر هؤلاء الجرءاء على الحرام، فإن شؤمهم ليس على أنفسهم فقط، وإنما على الأمة بأسرها، وهم نماذج سيئة قد يقتدى بهم غيرهم، فلا يصح أن تتركهم الأمة وضلالهم، وإنما عليها أن تأخذ على أيديهم وتمنعهم عن هذا الشر.

* لا يليق بالمسلم أن يقتدى بهؤلاء فى ضلالهم، ففى هذا الحديث

---

(١) سورة الحج آية ٤٠.
(٢) سورة آل عمران آية ١٢٦.

تحذير من هذا، فإذا وجد الذين يأخذون المال من الحرام والحلال، فليس معنى هذا أن يقع المسلم معهم فى الردى، وإنما عليه أن يكون مع القرآن والسنة.

* فى هذا الحديث دليل من أدلة نبوته ﷺ ، فلقد أخبر بوجود هذا المرض الخطير فى الأمة، مرض أكل الحلال والحرام، فوجد كما أخبر ﷺ وها هم أناس كثيرون يديرون البنوك الربوية فى غير ما تحرج، وها هم أناس كثيرون يغدون إلى البنوك ويروحون، ولا يمنعهم أنها مؤسسات ربوية، وها هم تجار المسكرات، وها هم الذين يغشون، والذين يزورون، والذين يرتشون، كل هؤلاء وغيرهم أخبر ﷺ بوجودهم فوجدوا، وحذرهم وحذر منهم فلتحذرهم الأمة وليحذرهم كل عاقل، أما هم فليتهم يصغون لصوت العقل السليم،والفطرة المستقيمة، وليتهم ينصتون للآيات القرآنية وللأحاديث النبوية كى يتركوا ما هم عليه إلى الحلال الطيب ليس إلا.

* * *

الإخبار عن تسمية الخمر بغير اسمها

عَنْ أَبِى مَالك الأَشْعَرِىِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِى الخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا»[1].

● **المعانى:**

«ليشربن» المراد من الشرب هنا ما هو أعم منه وهو التعاطى والتناول، فيشمل الشرب والأكل والاستنشاق والحقن وغير ذلك، وإنما جاء التعبير بالشرب لشهرته.

«ناس» جاء فى رواية أخرى «طائفة» والمعنى: أن شرب الخمر سيقع من بعض أفراد الأمة.

«من أمتى» أى من المسلمين، فعلى الرغم من إسلامهم، وتحذير الإسلام من شرب الخمر، والترهيب منه إلا أن ناسا سيشربونها.

«الخمر» كل ما خامر العقل، بمعنى غطاه وستره، فكل ما يذهب الوعى فهو خمر، سواء كان مشروبًا، أو مأكولاً أو مستنشقا، أو محقونا، ولو كان الكثير يذهب الوعى فالقليل والكثير منه خمر، والعبرة فى إذهاب التمييز بالشخص الذى لم يألف المسكرات، فكل ما أسكر هذا البرىء فهو خمر، وكون المدمنين لا يسكرون منه لا ينفى عنه صفة الخمر. وستأتى الأحاديث بذلك.

(١) أخرجه أبو داود فى الأشربة باب فى الداذى ٣/ ٣٢٩ وأخرجه ابن حبان فى التاريخ باب إخباره ﷺ عما يكون فى أمته من الفتن ٨/ ٢٦٦. وأحمد ٥/ ٣٤٢، وابن ماجه فى الفتن باب العقوبات ٢/ ١٣٣٣.

«يسمونها بغير اسمها» أى أن كل مسكر فهو خمر، إلا أن ناسا من المسلمين سيسمون المسكر باسم غير اسم الخمر، تهوينا على أنفسهم، واحتيالا على الحكم الشرعى، ظانين أن الحكم مرتبط بكلمة «خمر» والصحيح أن الحكم مرتبط بالعلة، والعلة هنا هى السكر، فكل مسكر حرام، وقد جاء ذلك نصا من كلام رسول الله ﷺ، حتى لا تكون شبهة لمشتبه، ولا غموض فى أمر من أمور الدين، فقال ﷺ «كل مسكر خمر. وكل مسكر حرام»[1]. وقال ﷺ «كل مسكر حرام، وما أسكر منه الفرق فملء الكف منه حرام»[2].

فبين ﷺ فى هذين الحديثين:

١ ـ أن اسم الخمر يطلق على كل ما أسكر، فكل مسكر اسمه خمر، وفى هذا رد على الذين يشربون المسكرات، ويتلكعون بأنه لم يرد تحريمها، لا، وألف لا، لقد ورد تحريمها، وورد أن كل مسكر فهو خمر ـ كما فى هذين الحديثين ـ وعليه فكل مسكر داخل فى قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]، لأن الحديث بين أن اسم الخمر يشمل كل المسكرات.

٢ ـ كل ما أسكر فإنما يحرم تناوله، سواء سُمِّىَ خمرًا، أم سُمِّىَ بغير ذلك، فإنه فى عرف الشرع خمر، وعلة التحريم التى هى الإسكار موجودة فيه.

٣ ـ كل شىء أسكر الكثير منه، فإنه خمر ويحرم تناوله، فلو أسكر

(١) أخرجه مسلم فى الأشربة باب بيان أن كل مسكر خمر ٣/١٥٨٧ ح ٧٣ ـ ٧٤.
(٢) أخرجه أبو داود فى الأشربة باب النهى عن المسكر ٣/٣٢٩.
(٣) سورة المائدة آية ٩٠.

الفرق وهو مائة وعشرون رطلا فملء الكف منه حرام، والفرق وملء الكف الواردان فى الحديث ليسا للتحديد، وإنما للتكثير والتقليل، والمراد: ما أسكر الكثير منه حرم مطلقا، فلا يحل كثيره ولا قليله.

• راوى الحديث:

أبو مالك الأشعرى: من الذين غلبت كنيتهم على أسمائهم، فاشتهر بكنيته أكثر من اسمه، وذكره الرسول ﷺ باسمه وكنيته معا - كما سيأتى -.

قدم أبو مالك فى السفينة مع الأشعريين على رسول الله ﷺ وكانوا خمسين رجلا، قدموا سنة سبع فى أولها، يقول أنس بن مالك «قال رسول الله ﷺ يقدم عليكم أقوام أرق منكم أفئدة. فقدم الأشعريون فيهم أبو موسى فجعلوا يرتجزون:

غدا نلقى الأحبة محمـدا وحـزبه[1]

وسعد بصحبة رسول الله ﷺ، فجالسه، وسمع من حديثه، ولقد كان مجتهدا، فى تبليغ ما عنده من علم، فلقد أخذ الوضوء والصلاة عن رسول الله ﷺ، فرأى رسول الله ﷺ يتوضأ، فعرف المنهج الأمثل فى الوضوء، ورأى رسول الله يصلى، فعرف كيف تؤدى الصلاة على أكمل وجه، وقياما بواجب التبليغ كان يجمع أصحابه ويعلمهم الوضوء، ويجمعهم ويعلمهم الصلاة:

أخرج الإمام أحمد فى مسنده بإسناده عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى مالك الأشعرى أنه جمع أصحابه فقال «هلم - اجتمعوا - أصلى

(١) أخرجه أحمد ٢٠/ ٢٣٧ رقم ١٢٨٧٢ وصححه محققه وخرجه.

صلاة نبى الله ﷺ. قال: وكان رجلا من الأشعريين، قال: فدعا بجفنة من ماء فغسل يديه ثلاثا، ومضمض واستنشق، وغسل وجهه ثلاثا، وذراعيه ثلاثا، ومسح برأسه، وأذنيه، وغسل قدميه، قال: فصلى الظهر بفاتحة الكتاب، وكبر ثنتين وعشرين تكبيرة»[١] أى أنه كان يكبر فى كل رفع وخفض.

ولا تستهن بقيام هذا الصحابى بتعليم أصحابه الوضوء والصلاة، فالصلاة من أعلى العبادات فى الإسلام، والوضوء سبيل صحتها، وليس كل من قام وركع قد صلى، وإنما من فقه ـ أى فهم ـ الصلاة، وعرف أحكامها، وشروطها، ولعل مما يبين شيئا من ذلك هذه القصة التى أخرجها البخارى بإسناده عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، فسلم على النبى ﷺ فرد، وقال: ارجع فصل فإنك لم تصل، فرجع يصلى كما صلى، ثم جاء فسلم على النبى ﷺ فقال: ارجع فصل، فإنك لم تصل «ثلاثا» فقال: والذى بعثك بالحق ما أحسن غيره، فعلمنى، فقال: إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، وافعل ذلك فى صلاتك كلها»[٢].

تأمل قوله ﷺ: «ارجع فَصَلِّ، فإنك لم تُصَلِّ» إن الرجل قد صلى، فكيف يقول له المصطفى ﷺ ذلك؟!! إنه صحابى!! لكن، لم يشفع له كونه صحابى، فالأمر دين، وقد قال الله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[٣]، ومنه يؤخذ أنه ليس كل

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤١.

(٢) أخرجه البخارى فى الأذان باب وجوب القراءة للإمام والمأموم فى الصلوات كلها ٢/ ٢٣٧.

(٢) سورة هود آية ١١٢.

مصلٍّ قد صلى، وإنما صلى من أدى الصلاة كما أمر الله، وبلغ رسول الله، ومن هنا ندرك سر حرص هذا الصحابى على تعليم الآخرين كيفية الوضوء، وكيفية الصلاة.

وكان أبو مالك الأشعرى هذا الصحابى الجليل، كان حريصا على تبليغ ما عنده من علم، وكان حريصا على النصح والتوجيه، حتى إنه فى وقت الاحتضار، وفى حالة النزع الأخير، وهو فى إدبار عن الدنيا، وإقبال على الآخرة، يبلغ وينصح، فعن عبيد الحضرمى أن أبا مالك الأشعرى لما حضرته الوفاة قال: يا سامع الأشعريين، ليبلغ الشاهد منكم الغائب أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول «حلوة الدنيا مرة الآخرة، ومرة الدنيا حلوة الآخرة»[1]، فما كان فى الدنيا من حظوظ النفس وشهواتها، ويسعد به أهل الأهواء والملذات فهو فى الآخرة حسرة وندامة. وما كان من حبس النفس على الطاعات، وحرمانها من الشهوات، والصبر على الشدائد والملمات فإنه وإن كان مرا فى الدنيا إلا أنه طيب فى الآخرة، مكتوب فى ميزان الحسنات، ويورث أطيب الدرجات.

ولقد شارك أبو مالك فى الغزوات النبوية، وجاهد مع رسول الله ﷺ ولقد رأى فيه رسول الله ﷺ ما يؤهله للإمارة فأمَّره على مجموعة من الجيش، كانوا جميعًا من الفرسان تعقبوا هوازن بعد فرارها فى غزوة حنين.

حظى أبو مالك الأشعرى بدعوة رسول ﷺ، فلقد دعا له ﷺ قائلا: اللهم صلِّ على عُبَيْدٍ، أبى مالك، واجعله فوق كثير من الناس»[2] فجمع ﷺ بين اسمه «عبيد» وكنيته «أبو مالك» وقوله «اللهم صل» أى اللهم

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٢.
(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٣.

ارحمه، فالصلاة من الله على خلقه رحمة.

توفى أبو مالك فى خلافة عمر بن الخطاب سنة ثمانى عشرة. رضى الله عنه وأرضاه[١].

• شرح الحديث:

ينفر العاقل من المسكرات لما فيها من إذهاب العقل، وقتل البدن، وتضييع المال.

إن المسكرات كثيرا ما تجعل الرجل يفعل أفعالا يلزمه عارها، وكثيرا ما جعلت الغنى فقيرا، والواجد معدما، ومن هنا فإن الإسلام يحرم المسكرات أشد تحريم، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾[٢].

و«الخمر» اسم لكل مسكر، بينت السنة النبوية ذلك، فى قوله ﷺ: «كل مسكر خمر»[٣] ومن مهام السنة النبوية بيان القرآن الكريم، كما قال ربنا سبحانه: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[٤].

و«الميسر» لعبة يلعبها الفساق، وكثيرا ما يكون اللعب على مال، فمن فاز على أخيه أخذ منه المال المتفق عليه. وهى لعبة لا تولد ذكاء،ولا

---

(١) حديثه فى مسند أحمد ٥/٣٤١ ـ ٣٤٤. وترجمته فى: أسد الغابة ٦/٢٧٢ وفى الإصابة ٤/١٧١ وفى الاستيعاب ٤/١٧٤.

(٢) سورة المائدة آية ٩٠ ـ ٩١.

(٣) تقدم قبل قليل.

(٤) سورة النحل آية ٤٤.

تورث مهارة، وإنما هى لعبة الفساق والمقامرين، يقتلون فيها أوقاتهم، ويضيعون بها الكثير من أموالهم، وكم دمرت من بيوت، وحطمت من أسر، وأضرت باقتصاديات دول.

و«الأنصاب» الأصنام المنصوبة تعبد من دون الله تعالى.

و«الأزلام» ثلاث قطع من أصل واحد، كالخشب مثلا، متشابهة، يكتب على قطعة منها «افعل» وعلى الثانية «لا تفعل» والثالثة لا كتابة عليها، فإذا أراد أحدهم فعل شىء وضع هذه القطع فى كيس، ثم أدخل يده وأخرج واحدة، فإن وجدها المكتوب عليها «افعل» مضى لما هَمَّ به، وإن وجدها المكتوب عليها «لا تفعل» ترك ما هَمَّ به، وإن كانت الثالثة ـ التى لا كتابة عليها ـ أعاد الاستقسام مرة أخرى، وكأن هذه الخشبات تعلم الغيب، وقد يفعل الشخص ذلك بنفسه، وقد يذهب إلى أناس اشتهروا بهذا يفعلون ذلك له، ومثله أيضا الذهاب إلى المنجمين والكهان.

«رجس» نجس وقذر، والنجاسة هنا نجاسة معنوية، فى هذه الأشياء تعافها الأذواق السليمة، وتنفر منها الطباع المستقيمة.

«من عمل الشيطان» أى أن هذه الأشياء التى هى رجس إنما تقعون فيها بعمل الشيطان، فهو الذى يزينها لكم، ويحسنها فى نظركم.

• فداحة المخدرات الخلقية:

والقارىء لهذه الآية الكريمة يرى أن الله سبحانه وتعالى قرن الخمر بعبادة الأصنام، وهذا دليل على فداحة الذنب بها، ولقد أدرك الصحابة هذا المعنى، فعن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: «لما نزل

تحريم الخمر مشى أصحاب النبى ﷺ بعضهم إلى بعض وقالوا: حرمت الخمر، وجعلت عدلا للشرك»[١] ومعنى «عدلا للشرك» أى مساوية للشرك فى الإثم، وعن أبى موسى الأشعرى قال: ما أبالى شربت الخمر، أو عبدت هذه السارية[٢] من دون الله عز وجل»[٣].

وأحاديث رسول الله ﷺ تبين هذا المعنى، وتوضحه نصا من كلام المعصوم ﷺ، فعن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: شارب الخمر كعابد وثن»[٤].

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ «من لقى الله مدمن خمر لقيه كعابد وثن»[٥].

كما يرى القارئ أن الآية الكريمة جعلت الخمر ـ والتى تطلق على كل المسكرات ـ رجسا، أى قذرا ونجسا. ومن المقرر فى الشريعة تحريم قربان الرجس، فما بالك بجعله شرابا يشرب؟ إنه أشد تحريما، وأعظم جرمًا.

وجاء فى الآية الكريمة الأمر باجتناب الرجس ـ الذى يشمل الخمر وكل مسكر، ويشمل القمار، والأصنام، والكهانة والتنجيم ـ «فاجتنبوه» أى اجتنبوا كل هذا الرجس، ثم رتب سبحانه وتعالى الفلاح على اجتناب الرجس، مما يدل على أن اجتناب هذه المحرمات فلاح وفوز، أما الوقوع فيها فهو خيبة وهلاك.

وجاءت الأحاديث النبوية فبينت هذه الآية الكريمة، فبين ﷺ فداحة

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٤/ ١٤٤ كتاب الأشربة باب حرمت الخمر وجعلت عدلاً للشرك.
(٢) العمود الذى يعتمد عليه السقف فى وسط الغرفة أو المسجد.
(٣) أخرجه النسائى فى الأشربة باب ذكر الروايات المغلظات فى شرب الخمر ٨/ ٢٨١.
(٤) أخرجه البزار، وهو فى كشف الأستار فى الأشربة باب فى شارب الخمر ٣/ ٣٥٣.
(٥) أخرجه ابن حبان فى الأشربة باب ذكر البيان بأن مدمن الخمر قد يلقى الله جل وعلا فى القيامة بإثم عابد الوثن ٧/ ٣٦٧.

المسكرات وشؤمها فى غير ما حديث، وبين أن المسكرات تدمر متناوليها فى الدنيا، مع ما يذيقهم الله من العذاب فى الآخرة.

إن المسكرات تجعل متعاطيها أداة طيعة للشر، وتجعله يحرص على الموبقات، ويفعل أفظع المستقبحات، وتجعله يفعل طيعا من المنكرات ما كان ينكره ويستقبحه قبل تناول المسكرات:

فعن عثمان بن عفان قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «اجتنبوا أم الخبائث، فإنه كان رجل ممن قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة فأرسلت إليه خادما فقالت: إنا ندعوك لشهادة. فدخل. فطفقت كلما يدخل بابا أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضية جالسة وعندها غلام وباطية فيها خمر. فقالت: إنا لم نَدْعُك لشهادة، ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام، أو تقع علىَّ، أو تشرب كأسا من هذا الخمر، فإن أبيت صحت بك وفضحتك. قال: فلما رأى أنه لابد له من ذلك قال: اسقنى كأسا من هذا الخمر. فسقته كأسا من الخمر. فقال: زيدينى. فلم يزل حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر فى صدر رجل أبدًا إلا ليوشكن أحدهما أن يخرج صاحبه»[1].

وعن عبد الله بن عمر أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ وناسا من أصحاب رسول الله ﷺ جلسوا بعد وفاة رسول الله ﷺ فذكروا أعظم الكبائر، فلم يكن عندهم فيها علم ينتهون إليه، فأرسلونى إلى عبد الله بن عمرو أسأله عن ذلك، فأخبرنى أن أعظم

(١) أخرجه ابن حبان فى الأشربة باب ذكر ما يجب على المرء من مجانبة الخمر على الأحوال لأنها رأس الخبائث ٧/ ٣٦٧. وأخرجه النسائى فى الأشربة باب ذكر الآثار المتولدة عن شرب الخمر ٨/ ٢٨٢ لكن موقوفًا.

الكبائر شرب الخمر، فأتيتهم فأخبرتهم، فأنكروا ذلك، ووثبوا إليه جميعا، حتى أتوه فى داره، فأخبرهم أن رسول الله ﷺ قال: «إن ملكا من ملوك بنى إسرائيل أخذ رجلا فخيره بين أن يشرب الخمر، أو يقتل نفسا، أو يزنى، أو يأكل الخنزير، أو يقتلوه إن أبى، فاختار أن يشرب الخمر، وإنه لما شربها لم يمتنع من شىء أراده منه. وإن رسول الله ﷺ قال لنا مجيبا: «ما من أحد يشربها فيقبل الله له صلاة أربعين ليلة، ولا يموت وفى مثانته منها شىء إلا حرمت عليه بها الجنة، فإن مات فى أربعين ليلة مات ميتة جاهلية»[1].

ومن هاتين القصتين يتضح أن المسكرات تُهَوِّن على متناوليها ارتكاب أفظع الذنوب، وكل ما يرفضه العاقل قبلها يفعله طائعا إن شربها، ومن هنا جاء قوله ﷺ فى مطلع حديث عثمان «اجتنبوا أم الخبائث» فسمى ﷺ الخمر أم الخبائث، لأنها تُهَوِّن على متعاطيها ارتكاب أقبح الذنوب، وتفتح له أبواب الشر على مصراعيها وجاء أيضا قوله ﷺ: «اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر»[2].

على أن الواقع يؤكد هذا، فالدول الآن تصرخ من عصابات تهريب المخدرات، والدول تدرك خطورة هذه المسكرات على صحة الشعوب، وتدرك أنها تقضى على الأخلاق، وتشيع الرذيلة، وتدمر الاقتصاد.

• فداحة المخدرات الصحية:

إن الهيئات الطبية تعترف أن الدخان يورث مرضا خبيثا هو السرطان، نسأل الله العافية، فما بالك بالمخدرات الأخرى، إنها تجلب المرض وتدمر

(١) أخرجه الحاكم فى الأشربة باب إن أعظم الكبائر شرب الخمر ٤/١٤٧.

(٢) أخرجه الحاكم فى الأشربة باب اجتنبوا الخمر ٤/١٤٥.

الصحة سريعا، وأخرى أدهى وأَمَرّ، وهى أنها تقضى على مبادئ الإنسان وقيمه، إنها تجعل الإنسان غير أمين على ما عهد إليه من أعمال أو أسرار، فإنه يُتحكم فيه بشىء من المخدرات، التى تتحكم فيه، ويغرى بالغالى منها. حتى لقد أصبح من المألوف الاحتيال على المطلوب بالمخدرات، فالتسهيلات من البنوك، وتهريب الأسلحة واختلاس أسرار الدول، وكثير وكثير من الطامات العالمية أصبحت المخدرات وسيلة من الوسائل القوية فيها، حتى أصبحت الدول المعتزة بنفسها لا تسند المهام الدقيقة للمدمنين.

ولقد بات معلوما لدى المشتغلين بالطب أن المسكرات تورث مرض «الجلطة» وهو مرض قاتل، بل غالبا ما يقتل فجأة، قتل ملايين البشر، غير مفرق بين الصغير والكبير، وإنما يلاحق المدمنين.

وبات معلوما لدى الهيئات الطبية أن المسكرات تحدث الكثير من التشوهات للأجنة، فالأم إذا تناولت المخدرات، ولو لمرة واحدة، وبكمية قليلة، فإن أطفالها غالبا ما يولدون مشوهين، فيكون نموهم بطيئا، والرأس صغيرة، والأنف أصغر من العادة مشوها، وتكون شفاههم رفيعة جدا، والأذنان فيهما شذوذ فى هيئتهما ومكانهما، وعينا الطفل فى جانبى الوجه والمسافة بينهما أكبر من المعتاد، ويعانون من صعوبات فى الأكل والنوم.

وهؤلاء الأطفال يعانون من خلل فى التطور النفسى والعقلى، ويعانون من الخوف الشديد، والعصبية الزائدة. وبعد بضع سنوات يطرأ على عدد كبير من هؤلاء الأطفال خلل فى القدرة على التركيز والكلام، بالإضافة إلى ضعف فى الذكاء.

وإذا أردت معرفة مدى خطورة تشوه الأجنة على مستقبل البشرية،

فيكفى أن تعرف أنه فى ألمانيا الغربية وحدها يولد ما بين ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف طفل مشوه سنويا، وهذه إحصائية قديمة، وبدهى أن الأمر زاد سوءا لكثرة انتشار المخدرات.

وتعترف أقوى الدول بعجزها عن مواجهة الأمراض التى تحدثها المخدرات، نظرا لضخامة الميزانية المحتاج إليها لعلاج هذه الأمراض.

• فداحة المخدرات الاجتماعية:

ولقد أصبحت المخدرات أكبر مصدر للقضاء على الإنسان، فأكثر من نصف المقتولين فى العالم سبب قتلهم المخدرات، ولسوف يتضح فظاعة المخدرات فى هذا الجانب إذا علمنا أن دولة صغيرة عدد سكانها خمسون مليون نسمة، يبلغ عدد قتلى المخدرات فيها فى حدود العشرة آلاف فى العام الواحد!!

ولم يقتصر ضرر المخدرات الاقتصادى على ما ينفق فى شرائها، وإنما يتعدى ذلك إلى الأضرار التى تلحق المؤسسات الصناعية من أخطاء السكارى، وما تحدثه فى الإنسان المنتج من خبل يصبح معه غير قادر على العمل، مما جعل أعدادًا كبيرة يعيشون متسكعين فى الطرقات لا عمل لهم إلا التجول فى الشوارع سكارى، يمثلون مصدر قلق وخوف لغيرهم.

إن المتتبع لما تتحمله الدول من مبالغ من جراء المخدرات يجد عجبا، فالاقتصاد الأمريكى تحمل ١٢٥ مليار دولار فى عام ١٩٨٨ من جراء المخدرات، وهذا الرقم أزعجنى، وجعلنى أشعر بمدى قوة المخدرات، وأحسست أن وراءها منظمات أقوى من القوات التى أعدتها الدول لمكافحتها. وهنا أدركت عظمة الإسلام إذ منعها بوازع دينى، وهو أقوى

من كل ما عداه.

والمسكرات أيضا مدمرة للحياة الاجتماعية، فالرجل يستولى على مال زوجته وأولاده، ليشبع رغبته من المخدرات، ولو أدى ذلك إلى جوع الأسرة أو تسولها أو عداء بعض أفرادها للبعض. والابن يستولى على أى مال فى الأسرة غير مبال بنتائج ذلك. ويكفى أن أحدث القارئ بشىء مما لدى عن المسكرات، فلقد حدثنى من أثق فيه أن رجلا مخمورا أشعل النار فى بيته أثناء سكره!! وحدثنى آخر أن مخمورًا حاول أن يزنى بابنته أثناء سكره، وهذان الأمران كافيان لإظهار شؤم المخدرات، وقضائها على الاتزان والخلق، فبنت الرجل، التى يحرص كل الحرص على شرفها وطهارتها، يصير بالمخدرات هو الذى يهتك عرضها، ويدنس طهارتها!!

وماذا بعد هذا؟ ماذا بعد أن تكون المخدرات تجعل المجتمع متقبلا الشر، منساقا إليه؟ يقبل من الأخلاق مساوئها، ولا حرص لديه على معاليها، عليل الصحة، مدمر الاقتصاد؟

إنه بهذا خسر دنياه، فلا عزة ولا كرامة، ولا سمو ولا إنسانية، إنما هى مجتمعات السكر والعربدة، وعالم الانحلال والفوضى، وهذا الذى حذر الإسلام منه، وأبعد أمته عنه.

• منهج الإسلام فى محاربة المخدرات:

يمتاز الإسلام بأنه أغلق الأبواب أمام المخدرات، يقول ﷺ: «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث»[1]. وبين أن شاربها له العذاب الشديد فى

(١) أخرجه الدارقطنى فى أول كتاب الأشربة ٤/٢٤٧ وابن حبان فى الأشربة ١٢/١٦٨ رقم ٥٣٤٨ وأخرجه ابن أبى الدنيا فى أول كتابه ذم المسكر ص ١٥ وأخرجه النسائى من كلام عثمان بن عفان فى الأشربة باب ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر ٨/٢٨٢ وهو صحيح.

الآخرة، ورغب فى البعد عنها، وحذر من القرب منها، فالسكارى لهم فى الآخرة عذاب شديد مُذْرٍ، يحرمهم ربنا من جنته، ويصب عليهم من عذابه ونقمته.

فعن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «لا يدخل الجنة منان، ولا عاق، ولا مدمن خمر»[١].

وعن جابر أن رجلا قدم من جيشان «وجيشان من اليمن» فسأل النبى ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له المِزْرُ؟

فقال النبى ﷺ «أَوَ مُسْكِرٌ هُوَ؟» قال: نعم. قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر حرام» إن على الله عز وجل عهدا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من «طِينَةِ الخَبَال» قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «عرق أهل النار، أو عصارة أهل النار»[٢].

عن أبى موسى أن النبى ﷺ قال: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر. ومن مات مدمنا للخمر سقاه الله جل وعلا من نهر الغوطة» قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: «نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهن»[٣].

إنه سبحانه وتعالى يعذبهم بأنواع من العذاب لم يعذب بها غيرهم، إنها أنواع تناسب ضلالهم، وانحرافهم، فالجزاء من جنس العمل، فلما كان ضلالهم بشرب ما حرم الله، أو شم ما حرم الله، عذبوا بشرب أقذر الأشياء، وبشم أنتن رائحة، ولما امتهنوا أنفسهم بالسكر وقد كرم الله

---

(١) أخرجه النسائى فى الأشربة باب الرواية فى المدمنين فى الخمر ٨/ ٢٨٤.

(٢) أخرجه مسلم فى الأشربة باب بيان أن كل مسكر خمر ٣/ ١٥٨٧ ح ٧٢.

(٣) أخرجه ابن حبان فى الأشربة باب ذكر البيان بأن الله جل وعلا يسقى مدمن الخمر من نهر الغوطة فى النار نعوذ بالله منهما ٧/ ٣٦٦. والحاكم ٤/ ١٤٦.

الإنسان بالعقل كان فيما يعذبون به من التحقير ما فيه، فأى تحقير أبلغ من جعل المدمن يشرب من السائل الذى يخرج من فروج الزانيات!! إن ريح فروجهن يؤذى أهل النار، فما بالك بالخارج من فروجهن إنه غاية التحقير، ومنتهى الإهانة، وبالغ الإذلال.

ولما كان جل غرض المدمنين من المسكرات القوة الجنسية، حسبما زعموا، ولما كانت المسكرات مدعاة للانحراف والزنا، كان العذاب بما يخرج من فروج المومسات، أى الزانيات، فليتهم يعقلون، فمهما ظنوا من متعة أو نشوة فكل هذا مهما طال وكثر لا يساوى قرب وجوههم مرة واحدة من نهر الغوطة، ذلك السائل الخبيث الذى يجرى من فروج المومسات الذى بلغ من خبثه أنه يؤذى أهل النار، فما بالهم بشربهم منه!!!

• عموم شؤم المخدرات:

هذا ومما يجب التنبه له أن شؤم المسكرات يعم، فهو يشمل كل من تسبب فيها، سواء من صنعها، أو ساعد فى صناعتها، أو طلب أن يكون صانعا لها، أو مساعدا لصانعها، أو وزّعها، أو طلب أن يوزعها، أو باعها، أو طلب أن يكون بائعا لها، أو سقاها، أو طلب أن يشربها، كل هؤلاء ينالهم شؤم المسكرات مع متعاطيها، دل على ذلك قول عبد الله ابن عباس «إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل فقال: يا محمد، إن الله لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وشاربها، وبائعها، ومبتاعها، وساقيها، ومسقاها»[1].

(١) أخرجه ابن حبان فى الأشربة باب ذكر استحقاق لعن الله جل وعلا من أعان فى الخمر لتشرب ٧/ ٣٧٠، والحاكم ٤/ ١٤٥.

وهذا مما تجب إشاعته بين أهل زماننا، فإن الكثير يتجر فى المسكرات ظانا أن إثمها ووزرها على متعاطيها فقط، والحديث السابق يرد عليهم، فوزرها على كل من ساعد فى إشاعتها، ووزرها على البائع الذى يبيعها بالجملة أو التجزئة «المفرق» وعلى الموزع الذى يقوم بتوزيعها، وعلى العامل الذى يصنعها أو يعمل فى مصنعها، ولو كان عامل نظافة، أو سباكة أو غيرها، إثمها على كل موظف فى مصنعها أو إدارتها ولو كان إداريا أو محاسبا، وخلاصة القول فإن كل من تسبب فى وجود المسكرات من قريب أو بعيد فهو آثم، وعليه وزرها، وهو داخل فيمن لعنهم الله تعالى.

إن الرجل يبيع البيرة أو الدخان، وتحدثه عن حرمتها وحرمة الإتجار فيها، فيتعلل بأن ذلك مصدر رزق، وكسب معاش، وهذا خطأ، فالرزق يطلب من الحلال ليس إلا. ولقد وُجِّه هذا السؤال ـ الإتجار فى المسكرات ـ إلى الصحابى الجليل عبد الله بن عباس، فلقد أتاه قوم فسألوه عن بيع الخمر وشرائه، والتجارة فيه، فقال ابن عباس: أمسلمون أنتم؟ قالوا: نعم. قال: فإنه لا يصلح بيعه ولا شراؤه، ولا التجارة فيه لمسلم، وإنما مثل من فعل ذلك منهم مثل بنى إسرائيل حرمت عليهم الشحوم فلم يأكلوها فباعوها وأكلوا أثمانها»[1].

* * *

لقد بلغ من شؤم الخمر أن رسول الله ﷺ قام بقطع زقاقها ـ أوعيتها ـ ولما طلب الناس أن يترك لهم الزقاق يريقون ما فيها من خمر، وينتفعون بها، لم يتركها ﷺ، واستمر فى تقطيعها، مبينا أنه يفعل ذلك غضبا لله تعالى، لأن الخمر تغضب الله تعالى. فإذا قارنا ذلك بأنه ﷺ مر على

(١) أخرجه ابن حبان فى الأشربه باب ذكر وصف الأنبذة التى تحل ٥٠٠٠/٧/ ٣٧٩.

شاة ميتة . . فقال: هلا أخذتم إهابها ـ جلدها ـ فدبغتموه فانتفعتم به»[١]، اتضح لنا مدى حقارة وشؤم الخمر، حتى صارت أوانيها هدرا، لأن الخمر مسخطة لله سبحانه وتعالى.

فعن عبد الرحمن بن شريح الخولانى أنه كان له عم يبيع الخمر، وكان يتصدق بثمنه، فنهيته عنها، فلم ينته، فقدمت المدينة، فلقيت ابن عباس فسألته عن الخمر وثمنها، فقال: هى حرام، وثمنها حرام، ثم قال: يا معشر أمة محمد ﷺ إنه لو كان كتاب بعد كتابكم، أو نبى بعد نبيكم لأنزل فيكم، كما أنزل فيمن كان قبلكم[٢]، ولكن آخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة[٣]، ولعمرى لهو أشد عليكم.

قال ـ أى عبد الرحمن بن شريح ـ ثم لقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر، فقال: سأخبرك عن الخمر، إنى كنت عند رسول الله ﷺ فى المسجد، فبينما هو محتب حل حبوته[٤]، ثم قال «من كان عنده من هذا الخمر شىء فليؤذنى به، فجعل الناس يأتونه فيقول أحدهم: عندى راوية خمر، ويقول الآخر: عندى راوية، ويقول الآخر: عندى زق، أو ما شاء الله أن يكون عنده، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوه ببقيع كذا وكذا، ثم آذنونى، ففعلوا ثم آذنوه. قال: فقمت فمشيت وهو متكئ علىَّ، فلحقنا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فأخذنى رسول الله ﷺ فجعلنى عن يساره وجعل أبا بكر مكانى، ثم لحقنا عمر، فأخّرنى فجعله عن يساره، ومشى بينهما، حتى إذا وقف على الخمر قال للناس أتعرفون هذه؟ قالوا: نعم يا رسول الله هذه الخمر. قال: صدقتم ثم قال: إن الله

(١) أخرجه مسلم ١/٢٧٦ رقم ١٠٠/٣٦٣.

(٢) أى لأنزل العيب عليكم فى شرب الخمر أو بيعها.

(٣) يحاسبكم الله عليه.

(٤) أى كان جالسًا جامعًا بين ساقيه وظهره بثوبه.

لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها وساقيها، وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومشتريها، وآكل ثمنها، ثم دعا بسكين فقال: اشحذوها[(١)]. ففعلوا، ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الزقاق، فقال الناس: إن فى هذه الزقاق لمنفعة، فقال: أجل، ولكن إنما أفعل غضبا لله، لما فيها من سخطه، فقال عمر: أنا أكفيك يا رسول الله. قال: لا»[(٢)].

ومما زاد المدمنين وتجار المسكرات ضلالاً أنهم يبنون على مجرد تغيير الاسم حل تناول المسكرات، فيرون أنه مادام المسكر قد تسمى بـ «الهيروين» مثلاً فهو حلال، ولا إثم فيه. وذنبهم فى هذا من ناحيتين، فتناولهم المسكرات، أو التسبب فيها ذنب، ورد فيه من الوعيد ما سبق أن ذكرت. أما استحلال تناول المسكر فهو كفر والعياذ بالله تعالى، شأنه فى ذلك شأن استحلال أى أمر حرمه الله تعالى. ورسول الله ﷺ ينعى عليهم ذلك إذ يقول: «ليستحلن طائفة من أمتى الخمر باسم يسمونها إياه»[(٣)].

• خداع الألفاظ:

وبعد، فهذا شىء من شؤم المسكرات، وأضرارها الدنيوية من إتلاف المال والصحة، وضياع الخلق والدين، وأضرارها الأخروية من عذاب فى جهنم بعصارة أهل النار، وبما يسيح من فروج المومسات، ولعنة الله نازلة على كل من ساهم فيها، من صانع، وحامل، وشارب، وغيرهم، وكل ذلك يجعل العاقل بمنأى عنها، يبتعد عن كل مسكر، ويربأ بنفسه عن

(١) أى سنوها، واجعلوها حادة.
(٢) أخرجه الحاكم ٤/١٤٤.
(٣) أخرجه أحمد فى المسند ٥/٣١٨.

كل مفتر.

إلا أن المسكرات لما كان النهى قد جاء فى القرآن عنها باسم «الخمر» فإن شياطين الإنس أرادوا أن يبتعدوا عن هذا الاسم «الخمر» لما له من حساسية عند المسلم، مما يجعل المسكر لو سمى بـ «الخمر» لا يقبله المسلمون. فراحوا يسمون المسكرات بأسماء غير هذا الاسم، ومما يؤسف له أن هذه الحيلة راجت على بعض الناس، فظنوا اختلاف الاسم كافيا، وأن المسكر مادام قد سمى باسم غير الخمر فهو حلال!! وهذا خطأ كبير، فإن كل مسكر هو خمر، وإن سماه المستفيدون من المسكرات بأى اسم آخر، إنه خمر لأنه يستر العقل ويغيبه فترة، فكل ما ستر العقل فهو خمر.

إن تغيير الاسم لا يوثر فى الحكم، ولا يجعل الحرام حلالاً، وإنما الحكم مبنى على الإسكار، الذى هو علة التحريم، فكل ما أسكر فهو حرام، سواء سمى بالخمر، أم سمى بغيره، وسواء أسكر قليله أم كثيره، فما دام الإسكار موجودا فى الشىء، ولو فى كثيره فهو حرام، وهو خمر.

● وجه الإعجاز فى الحديث:

حينما حرمت الخمر ابتعدت الأمة الإسلامية عنها، وما كان خبر تحريمها يصل إلى الفرد أو المجموعة من المسلمين إلا يمتنعون عن شربها، ويريقونها، فلقد كان القوم شديدى الامتثال لأمور دينهم، كما وصفهم الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [١]، ومن عجيب أمرهم

---

(١) سورة النور آية ٥١.

أنهم على الرغم من حبهم الخمر، وشربهم لها قبل تحريمها سنوات عديدة إلا أنهم ما أن نزل تحريمها إلا ابتعدوا عنها تماما، ولم يكونوا كمدمنى اليوم يحتاجون إلى مستشفيات ومصحات من أجل الإقلاع عن الإدمان. لقد كان عندهم من الإيمان ما يعالج كل مرض خُلُقى، وعندهم من العقيدة ما يدفعهم إلى كل ما يدعو إليه الإسلام، ويمنعهم عما نهى عنه الإسلام، يصور لنا شيئا من ذلك ما أخرجه مسلم بسنده عن عبد العزيز بن صهيب.

قال: سألوا أنس بن مالك عن الفضيخ[1]. فقال: ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا الذى تسمونه الفضيخ، إنى لقائم أسقيها أبا طلحة وأبا أيوب ورجالا من أصحاب رسول الله ﷺ فى بيتنا. إذ جاء رجل فقال: هل بلغكم الخبر؟ قلنا: لا. قال: فإن الخمر قد حرمت. فقال: يا أنس، أَرِقْ هذه القلال[2]. قال: فما راجعوها، ولا سألوا عنها بعد خبر الرجل[3].

إنهم ما أن أخبرهم الرجل إلا تركوا الخمر، كما جاء فى رواية أخرى «فما قالوا حتى ننظر ونسأل»[4] إن القوم لا يكذبون، ويمتثلون أوامر الله ولا يتلكؤون، إنهم ينتهون عما نهى عنه الإسلام فورا، فتركوا الخمر بكل أنواعها، لم يتوانوا حتى يشربوا ما عندهم، ولم يتأخروا لشدة حبهم، ولم يتعللوا لضعف عزمهم، وإنما بمجرد أن أخبرهم رجل واحد بأنه قد نزل تحريم الخمر امتنع الجميع، وأراقوا الخمر، وربما كسروا

---

(١) الفضيخ: البسر ـ البلح الأخضر ـ إذ كُسر ونقع فى الماء حتى يصير خمرًا، وقد يضاف معه الرطب، أو التمر.

(٢) جمع قلة وهى الجرة الكبيرة.

(٣) أخرجه مسلم فى الأشربة الباب الأول جـ ٣ ص ١٥٧١ ح ٤.

(٤) عند أحمد ٣/ ١٨١.

أوانيها، وابتعدوا عنها بكل تحرز وتحر، حتى كانوا يتركون الكثير من أنواع الشراب خشية الخمر، فكان عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ لا يشرب إلا الماء والسويق. وكان عبيدة السلمانى والذى هو من كبار التابعين، وأكثرهم فقها، وأشدهم ورعًا، كان لا يشرب إلا الماء واللبن والعسل.

لقد عرفوا شدة التحريم الوارد فى الخمر، وأن الله تبارك وتعالى جمع الخمر والأصنام فى تحذير واحد، وصرح رسول الله ﷺ أن مدمن الخمر كعابد الوثن، ومن هنا كانوا مبتعدين عنها كل البعد.

* * *

لكنه ومن العجيب أنه فى هذا الوقت الذى كانت الأمة فيه مبتعدة عن الخمر كل البعد، فى هذا الوقت يخبر رسول الله ﷺ أن ناسا من الأمة سيشربون الخمر!! مخالفين هديه ﷺ وهدى الصالحين، يخبر ﷺ أن هذا الذنب ـ شرب الخمر ـ على الرغم من بشاعته سيرتكبه أناس من أمته، فإنه وإن كان أهل زمانه مستقيمين، إلا أن انحرافا سيوجد فيمن بعدهم، يجعلهم يشربون الخمر، لكنهم لن يشربوا الخمر يسمونها باسمها، لا، وإنما سيسمونها بأسماء أخرى من عندهم!!

ويتحقق ما أخبر به ﷺ تماما، فبعض الأمة فى زماننا قد تجرأ على المسكرات،وتجدهم لا يطلقون اسم «الخمر» على شىء من ذلك!!

لقد تنوعت المسكرات عندهم وتعددت فمن «وسكى» إلى «شمبانيا» إلى «عرق مسيح» إلى «بلاك آند وايت» إلى «البيرة» إلى «القات» إلى «الكحول» إلى «الهيروين» إلى «الكوكايين» إلى غير ذلك من مسميات كثيرة، لكن ليس فيها شىء سموه «خمرا» فيتحقق فيهم أنهم يتعاطون

الخمر - إذ كل مسكر خمر - ويسمونها بغير اسمها، تماما كما أخبر رسول الله ﷺ، وما ذلك إلا لأنه رسول الله، أعلمه الله الذى أحاط بكل شىء علما، أعلمه ذلك فأخبر به أمته.

وهو ﷺ إذ يخبر بذلك إنما يخبر محذرا وناصحا، وكأنه يقول لا تغتروا أيها المسلمون، ولا تنخدعوا أيها العقلاء بألاعيب شياطين الإنس والجن، الذين يخدعونكم، فيوقعونكم فى أشد الذنوب بأمر هين، بتغيير الاسم. إنها حيلة من حيلهم فلا تخدعنكم ولا تنطلى عليكم، فكل ما أسكر فهو خمر، وإن سمى بغير ذلك فاحذروا كل مسكر.

• الدروس المستفادة من الحديث:

* على الرغم مما ورد فى الخمر من التحريم الشديد، إلا أنه ستنحرف طائفة وتشربها.

* لما كانت الخمر ظاهرة التحريم، وشاربها محتقر فى الأمة، فإن شَرَبَةَ الخمر سيحتالون بتغيير اسمها، فلا يسمون المسكر خمرا، وإنما يسمونه بغير ذلك.

* وفى الحديث إشارة إلى بعض صفات أهل المسكرات، فهم ليسوا بأهل صدق وحزم ولا بأهل عمل وجد، وإنما أهل كذب ونفاق، حتى إنهم يحتالون على الحكم الشرعى، يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس.

وهم أيضا ليسوا أصحاب رأى صائب ولا نظر بعيد، وإنما هم سطحيون واهمون، وماذا بعد أن رضوا بما يذهب عقلهم!! إن الحازم صاحب الرأى السديد لا يقبل زوال عقله مقابل أى شىء، لكن هؤلاء لما كانوا سطحيين تافهين كفاهم مجرد تغيير الاسم، فتعاطوا المسكرات

يظنون تغيير الاسم أخرجها من دائرة الخمر.

* وفى الحديث علم من أعلام نبوته ﷺ ومعجزة ظاهرة له، إذ تحقق الأمر كما أخبر ﷺ تماما، حتى أصبحت السنة فى علاجها لما سيحدث كأنما جاء بها الوحى فى زماننا، تبين وتحذر، وتنصح وترشد، فصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين والمرسلين.

* * *

الإخبار عن شيوع الربا

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتِى عَلى النَّاسِ زمانٌ يَأْكُلُون الرِّبا، فَمَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِه»[١].

وفى رواية «يأتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَأكُلُون فيه الرِّبَا» قيل: النَّاسُ كُلُّهُم؟! قَالَ «مَنْ لَمْ يَأْكُلْه منهم نَالَهُ مِنْ غُبارِه»[٢].

• المعانى:

«يأتى على الناس زمان» أى أن هذا لن يكون فى زمانه ﷺ، وإنما سوف يحدث فى الأزمنة بعده.

«يأكلون الربا» الربا: كل زيادة بدون مقابل، فمن أعطى آخر مبلغًا من المال ليأخذه أكثر فهو ربا، ومن أعطى كمية من القمح ليأخذها أكثر فهو ربا، وإن كان أحد القمحين جيدًا والآخر رديئًا، ومن أعطى شعيرًا أو تمرًا ليأخذ أكثر فهو من الربا أيضًا.

والربا الشائع فى المعاملات الآن فى الأموال، فيأخذ الشخص مبلغًا من المال ليرده زائدًا.

«من غباره» الغبار: ما دق من التراب، حتى إنه يعلو لأدنى سبب،

(١) أخرجه النسائى فى البيوع باب اجتناب الشبهات فى الكسب ٧/ ٢١٥ واللفظ له، وأخرجه الحاكم كتاب البيوع باب ليأتين على الناس زمان لا يبقى فيه أحد إلا أكل الربا ٢/ ١١ وقال: قد اختلف أئمتنا فى سماع الحسن من أبى هريرة، فإن صح سماعه منه فهذا حديث صحيح، وقال الذهبى: سماع الحسن من أبى هريرة بهذا صحيح.

(٢) هذه رواية الإمام أحمد فى المسند ٢/ ٤٩٤.

كالسير على التراب أو هبوب الريح. وجاء فى رواية أخرى «أصابه من بخاره» والبخار: ما يصعد كالدخان من السوائل الحارة. ومعنى «فمن لم يأكله أصابه من غباره» أى من لم يقصد الربا، ولم يرد الزيادة الحرام، فإنه لشيوع الربا وانتشاره فى الناس يناله شىء منه، ولو قليلاً.

• راوى الحديث:

أبوهريرة: الصحابى الجليل، وقد تقدمت ترجمته فى الحديث الثانى[١].

• شرح الحديث:

التحذير من الربا:

«يأتى على الناس زمان يأكلون الربا» أى يأتى على الناس زمان يتجرؤون فيه على الحرام، فيأكلون الربا، مع ما ورد فيه من التحريم والوعيد الشديد، وماذا بعد أن قال الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴿٢٧٨﴾ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[٢]، أى: إن لم تتركوا الربا فأيقنوا بحرب من الله ورسوله، أما الحرب من الله فالإهلاك والدمار فى الدنيا والآخرة، فلا يبارك الله لآكل الربا فى ماله، ولا فى أى شىء من أموره كما قال سبحانه: ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾[٣].

أما فى الآخرة فكما قال ابن عباس: «يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ

---

(١) ص ٧٥.

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٣) سورة البقرة آية ٢٧٦.

سلاحك للحرب، ثم قرأ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [١] أما الحرب من رسول الله ﷺ فلقد أعلم ﷺ من أراد الاستمرار فى الربا بالحرب، وهذه مسئولية الأئمة من بعده، عليهم أن يحاربوا آكل الربا، فإن تاب تُرِك، وإلا قُتِل.

ليسأل آكلُ الربا نَفْسَه: أما كَفَتْك هذه الآية من القرآن الكريم؟

ليسأل آكل الربا نفسه: أما زجرتك هذه العقوبة ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ؟

ومع ذلك فلقد جاءت الأحاديث تُنَفِّرُ من الربا، وتحذر منه، وتبين عاقبته ومصير آكله وموكله، وعاقبة كاتبه وشاهديه، وأن إثمه يعم كل من اشترك فيه،من هذه الأحاديث:

* حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[٢].

و«السبع الموبقات» أى المهلكات، سميت بذلك لأنها ذنوب كبيرة تهلك من ارتكبها، ومعنى قوله: «وقتل النفس التى حرَّم الله إلا بالحق» أى وقتل الإنسان الذى حرم الله قتله، اللهم إلا أن يقتله بحق، كالسياف الذى يقيم الحدود بأمر السلطان فيقتل من قَتَل فلا ذنب عليه، أو يقتل من زنا وهو متزوج، فمثل هذا فعله ليس كبيرة، ولا وزر عليه، إنما

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية ٢٧٩ من سورة البقرة جـ ٣ ص ١٠٨ وهو عند ابن المنذر وابن أبى حاتم وعبد بن حميد.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم، فأخرجه البخارى فى الوصايا باب قول الله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا...﴾ جـ ٥ ص ٣٩٣ وفى غير هذا الموضع.

الذنب على مَنْ قَتَل بدون مبرر شرعى.

«وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» معناه: رَمْىُ المسلمة العفيفة الطاهرة، الغافلة عن الزنا وما يؤدى إليه، رميها بالزنا كأن يقول لها (يا زانية) فهذا قذف وهو من الكبائر، وقوله «والتولى يوم الزحف» أى الفرار عند لقاء العدو فى الجهاد، فالفرار عند اللقاء كبيرة.

وفى هذا الحديث بيان أن أكل الربا من المهلكات، أى من الذنوب التى تهلك صاحبها، وفى ذلك ما فيه من التحذير، وبيان ما فى الربا من مساوئ، لقد جعل ﷺ آكل الربا مع المشرك، ومع الساحر، والقاتل، جعله مرتكبًا ذنبًا عظيمًا، وفى ذلك كفاية للعاقل كى يترك الربا، ويبتعد عنه بالكلية.

* وفى حديث آخر يقول جابر بن عبد الله: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء»[1] وفى ذلك دليل على أن ذنب الربا يشمل من أخذ المال بزيادة، ومن أعطى المال بزيادة، وكاتب هذا الدَّيْن، والشاهدَيْن على هذا الدين، وبيّن ﷺ أنهم جميعًا آثمون، فإن الربا وإن كان بين الآخذ والمعطى، إلا أن الآخرين قد شاركوا فيه، وعاونوا عليه، ومن أعان على باطل فهو آثم.

* وقال ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»[2] وفى هذا الحديث بيان عظيم شؤم الربا، وأنه يعم المتعاملين به والراضين به، فإذا ظهر فى قوم ولم ينكروا على المتعاملين به، وفشا أمره ولم يحاربوه، فإن الله ينزل عليهم جميعًا عذابه، كما قال سبحانه:

(١) أخرجه مسلم فى المساقاة باب لعن آكل الربا ومؤكله ٣/ ١٢١٩.

(٢) أخرجه الحاكم فى البيوع باب إذا ظهر الزنا والربا فى قرية... ٢/ ٣٧ وصححه ووافقه الذهبى.

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (١).

فالعقاب يعم الطالح والصالح، أما الطالح - العاصى - فبذنبه، وأما الصالح فبسكوته على الذنب، فلتحذر الأمة كلها أن يقع الربا فيها، فإن شؤمه يعم، نسأل الله العافية.

• الربا خسارة!!

إنه على الرغم من هذه الآيات التى نفرت من الربا وحذرت منه، وبينت شؤمه وسوء عاقبته، وعلى الرغم من الأحاديث التى رهبت من الربا، وخوفت منه، وبينت أن من شؤمه أن لا يسلم كلٌّ من علم به من ذنبه، وعلى الرغم من امتثال الأمة ذلك، وبغضها للربا وللمرابين، إلا أنه سيأتى على الناس زمان يكون الحال غير الحال، يتجرؤ بعضهم على أكل الربا، ويتوفر له من السبل والأسباب ما يشيعه ويذيعه، يصبح الربا مشهورًا، تَقْبل الآذانُ سماعَه، والقلوبُ وقوعَه، تقوم له مؤسسات وهيئات، وتنشط به منظمات وشركات، ويُخْدع المسلم بهذا القيل والقال، فيقبل الكثيرون عليه، جهلاً منهم وحرصًا على الدنيا، يظنون أنهم به يحققون من المال كثرة، وبحيلته يُكَوِّنون من الثراء وفرة، جهل هؤلاء الماديون أن كثرة المال إنما هى فى طاعة الله فيه، وأن الربا لا يجلب كثرة، وإنما يحقق قلة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ (٢) فهو سبحانه يذهب البركة والنفع من مال المرابى، أما المتصدق الذى يتقى الله فى ماله فإن الله سبحانه يزيد ماله، ويبارك له فيه، وها هو رسول الله ﷺ يوضح هذا، ويجليه فيقول ﷺ: «الربا وإن

(١) سورة الأنفال آية ٢٥.

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٦.

كثر فإن عاقبته تصير إلى قُلٍّ»[١].

لا يفرحن المرابى بكثرة المبالغ فإنها إلى زوال، ولا يغترن بها فإنها تشقيه فى المآل، ورسول الله ﷺ أراه الله رؤيا بينت أن المرابى بِشَرٍّ حال، ورؤيا الأنبياء وحى، وهى حق وصدق، فقال ﷺ: «رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخرجانى إلى أرض مقدسة، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الرجل الذى فى النهر، فإذا أراد الرجل أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فرده حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فيرجع كما كان، فقلت: ما هذا؟ فقال: الذى رأيته فى النهر آكل الربا»[٢] إنها رؤيا منامية أراه الله فيها شؤم بعض الذنوب، لِيُحَدِّثَ أمته بذلك، لتحذر هذه الذنوب، إن آكل الربا يسبح فى بحر من دم، وتَصوَّر حال من يكون هكذا، إن منظر الدم يثير الرعب والخوف، فكيف بمن يسبح فيه!! وكلما حاول الخروج قذفه القائم على تعذيبه بحجر ففتح فاه فالتقمه ـ كما جاء فى رواية أخرى[٣] ـ فأعاده الحجر إلى وسط نهر الدم، إن الحرص الذى دفعه فى الدنيا على جمع المال بأى وسيلة هو الذى أطمعه أن يكون الحجر شيئًا نافعًا ففتح فاه فأخذه، جزاء وفاقًا.

وكان لآكل الربا نصيب فى مشاهده ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، فكما أراه الله أحوال أناس صالحين من أمته، أراه أيضًا أحوال الضالين، فيقول ﷺ «أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت، فيها الحيات تُرَى من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أَكَلَةُ

---

(١) أخرجه الحاكم فى البيوع باب الربا وإن كثر... ٢/ ٣٧ وصححه ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه البخارى فى البيوع باب آكل الربا وشاهده وكاتبه ٤/ ٣١٣ هكذا ورواه مطولاً فى غير هذا الموضع، وهذا المطول مشهور باسم حديث مرائيه ﷺ.

(٣) هى عند البخارى أيضًا.

الربا»[1] لقد دعاهم الحرص على الدنيا إلى جمع المال من الحرام فكان جزاؤهم ضخامة بطونهم ممتلئة بالحيات والأفاعى، إن الحية، والتى هى الثعبان الضخم الطويل، تخيف الإنسان وترعبه، فكيف الحال إذا أصبحت فى بطنه، وليست حية واحدة، وإنما حيات كثيرة تصول وتجول فى بطن آكل الربا، نسأل الله العفو والعافية، والكسب الحلال.

هذا بعض ما ورد فى الربا من وعيد، وهذه بعض النصوص التى تبين شؤم الربا وعظم جرمه، وأنه لا يورث كثرة، وإنما يجلب كل حسرة، فهو قل وخزى فى الدنيا، وعذاب ونكال فى الآخرة. وفى هذا الحديث الذى نشرحه يخبر ﷺ أنه مع شؤم الربا هذا يأتى على الناس زمان يأكلونه!! يأكلونه جاهلين هذه الآثار السيئة المترتبة عليه، يأكلونه جرأة على المعاصى، ونسيانًا للآخرة، هَمُّهُم الدنيا، وقد عميت بصائرهم فلا تدرك الحقائق، فأصبحوا يرون النور ظلمة، والظلمة نورًا، فيختارون الظلام، نسأل الله نور البصر والبصيرة.

• شيوع الربا:

«فمن لم يأكله أصابه من غباره» أى أن الربا يشيع وينتشر، ولا يستطيع أحد أن ينجو منه تمامًا، وإنما الذى يحتاط لدينه كل الحيطة، ويحترز فى كسبه كل الاحتراز، مثل هذا ينجو من عين الربا، لكنه يصيبه غباره، يصيبه أثر الربا، ذلك أنه بشيوع الربا وكثرته فى أموال كثير من الناس، والناس يتعاملون ويتبادلون فأثر الربا يعم، ورائحته تشمل، فالمحتاط يأخذ ويتعامل مع غير المحتاطين، مما يجعل دقيق الربا وقليله فى ماله، لا بقصد منه، ولكن بشيوع الربا وانتشاره.

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم وأحمد وابن ماجه.

وفى هذا حث للمسلم على الاحتياط والتحرى فى كسبه، واختيار من يتعامل معهم، وانتقاء من يأكل طعامهم، رجاء السلامة من الربا.

• العقل يرفض الربا:

وإنى وقد سقت من النصوص ما يبين فداحة الربا، وشؤمه، وأنه ليس سبيلاً لكثرة المال، وإنما يؤدى إلى قلته وهلاكه، فإنى لا أنسى دور العقل فى الموضوع، فإن العقل يعترف بأن الربا من أخطر الأمراض المدمرة لحياة الشعوب واقتصادياتهم، وأنه لا يتفق مع الأخلاق الكريمة، ولا يتناسب مع المعاملات الإنسانية.

يقول أحد الاقتصاديين: إن الربا بنظر العقل باطل، لأن القرض له صورتان:

الأولى: أن يكون لسد الحاجة مثل بناء المسكن، وتعليم الولد، وشراء المأكل والملبس، ودواء المريض، ونحو ذلك، ومن الواضح لدى العقلاء أن استغلال حاجة الإنسان الملحة، لأجل تحميله فوق طاقته هو من أبشع أنواع الاستغلال، وكان الواجب على صاحب المال أن يساعده فى سد حاجته، لا أن يستغلها، فماذا يستطيع هذا الفقير أن يفعل، أيعمل ويجتهد من أجل رد أصل المال، أم يعمل من أجل دفع الربا؟ إن هذا يُدخله فى دائرة اليأس، ويجعل منه إنسانًا ناقمًا على المحيطين به، إذ لم يجد فيهم من يرحم، فيكونون قساة عليه، ويكون قاسيًا عليهم، مما يجعل المجتمع متناحرًا، لا متراحمًا، وهنا تظهر عظمة الإسلام، فإنه رغب فى إعطاء مثل هذا على وجه الصدقة، أو على وجه القرض الحسن، مما يوقظ فى الأغنياء خلق الرحمة، ويشعر الفقراء بعطف الآخرين عليهم، فيصبح الجميع متعاونًا، وتصبح الأمة متآخية.

الثانية: أما الصورة الثانية من صور القرض فهى: أن يكون القرض لأجل الاستثمار والربح، فيقترض الشخص المال ليعمل فيه ويربح، وهذا لا يخلو من خمسة أحوال:

١ ـ أن يخسر، وأخذ الربا فى هذه الحالة قصم لظهره، إذ سيصبح عليه أن يدفع ما خسره من رأس المال، وعليه أن يدفع الربا، وقد خسر عمله.

٢ ـ أن لا يخسر ولا يربح، وأخذ الربا فى هذه الحالة معناه أن يدفع الربا من ماله هو، أو يصبح دينًا عليه، وقد خسر عمله إضافة إلى ذلك.

٣ ـ أن يربح أقل من الربا، كأن يكون الربا ألفا وقد ربح خمسمائة، وفى هذه الحالة خسر الجزء الباقى من الربا، وخسر عمله.

٤ ـ أن يربح بقدر الربا، ومعناه أنه يخسر عمله.

وفى كل هذه الصور أو الأحوال يكون المقرض قد جعل المقترض أسوأ حالاً من ثور الساقية، فثور الساقية تشبع بطنه فى مقابل عمله، أما المقترض فلم يشبع بطنه فى مقابل عمله، والعقل يأبى مثل هذا.

٥ ـ أن يربح أكثر من الربا، وفى هذه الحالة وحدها يقبل العقل أن يأخذ المرابى من الربح، إلا أن العقل أيضًا يقضى بأن يكون الربح بينهما نسبة يتفقان عليها، فلا يقبل العقل أن يأخذ المرابى ٩٠٪ ويأخذ العامل فى المال ١٠٪ من الربح. لا[1].

---

(١) حكمة التشريع الإسلامى فى تحريم الربا ص ٢٩ بتصرف كثير.

• العقل يحترم المنهج الإسلامى «المضاربة»:

ومن هذه الصور يتضح أن العقل يرفضها إلا صورة واحدة يجيزها العقل بشىء من التحفظ عليها، ألا وهى المضاربة. ويعترف العقل هنا بعظمة المنهج الإسلامى، فإن المحتاج إذا أخذ لسد حاجة، فإنما يأخذ صدقة أو قرضًا، أما إذا أخذ للربح والاستثمار، فإنه يجعل صاحب المال مع العامل، يربحان معًا أو يخسران معًا، فإن حدثت خسارة تَحَمَّلَهَا صاحب المال، فيكون قد خسر شيئًا من ماله، وخسر الآخر عمله، وإن لم تحدث خسارة ولا ربح، فقد غرم صاحب المال عدم كسب ماله، وغرم الآخر عمله. وإن حدث ربح قل أو كثر فهما شريكان فيه حسب النسبة المتفق عليها بينهما، وعليه فلم يُظلم العامل دائمًا، ولم يكن صاحب المال بالفائز دائمًا.

فإن قال قائل: إن العامل فى المال قد يكذب، ويَدَّعِى أنه خسر، على الرغم من أنه ربح.

والجواب: الأصل فى المسلمين أنهم صادقون، إضافة إلى ذلك فإن صاحب المال يصبح عليه أن يختار الشريك الصادق، ويصبح المال دعوة للأخلاق، إذ سيصبح على العمال أن يظهروا صدقهم، ويتزينوا بالأخلاق حتى يأمنهم أصحاب الأموال.

وهكذا رحم الإسلام الضعيف، وأعطى الغنى فرصة للاستفادة من ماله، وجعل المال سبيلاً للرحمة والخلق الحسن.

لقد اعترفت القوانين الوضعية بمنافاة الربا للأخلاق، إلا أن قوة أصحاب الأموال تطغى على إنصاف العقلاء، فتجعلهم لا يستطيعون منع الربا، وإنما فقط استطاعوا المناداة بتقليل نسبة الربا، ولقد أصبح فى

المجتمعات المعاصرة مستفيدون من الربا، يشنون حربًا شعواء على من حاربه، وحاول منعه، يحرصون على إغراق المجتمعات به، وتكبيل الدول عن طريقه، ومهما نادى العقلاء، فهؤلاء فى واد، وأصحاب السطوة المالية على الفقراء المساكين فى واد آخر، يمصون دماءهم ويأكلون لحومهم، ولا سبيل لخلاص الدنيا من الربا إلا تفهم المسلمين إسلامهم، ثم إشهاره فى بقية المجتمعات، مع مساعدتهم على الخروج من دائرة الربا.

إن المطلع على صفقات الربا ينزعج، وينكر الربا من كل قلبه، فإنه سيجد أن حقيقة الأمر غير ما يشاع، فليست النسب ١٠٪ أو ٢٠٪ لا، وإنما يتضاعف الربا على الآخذ بصورة مذهلة، فبحساب الربا على طريقة الربح المركب، مع المصاريف الإدارية وغيرها يثقل كاهل المقترض، ويصبح الربا غُلاً لا يُفْتكُّ منه، أو جُبًا لا يخرج منه من سقط فيه. لقد حدثنى أحد المسئولين فى مؤسسة ما أنه وَقَّع صفقة بين المؤسسة التى يعمل فيها وبين مؤسسة مالية عالمية، مفاد هذه الصفقة أن المؤسسة ستأخذ ٩٠ مليون دولارًا تدفعها فى ثلاث سنوات ٢٧٠ مليون دولارًا، ولما رأت هذه المؤسسة فداحة المبلغ، راحت تطلب من المؤسسة العالمية التخفيف فى مقابل أن تدفع المبلغ فى عام واحد، فما كان من المؤسسة العالمية هذه إلا أن تقول: تدفعون الـ «٩٠ مليون» «٤٥٠ مليون» لأنكم قد ضيعتم علينا فرصًا كان من الممكن أن نربح فيها هذا المبلغ. إننى أثق فى كلام محدثى، وأترك للقارئ تقدير فداحة الربا العالمى وخطورته على اقتصاد الدول الفقيرة فى ضوء هذه الأرقام.

وإن المتتبع لأحوال العالم الاقتصادية يلحظ أن المؤسسات المالية العالمية تحرص على إيقاع الدول الإسلامية فى الربا، تبذل فى ذلك كل حيلة،

وما ذلك إلا لمعرفتها بأثر الربا فى تحطيم الاقتصاد، وإذلال المجتمعات. فالواجب على المسلمين التنبه لذلك، والبعد عن الربا، والتمسك بدين الله تعالى.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

يخبر ﷺ بأنه سيأتى زمان ينتشر فيه الربا ويشيع، وأنه يصيب الناس جميعًا، منهم من يأكله قصدًا، ومنهم من يرفضه، لكنه لشيوعه ينال منه القليل، وتظهر نظم للمعاملات توقع الناس فى الربا شعروا أو لم يشعروا، وتتداخل معاملات شركات ومؤسسات غير إسلامية فى بلاد المسلمين، وتُشيع أنظمتها، بل تفرض أنظمتها، وتخرج شخصيات إسلامية أو شركات لتتعامل فى دول غير إسلامية ويُفرض عليها أيضًا أنظمة مالية لا يبيحها الإسلام.

وكثير من المسلمين يتعامل دون دراية بمنهج الإسلام الاقتصادى، فيقع فيما حرم الله من حيث يدرى أو لا يدرى، والمسئولون عن الاقتصاد فى العالم الإسلامى، لم يؤهَّلوا بدراسة الإسلام.

وكثير من المسلمين تغره كثرة الحرام، فيظن أن هذه المعاملات مادامت قد كثرت فهى حلال، وغُطِّى الربا بحملات إعلامية، أوهمت الناس حل الربا، وتكرر هذا فى نواحى الحياة، مما جعل الربا سهلاً على نفوس الناس. وهم لا يسمونه الربا، وإنما يسمونه «الفائدة» أو «الأرباح».

من كل ذلك كثر الربا وشاع، وتحقق ما أخبر به ﷺ «يأتى على الناس زمان يأكلون الربا، فمن لم يأكله أصابه من غباره»[1].

وهذا الحديث وإن كان إخبارًا بما سيكون، فإنه تحذير للأمة من الربا،

(١) الحديث الذى نحن بصدد شرحه، وقد تقدم فى صدر الموضوع.

ولكل مسلم فى شخصه ومَنْ يعول، فلتحرص الأمة على إبعاد الربا عنها، وليحرص المسلم على إبعاد الربا عن الأمة، وعلى إبعاد الربا عن نفسه، فإن الجميع لو صدق فى إبعاد الربا لبَعُد، إلا أن غياب الفقه عن الناس والجهل بالذنوب، وبخطرها وشؤمها، وتولى أمور الأمة أناس لم يدرسوا الإسلام، وما حل بالأمة من تكاسل جعلها تابعة للأمم، كل ذلك جعل الربا يشيع وينتشر، ورضى الله عن عمر إذ يقول: لا يبع فى سوقنا إلا من تفقه فى الدين[1]. نعم، لا يبع إلا من قد تفقه فى الدين كى يُعَرِّفَه فِقْهُه الحرام، وإذا كان هذا فى البائع فما بالك بالمسئولين عن أموال المسلمين ومعاملاتهم، إنهم من باب أولى يجب أن يكونوا أهل فقه وصلاح، يبين لهم فقههم ما يحل وما يحرم، ويمنعهم صلاحهم من الحرام.

• الدروس المستفادة من الحديث:

١ ـ التحذير من انتشار الربا، وأنه إذا لم تقف الأمة فى وجهه، فإنه سينتشر ويشيع، ولما كان الربا يورث الدمار والبوار، ويُنزل بأهله غضب الله ونقمته، كان على الأمة أن تقف فى وجهه، تحاربه وتمنعه.

إن الأمة لو صدقت أبعدت الربا عنها، فهذا أمر ممكن، وليس مستحيلاً، وتعلل البعض بأن الأنظمة العالمية تفرض الربا، تعلل غير صادق، ولا يصدر إلا من الذين لا يُقَدِّرون شؤم الربا، ولا يخافون عذاب الله تعالى.

بل إن الملاحظ فى كثير من الدول الإسلامية حرص المسئولين على نشر الربا، حتى إنه يفرض فى المعاملات، ويدرس لتلاميذ المدارس، وبخاصة

(١) أخرجه الترمذى فى آخر الوتر ٢/ ٦١٢ تحفة.

الذين يدرسون الأنظمة المالية، وهؤلاء لا يقدم لهم شىء عن نظام المعاملات الإسلامية، إن الإسلام يشتمل على نظام اقتصادى كامل، اعترف القاصى والدانى بسموه ورفعته، وأنه الكفيل بإسعاد البشرية.

لقد أصبح معلومًا لدى دارس الاقتصاد أن منهج الإسلام فى تحريم الربا هو الكفيل بإصلاح الاقتصاد العالمى، وأن الربا سلاح مدمر للمعطى وللآخذ، وأنه خطر جسيم على اقتصاديات الدول الآخذة للمال بالربا، إذ يُلْزِمُها بمبالغ كبيرة فوق ما أخذت بما يعجز اقتصادها، وهو أيضًا خطر على اقتصاديات الدول المعطية للمال بالربا، لأنه يجلب لها الكثير من المال، مما يجعل عندها مالاً كثيرًا، بلا سلع تقابله، وهذا خطر على اقتصادها يسمونه «التضخم» إذ يصبح مع الناس أموال، ولكن لا سلع أمامهم.

لقد أصبح ضرر الربا واضحًا جَلِيًا، وأصبح صواب منهج الإسلام ظاهرًا قويًا، ولا يمنع الناس من الالتزام بمنهج الإسلام إلا التعصب ضد الإسلام.

٢ ـ التحذير من الوقوع فى الربا، فإنه سينتشر ويشيع، فعلى كل مسلم أن يبتعد عنه مهما كان، فإنه وإن بدا يُكْثِر المال، فإنه فى حقيقة الأمر هلاك ودمار.

٣ ـ ستظل طائفة من الأمة متمسكة بدينها، قائمة على شرع ربها، هذه الطائفة عليها عند شيوع الربا أن تحتاط ما أمكن.

٤ ـ فى هذا الحديث عَلَمٌ من أعلام نبوته ﷺ، فلقد أخبر بالأمر فوقع كما كان، وحذرنا من الربا حينما يشيع، فوقع ما حذرنا منه فعلينا أن نحذر.

* * *

الإخبار عن التوسع فى الملبس والمطعم والفراش

عَنْ عَلِيِّ بْن أَبِى طَالب قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِى حُلَّة، وَرَاحَ فِى حُلَّة، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْه صَحْفَةٌ، وَرُفِعَتْ أُخْرَى، وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الكَعْبَةُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، نَحْنُ يَوْمَئذ خَيْرٌ منَّا اليَوْمَ، نَتَفَرَّغُ للعِبَادَة، وَنُكفَى المَؤُنَة، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ «لا. أَنْتُمُ اليَوْمَ خَيْرٌ منكُمْ يَوْمَئذ»(١).

• المعانى:

«كيف بكم. . .» أى ما حالكم، «إذا غدا. . . الحديث» وبأى حال ستكونون حينذاك؟ أتكونون خيرًا من الآن، أم تكونون أقل خيرًا من الآن؟ وقد جاء فى رواية أخرى «أنتم اليوم خير أم إذا غُدِى على أحدكم بجفنة. . . الحديث»(٢).

«إذا غدا أحدكم» الغدو: الذهاب أول النهار. والمعنى: إذا خرج أحدكم أول النهار.

«فى حلة» الحلة: ثوبان أحدهما فوق الآخر. أو: الثوب الجديد. أو: الثوب الذى له بطانة. والمراد هنا: ما يلبسه الإنسان للخروج.

«وراح فى حلة» الرواح: الذهاب آخر النهار. والمعنى: وخرج آخر

(١) أخرجه الترمذى فى أبواب صفة القيامة ٧/١١٦ تحفة الأحوذى وحسنه. وروى عن عبد الله ابن يزيد الخطمى أخرجه الطبرانى بإسناد رجاله ثقات. وروى عن عبد الله بن مسعود، وجابر بن عبد الله.

(٢) حديث على عند أبى يعلى فى مسنده ١/٣٨٧.

النهار فى لباس آخر، غير الذى خرج به أول النهار. والمراد: كثرة الملابس عند المسلم.

«ووضعت بين يديه صحفة» الصحفة: الإناء الذى يقدم فيه الطعام. وقد جاء فى رواية أخرى بلفظ «قصعة» وفى أخرى بلفظ «جفنة» وكلها أسماء لأوانى الطعام. إلا أن الجفنة والقصعة غالبًا ما تكون من الخشب، أما الصحفة فغالبًا ما تكون من المعدن.

ومعنى «وضعت بين يديه صحفة» أنه يأتى الطعام إليه، لا يُحضره هو لنفسه، وإنما يحمله إليه خادم، أو عبد حتى يضعه بين يديه، يضع أمامه الإناء مليئًا بالثريد[١] واللحم، كما جاء فى رواية أخرى[٢] «أنتم اليوم خير أم إذا غدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم» وفى رواية أخرى[٣] «يُغْدى على أحدكم بالقصعة الثريد».

«ورفعت أخرى» أى رفعت من أمامه صحفة أخرى. أى رفع من أمامه إناء آخر من أوانى الطعام كان قد قدم له، ومعنى هذا أنه تقدم له الأطعمة الثقيلة كثيرًا، حتى إنه توضع الوجبة قبل أن ترفع أوانى سابقتها، فيأكل فى اليوم الواحد أكثر من مرة من الأطعمة الثقيلة كاللحم وغيره.

«وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة» أى تسترون جدران بيوتكم بالأقمشة والستائر، كما تستر جدران الكعبة. مع أن هذا من خصائص الكعبة، لكنكم تفعلونه فى بيوتكم.

---

(١) الثريد: الخبز المُكَسَّر المغمور بالمرق، ويسمى أيضًا بـ «الفت».

(٢) رواية على عند أبى يعلى التى تقدمت الإشارة إليها.

(٣) حديث ابن مسعود عند البزار، كما فى مجمع الزوائد ١٠/ ٣٢٣.

«نحن يومئذ خير منا اليوم» أى الموجودون من الأمة وقت التوسعة وكثرة الخير خير منا الآن.

«ونُكْفى المؤنة» أى لا يشغلنا تحصيل القوت، وإنما يكفينا ذلك ويقوم مقامنا غيرنا من عبد أو خادم أو أجير.

• راوى الحديث:

على بن أبى طالب: أبو الحسن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ابن عم رسول الله ﷺ، وصهره على ابنته فاطمة.

وُلد قبل البعثة النبوية بعشر سنين، وما أن دعاه رسول الله ﷺ للإسلام إلا استجاب وسبق.

حظى بصحبة رسول الله ﷺ طويلاً، فلقد تربى فى بيت رسول الله ﷺ، أخذه ﷺ رفقًا بأبى طالب، لكثرة عياله. فلما أسلم حرص على استدامة الصحبة، وكان سيف رسول الله ﷺ وجنديه الذى يرسله إذا أراد، فهاجر، وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، إلا غزوة تبوك، فإن رسول الله خلفه على أهله.

ولما آخى الرسول ﷺ بين المسلمين، حظى على بأن كان أخا لرسول الله ﷺ، وقال له رسول الله: «أنت أخى فى الدنيا والآخرة».

وللإمام على فى الغزوات والجهاد بلاء عظيم وأثر حسن، فلقد كان شجاعًا قمة الشجاعة، خبيرًا بالمعارك ودورانها، والحروب وخدعاتها، يقول عند مبيته على فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة، وهو يعلم أن قريشًا جمعت جموعها لقتل رسول الله فى هذه الليلة:

وَقَيْتُ بنفسى[١] خير من وطئ الحصا[٢]

ومن طـــاف بالبيـت العتيق[٣] وبالحِجْرِ[٤]

رسـول إله خـــاف أن يمكروا به

فنجّـــاهُ ذو الطـول الإله من المكر

وبات رســول الله فى الغــار آمنًا

مُــوَقّى وفى حفـظ الإله وفى ستر

وبت أراعيهـم ولم يتهمـــــــوننى

وقد وطَّنْت[٥] نفسى على القتل والأسر

وتأمل قوله [وقد وطنت نفسى على القتل والأسر] يتضح لك إلى أى مدى كان شجاعًا رضى الله عنه غير مكترث بالقتل أو الأسر.

وفى غزوة الأحزاب خرج عمرو بن ود ينادى المسلمين من يبارزه، فاستأذن علىٌّ رسول الله أن يخرج لمبارزته، وكان ابن ود ضخمًا فخمًا حتى إنه حينما وصل إليه على قال له: ليخرج إلىّ من أعمامك من هو أسن منك، فإنى أكره أن أريق دمك، فقال له على: لكنى لا أكره أن أريق دمك.

ولقد كان على فعلاً صغير السن فى هذا الوقت، فلم يكن قد وصل الثلاثين من عمره. وبدأت المبارزة،ومع ما كان عليه عمرو بن ود من

(١) فديت بنفسى.
(٢) رسول الله ﷺ.
(٣) الكعبة المشرفة.
(٤) حجر إسماعيل الذى فى جانب الكعبة.
(٥) عَوَّدْتُ.

قوة، وسلاح، وفرس مدرب، إلا أن النصر كان بفضل الله سبحانه وتعالى لعلى، فقتله!!

وللإمام على تقدم منقطع النظير فى العلم، فلقد كان أعلم الصحابة وأقضاهم، حتى قال عبد الله بن عباس: لقد أعطى علىٌّ تسعة أعشار العلم، وأيم الله[1] لقد شاركهم فى العشر العاشر.

وقال أيضًا: إذا ثبت لنا الشىء عن على لم نعدل عنه إلى غيره.

ولا غرابة فى تقدم الإمام على فى العلم، فقد دعا له رسول الله ﷺ «اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه» فما شك فى قضية بعد ذلك.

ومما يبين شيئًا من فضائل علىّ كرم الله وجهه هذا الحديث:

عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر[2] «لأعطين هذه الراية غدا رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، قال: فبات الناس يدوكون[3] ليلتهم: أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا[4] على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: أين على بن أبى طالب؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكى عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه، ودعا له، فبرأ، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال على: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. فقال: انفذ على رسلك[5] حتى

---

(١) أيم الله: أقسم بالله، يحلف ابن عباس أن عليا شارك الناس فى العُشْر العاشر.

(٢) أى يوم غزوة خيبر، وخيبر مدينة كبيرة على طريق المتجه من المدينة إلى الشام، كان يسكنها اليهود، وكثيرًا ما نقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ، وألَّبوا الأحزاب ضده، فأمره الله بغزوها بعد صلح الحديبية مباشرة وذلك فى المحرم سنة سبع، ففتحها الله عليهم، ولعلى فيها مواقف فى غاية القوة والشجاعة.

(٣) يتحدثون من سيأخذ الراية؟.

(٤) ذهبوا أول النهار.

(٥) سر على مهلك.

تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعم[(١)]»[(٢)].

ففى هذ الحديث: أن الله يفتح على يد علىّ كرم الله وجهه، أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

أن عليا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله. وتلك بشارة عظمى.

أن الله أذهب مرضه ببركة دعاء رسول الله ﷺ له، وبصقه فى عينيه.

وعن أبى الطفيل قال: شهدت عليا يخطب وهو يقول: سلونى[(٣)]، فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم، وسلونى عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم فى سهل أم فى جبل.

توفى كرم الله وجهه فى رمضان سنة أربعين عن ثلاث وستين سنة.

• شرح الحديث:

عيش الرسول ﷺ والصحابة:

هذا الحديث قاله رسول الله ﷺ عدة مرات، ذلك أنه كان يرى ما بأصحابه من تقلل من عرض الدنيا فيخبرهم بهذا الحديث، ليبين لهم أن ما هم فيه خير، حتى إن المواقف التى حدثت فأخبر ﷺ بهذا الحديث تبين عيش رسول الله ﷺ وعيش الصحابة، وأنهم كانوا يتقللون من

---

(١) الجمال الحمر، وهى أغلى شىء عند العرب، والمعنى: لأن يهدى الله بك رجلاً أفضل من أن يكون لك أغلى الأشياء فتتصدق بها.

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة خيبر ٨/ ٤٧٦ ومسلم فى فضائل الصحابة باب من فضائل على بن أبى طالب ٤/ ١٨٧٢.

(٣) أى اسألونى.

الدنيا جدًا، على الرغم من معرفتهم بطرق جمعها.

لقد كان ﷺ متقللاً من الدنيا جدًا، زاهدًا فيها، وإلا فهو القائل «عَرَض علىّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة[١]، ذهبًا، قلت: لا يارب، ولكن أشبع يومًا، وأجوع يومًا، أو قال: ثلاثًا، أو نحو هذا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، فإذا شبعت شكرتك وحمدتك»[٢].

وكذلك كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يجيدون طرق كسب المال، لكنهم لم يحرصوا على جمعه، وما أتاهم منه حرصوا على إنفاقه فى سبيل الله. يوضح ذلك:

* ما جاء فى صدر رواية ابن مسعود لهذا الحديث قال: «نظر رسول الله ﷺ إلى الجوع فى وجوه أصحابه فقال: أبشروا، فإنه سيأتى عليكم زمان يغدى على أحدكم بالقصعة من الثريد، ويراح عليه بمثلها. قالوا: يا رسول الله نحن يومئذ خير؟ قال: بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ»[٣].

إن مطلع هذا الحديث يفيد أن الجوع كان حال الجميع، إنهم لا يريدون دنيا.

* وما جاء فى صدر رواية على بن أبى طالب لهذا الحديث قال «خرجت فى غداة شاتية[٤] جائعًا وقد أوبقنى[٥] البرد، فأخذت ثوبًا من صوف قد كان عندنًا، ثم أدخلته فى عنقى، وحزمته على صدرى

(١) جبال مكة، ورملها وحصاها.

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد باب ما جاء فى الكفاف والصبر عليه ٧/ ١٤ وحسنه.

(٣) أخرجه البزار بإسناد جيد، كذا فى مجمع الزوائد ١٠/ ٣٢٣.

(٤) صبيحة يوم ممطر.

(٥) أتعبنى.

أستدفئ به، والله ما فى بيتى شىء آكل منه، ولو كان فى بيت النبى ﷺ شىء لبلغنى، فخرجت فى بعض نواحى المدينة، فانطلقت إلى يهودى فى حائطه[١]، فاطلعت عليه من ثغرة جداره، فقال: ما لك يا أعرابى؟ هل لك فى دلو بتمرة[٢]؟ قلت: نعم، افتح لى الحائط، ففتح لى، فدخلت، فجعلت أنزع الدلو ويعطينى تمرة، حتى ملأت كَفِّى، قلت: حسبى[٣] منك الآن. فأكلتهن ثم جرعت من الماء، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست إليه فى المسجد، وهو مع عصابة من أصحابه، فطلع علينا[٤] مصعب بن عمير فى بردة[٥] له مرقوعة بفروة[٦]، وكان أنعم غلام بمكة، وأرفهه عيشا، فلما رآه النبى ﷺ ذكر ما كان فيه من النعيم، ورأى حاله التى هو عليها فذرفت عيناه[٧]، فبكى، ثم قال رسول الله ﷺ «أنتم اليوم خير، أم إذا غُدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم[٨]، وريح عليه بأخرى[٩]، وغدا فى حلة[١٠]، وراح فى أخرى[١١]، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة؟» قلنا: بل نحن يومئذ خير، نتفرغ للعبادة. قال «بل أنتم اليوم خير»[١٢].

---

(١) الحائط: البستان المحاط بسور.

(٢) أى كلما استخرجت دلو ماء من البئر فأجرتك عليه تمرة، والدلو: وعاء يستخرج به الماء وغير ذلك.

(٣) كفانى.

(٤) دخل علينا المسجد.

(٥) قطعة قماش يستر بها جسمه.

(٦) بقطعة من الجلد.

(٧) دمعت عيناه.

(٨) أى بإناء فيه خبز قد فُتّ، وغمر بالمرق، وفوق اللحم.

(٩) أى وقدمت له وجبة أخرى فى آخر النهار.

(١٠) تقدم بيان معناه، وأنه: ما يلبسه الإنسان ليخرج فيه.

(١١) وخرج فى آخر النهار فى ملابس غير التى خرج فيها أول النهار.

(١٢) أخرجه أبو يعلى فى مسنده ١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

لقد كان فى طوق على أن يجمع المال ويجمع، بل فى هذا الموقف كان يمكنه أن يجمع الكثير من التمر، لكن كيف يحدث هذا، ويترك مجلس رسول الله ﷺ الملىء بالعلم والعبادة، بالذكر والطاعة؟ إنه الحريص على كل ما يقوله أو يفعله رسول الله المبلغ عن الله دين الله، إنه الحريص أن يمتثل الأمر الإلهى فور نزوله على رسول الله، وكما ينفذه رسول الله، لا تشغله عن ذلك دنيا، ولا يأخذه عنه الاستكثار من التمر.

لقد كان ﷺ وأصحابه مُعْرِضين عن الدنيا، فالاستكثار منها لا يفيد، وإنما يضر، مقبلين على الآخرة، متزودين لها، عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ مدركين أن الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الآخرة هو المنهج الصواب، والهَدْى الذى يجب أن يكون عليه المسلم، يوضح ذلك قول رسول الله ﷺ: «يقول ربكم تبارك وتعالى[١] يا ابن آدم، تفرغ لعبادتى أملأ قلبك غنى، وأَمْلأ يديك رزقا، يا ابن آدم، لا تَبَاعَد منِّى[٢] فأملأ قلبك فقرًا، وأملأ يديك شغلاً»[٣].

• الحث على التقلل فى الأكل:

لقد تقللوا فى المأكل والمشرب، وفى الملبس والمسكن، واجتهدوا فى الطاعة والعبادة، والجهاد ونصرة دين الله تعالى، ممتثلين أوامر الله فى كتابه: ﴿يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [٤].

---

(١) أى أن الحديث قدسى.

(٢) بفعل الذنوب والمعاصى.

(٣) أخرجه الحاكم فى الرقاق باب إياك والطمع ٤/٣٢٦ وصححه.

(٤) سورة الأعراف آية ٣١.

ففى المأكل والمشرب: رسم لهم ﷺ المنهج بقوله «ما ملأ آدمى وعاء شرًا من بطنه، بحسب[١] ابن آدم أكلات[٢] يُقمن صلبه[٣]، فإن كان لا محالة[٤] فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لِنَفَسه»[٥].

ودعاهم ﷺ إلى التقلل من الأكل ما أمكن، دعاهم إلى ذلك بفعله وقوله:

* فها هى فاطمة ابنته ﷺ تقدم له كسرة من خبز شعير فيقول لها «هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام»[٦].

* وها هو جابر بن عبد الله يقول «كان يَقْدُم على رسول الله ﷺ قوم ليست لهم معارف[٧]. فيأخذ الرجل بيد الرجل، والرجل بين الرجلين، والرجل بيد الثلاثة على قدر طاقته، فأخذ ختنى[٨] بيد رجلين، فخلوت به فلمته، فقلت: تأخذ رجلين وعندك ما عندك[٩]!! فقال: إن عندنا رزقا من الله، فانطلق حتى أريك، فانطلقت فأرانى شيئًا من بر[١٠]، فقال: هذا عندنا، فقلت: من أين لك هذا؟ قال: اشتريناه من العير التى قدمت أمس. وأرانى مثل جثوة البعير[١١] تمرا، وقال: وهذا عندنا. وأرانى جرة

(١) أى يكفى.

(٢) لقمات.

(٣) يحفظن عليه قدرته على الحركة.

(٤) فإن كان سيزيد على لقمات لا محالة أى حتما.

(٥) أى فليُبْق ثلث بطنه فارغًا حتى يستطيع التنفس بسهولة، والحديث أخرجه الترمذى فى الزهد باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ٧/ ٥١ وقال: حسن صحيح.

(٦) أخرجه أحمد والطبرانى كذا فى مجمع الزوائد ١٠/ ٣١٢.

(٧) أناس لا أحد يعرفهم من أهل المدينة فيستضيفهم.

(٨) الختن: والد الزوجة أو أخوها.

(٩) من أفراد كثيرين.

(١٠) قمح.

(١١) الجمل البارك على الأرض.

فيها ودك[١]، وقال: وهذا دهان وإدام[٢]. ثم غدا بهما إلى رسول الله ﷺ، أو راح بهما[٣]، وقد أطعمهما، ودهنهما، فقال له رسول الله ﷺ: «إنى أرى صاحبيك حَسَنِى الحال، كم تطعمهما كل يوم من وجبة؟ قال: وجبتين. قال: وجبتين!! فلولا كانت واحدة»[٤] أى أن أكلة واحدة فى اليوم كافية، كى لا يشغل المؤمن كثيرًا ببطنه، فإنه لم يخلق لبطنه.

● ذم الكثرة من الطعام:

أما الكثرة من الطعام فقد ذمها ﷺ وعابها، إنها من الإسراف الذى لا يحب الله أهله، وليست من الهَدْى الذى كان عليه المصطفى ﷺ وصحبه.

يقول ﷺ: «سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام، ويشربون ألوان الشراب، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدقون فى الكلام، فأولئك شر أمتى، الذين غُذُّوا بالنعيم، ونبتت عليه أجسامهم»[٥] إن الذين عاشوا لشهواتهم، وتشدقوا بالكلام كبرا واغترارًا،يكثرون الكلام بلا احتياط ولا احتراز، هؤلاء هم شر الأمة، غرتهم الدنيا، وتحكمت فيهم شهواتهم.

ومرة أخرى يبين ﷺ عيب الاستكثار من الطعام، فها هو أبو جحيفة يقول: «أكلت ثريدًا وأتيت النبى ﷺ فتجشأت[٦] عنده، فقال: يا أبا جحيفة، إن أطول الناس جوعًا يوم القيامة أكثرهم شبعًا فى الدنيا»[٧] زاد

(١) دهن اللحم.
(٢) أى هذا الدهن نصنع به طعامنا، وندهن به أجسامنا من وجه ويدين.
(٣) «غدا بهما أو راح» يعنى ذهب بهما أول النهار أو آخره إلى رسول الله ﷺ.
(٤) أخرجه البزار كذا فى المجمع ١٠/٢٥٣.
(٥) أخرجه البزار كذا فى المجمع ١٠/ ٢٥٠.
(٦) التجشؤ: خروج ريح مع صوت من الفم عند امتلاء المعدة.
(٧) أخرجه البزار كذا فى المجمع ١٠/٣٢٣.

فى رواية «فما أكل أبو جحيفة ملء بطنه حتى فارق الدنيا، كان إذا تغدى لا يتعشى، وإذا تعشى لا يتغدى»[١] وقال أبو جحيفة هذا: فما ملأت بطنى منذ ثلاثين سنة[٢].

• منهجهم فى الملبس:

وفى الملبس رسم ﷺ لهم المنهج بقوله وفعله «فلقد ذكر أصحابه يومًا عنده الدنيا فقال: ألا تسمعون، ألا تسمعون، إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان»[٣] و«البذاذة هى التواضع فى اللباس، والرضا بالدون من الثياب، وترك الزينة، وإنما كانت البذاذة من الإيمان لأنها من الأخلاق الإسلامية، فهى تواضع، وبُعْدٌ عن العجب والكبر.

ويقول ﷺ: «من ترك اللباس وهو قادر عليه، تواضعًا لله دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخير فى حلل الإيمان يلبس أيها شاء»[٤] أى أن من ترك لبس الملابس الغالية، المرتفعة التكاليف مع قدرته عليها، وإنما يتركها تواضعًا لله سبحانه وتعالى، وحفاظًا على قلوب الفقراء، حتى لا تنكسر قلوبهم إذا رأوا البعض يلبس الملابس القيمة، وهم لا يجدون الضرورى، مَنْ فعل ذلك فإن الله تبارك وتعالى يدعوه أمام الناس يوم القيامة، ويخيره أى لباس من ملابس أهل الإيمان يريده، فما أراده من هذه الملابس أعطاه، وهذا يدل على أن الإسلام لا يحرص على المرتفع من الثياب، وإنما ليكن المسلم متواضعًا فى ثيابه، معرضًا عن العجب والزينة.

وإذا كان ﷺ قد حثهم، وحث الأمة كلها على التواضع فى الملبس

---

(١) هذه الزيادة عند ابن أبى الدنيا، والطبرانى فى الكبير والأوسط والبيهقى.

(٢) هذه الزيادة عند ابن أبى الدنيا، وراجع تحفة الأحوذى ٧/ ١٨٢.

(٣) أخرجه أبو داود فى الترجل الباب الأول منه ٤/ ٧٥.

(٤) أخرجه البخارى فى اللباس فى الباب الأول ١٠/ ٢٥٢.

فى الأحاديث السابقة وغيرها، فإنه أيضًا حذر من لبسة العجب والكبر:

فقال ﷺ: «لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء» أى كبرا.

وقال ﷺ: «مَنْ لبس ثوب شهرة فى الدنيا، ألبسه الله ثوب مَذَلَّةٍ يوم القيامة، ثم ألهب فيه نارًا»[1].

وقال ﷺ: «بينما رجل يمشى فى حلة[2] تعجبه نفسه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ[3] إذ خسف الله به، فهو يتجلجل[4] إلى يوم القيامة»[5].

فليكن المسلم متواضعًا فى ملبسه، مبتعدًا عن لبسة الشهرة والكبر، زاهدًا فيما غلا وارتفع، فهذا هو هَدْى رسول الله ﷺ المبلِّغ عن الله تبارك وتعالى.

ولقد كان ﷺ أكمل الناس فى هذا الهَدْى، وكذا كان أصحابه، ما حرصوا على كثرة الملابس، ولا على الناعم منها، ولا على الغالى، وإنما أرادوا وعملوا لرضوان الله تبارك وتعالى.

فعن أبى بردة قال: «دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزارًا[6] غليظًا مما يصنع باليمن، وكساءً من التى يسمونها المُلَبَّدَة[7]. قال: فأقسمَت بالله إن رسول الله ﷺ قبض[8] فى هذين الثوبين»[9].

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى اللباس باب من لبس شهرة من الثياب ٢/١١٩٢.

(٢) ما يلبسه الإنسان من الملابس للخروج.

(٣) الجمة: ما تدلى من شعر الرأس إلى أسفل الرقبة، أى قد سرح شعره الطويل.

(٤) يغوص بشدة وعذاب.

(٥) أخرجه البخارى فى اللباس باب من جر ثوبه من الخيلاء ١٠/٢٥٨.

(٦) ما يستر أسفل البدن.

(٧) الثخينة، أو التى هى طبقات فوق بعضها، وقيل المراد هنا: المرقع.

(٨) مات ﷺ.

(٩) أخرجه مسلم فى اللباس باب التواضع فى اللباس ٣/١٦٤٩ والبخارى رقم ٣١٠٨ ـ ٥٨١٨.

هذا ما كان يلبسه ﷺ فى آخر حياته، وكانت الأموال تأتيه كثيرة، من الغنائم التى يأخذها الجيش من المشركين واليهود فى الغزوات، لكنه ﷺ كان يوزعها ولا يبقى لنفسه.

وها هو أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ يقول: رأيت عمر بن الخطاب وهو يومئذ أمير المدينة(١)، وقد رقع بين كتفيه برقع ثلاث، لبّد بعضها فوق بعض(٢).

هكذا كان عمر، كان خليفة، وملابسه مرقعة من بين أكتافه، بل ورُقَعُها فوق بعض.

وها هو عبد الله بن شداد بن الهاد يقول: رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه يوم الجمعة على المنبر، عليه إزار عدنى(٣) غليظ، ثمنه أربعة دراهم أو خمسة، وريطة كوفية ممشقة.

إن كون عثمان كان على المنبر يدل على أن هذا كان فى زمن خلافته أيضًا، فأنس يصف لباس عمر وهو خليفة بأنه كان مرقعًا، وابن شداد يصف لباس عثمان وهو خليفة، وكان إزارًا عدنيًا، يساوى أربعة دراهم أو خمسة، وعثمان مَنْ هو فى ثرائه وماله، لكنه الصحابى الذى جعل ماله لنصرة دين الله، وللتقرب إلى الله به، ولم يجعله لشهواته ونزواته.

ولقد جاء فى صدر شرح الحديث ما يبيِّن حال على بن أبى طالب، ومصعب بن عمير فى لباسهما وكل ذلك يدل على إعراضهم عن الدنيا، وإقبالهم على ما خلقوا له ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(٤).

---

(١) أى أنه كان خليفة المسلمين.

(٢) أخرجه مالك فى كتاب اللباس فى آخره ٢/٩١٨ رقم ١٩.

(٣) الإزار: ما يستر أسفل البدن. وعدنى: مصنوع فى عدن من بلاد اليمن.

(٤) سورة الذاريات آية ٥٦.

• منهجهم فى المسكن:

وفى المسكن: يحث ﷺ على التقلل منه، وأن يكون بمقدار الحاجة فقط، وألا ننفق فيه كثيرًا، فيقول ﷺ «أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا، إلا ما لا» يعنى: ما لا بُدّ منه[١].

ويقول ﷺ: «النفقة كلها فى سبيل الله إلا البناء، فلا خير فيه»[٢] فلا داعى لتضييع المال فيه، فلا يوسع أكثر من اللازم، ولا يتكلف فيه، وهذا المعنى يتضح أكثر من الحديث الآتى:

فعن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال: «مر علينا رسول ﷺ، ونحن نعالج خُصًا[٣] لنا، فقال: ما هذا؟ فقلنا قد وَهِىَ[٤] فنحن نصلحه[٥]، فقال ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك»[٦] أى أن الأجل لا يتسع للبناء وغيره، وإنما اغتنم عمرك فى عبادة الله تعالى.

• ستر الجدران:

وفى صناعة الستائر يقول ﷺ: «إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين»[٧].

وأُثِر عن بعض الصحابة أنهم أنكروا ستر الجدران، وعابوا ذلك، وابتعدوا عنه، ومنهم من هتكه ومزقه، من هؤلاء:

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب باب ما جاء فى البناء ٤/ ٣٦٠.

(٢) أخرجه الترمذى فى صفة القيامة ٧/ ١٨٤.

(٣) الخص: بيت من نبات طويل مجوف يحصر بالخيط، ثم ينصب، ويطيّن، وهذا النبات يسمى القصب، وهو شبه القصب الذى يعصر ويمص، لكنه مجوف، ويسمى أيضًا «البوص».

(٤) ضعف.

(٥) كانوا يدهكونه بالطين.

(٦) أخرجه الترمذى فى الزهد باب ما جاء فى قصر الأمل ٦/ ٦٢٨ وقال: حسن صحيح.

(٧) أخرجه مسلم فى اللباس باب تحريم تصوير صورة الحيوان ٣/ ١٦٦٦.

عبد الله بن يزيد الخطمى فلقد دعى إلى طعام، فلما رأى البيت مُنَجَّدًا قعد خارجًا وبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: كان رسول الله ﷺ إذا شيع جيشًا، فبلغ عقبة الوداع، قال: أستودع الله دينكم وأماناتكم وخواتيم أعمالكم، فرأى رجلا ذات يوم، قد رقع بردة له بقطعة (أدم)[١] فاستقبل مطلع الشمس وقال: هكذا، ومد يديه وقال: تطالعت علكيم الدنيا ثلاث مرات، أى أقبلت حتى ظننا أن يقع علينا[٢]، ثم قال: أنتم اليوم خير، أم إذا غدت عليكم قصعة، وراحت أخرى، ويغدو أحدكم فى حلة ويروح فى أخرى، وتسترون بيوتكم كما تستر الكعبة»[٣] فقال عبد الله بن زيد أفلا أبكى، وقد بقيت حتى تسترون بيوتكم كما تستر الكعبة[٤]؟

وعبد الله بن عمر، فلقد دخل بيت رجل دعاه إلى عرس، فإذا بيته قد ستر بالكرور[٥]، فقال ابن عمر: يا فلان متى تحولت الكعبة فى بيتك؟ ثم قال لنفر من أصحاب محمد ﷺ: ليهتك كل رجل ما يليه[٦].

وجاءت نصوص صريحة فى النهى عن ستر الجدران، والتوسع فى الفراش: فعن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لا تستروا الجُدُر»[٧] وعن على بن الحسين عن النبى ﷺ أنه نهى أن تستر الجُدُر[٨].

إن السكن وسيلة من وسائل الحياة، وليس غاية المسلم منها، إنه يُقصد

---

(١) جلد.

(٢) أى من متاع الدنيا.

(٣) هذا حديث الباب الذى أشرحه.

(٤) أخرجه البيهقى فى الصداق باب ما جاء فى تستير المنازل ٧/ ٢٧٢.

(٥) الثياب الغلاظ، واحده: كُرٌّ.

(٦) ذكره الحافظ فى الفتح ٩/ ٢٤٩ وعزاه للإمام أحمد بن حنبل فى الزهد.

(٧) أخرجه أبو داود فى الصلاة أبواب الوتر باب الدعاء ٢/ ٧٨ وضعفه.

(٨) البيهقى ٧/ ٢٧٢.

به الستر من أعين الناس، أما الغاية فهى التزود للآخرة، فالعاقل لا تشغله وسائل الحياة عن غايته منها، وإنما يحرص على الغاية كل الحرص.

والبناء لا يثمر ولا يفيد، فمهما تكلف الإنسان فيه لا يحصل على خير منه، فهو ليس ناميًا كالزراعة ولا مربحًا كالتجارة، وإنما هو عكس ذلك متهالك، يسرع إليه الخراب، فيحتاج من صاحبه بين الحين والحين إلى الإصلاح، ومن هنا لم يحرص الإسلام عليه، وحث على التقلل منه.

والدارس لسيرته ﷺ يجد أن بيوته ﷺ كانت فى قمة التواضع، كانت مبنية من جريد النخل، وقد طُيِّن هذا الجريد، أو كسى بمسوح من شعر، وسقفها أيضًا من الجريد، يدخلها الداخل فيتناول سقفها بيده، فلم تكن مرتفعة كثيرًا، وبعضها كان البيت مكونًا من غرفة وفناء، وبعضها من غرفة فقط.

وكذلك كانت بيوت أصحابه ﷺ، فللقدوة أثرها، ولقد اتضح من حديث عبد الله بن عمرو أن بيته كان خصًا.

وبعد: فهذا ما كان عليه ﷺ وأصحابه، فى مأكلهم ومشربهم، فى ملبسهم ومسكنهم، كانوا قمة فى التواضع، وغاية فى التقلل، وهم يرسمون الطريق لأتباعهم، لكنه فى هذا المستوى من العيش يخبرهم ﷺ أنه سيأتى زمان تتغير الأحوال، وتتبدل الأمور، فبدل أكلة واحدة فى اليوم سيصبح المسلم يأكل فى اليوم عدة مرات، وبدل الاكتفاء على التمر والماء سيصبح المسلم يأكل عدة مرات من صنوف الأطعمة وأنواعها.

وبدل الثياب القليلة المتواضعة، التى تتسم بالخشونة وتبتعد عن الرفاهية، وبعيدة عن ملابس المعجبين والمتكبرين، بدل الثياب التى لا تكفى صاحبها، وهى مرقعة ربما بغير أقمشة، وربما تعددت فيها الرقع، بدل هذه ستكون الثياب الرقيقة الناعمة، وسيكون للمسلم الواحد العديد

من الثياب، حتى إنه ليخرج أول النهار فى ملابس، ويخرج آخر النهار فى ملابس أخرى، ناهيك عما فى هذه الثياب من تكلف وغلاء، وما يجول بصدر أهلها من عجب وخيلاء.

وبدل البيوت المتواضعة، المقامة من جريد النخل، أو من الطين، ستكون المبانى التى نشاهدها اليوم، وكلها تكلف فى تكلف، أشار ﷺ بقوله: وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة» أشار بذلك إلى كل ما تشاهده من تكلف فى المساكن، من بيوت،وقصور وفلل وغير ذلك من الأسماء، مما أُنفق عليها الكثير من المال، فالأرض التى يقام عليها المبنى غالية، والمبانى أقيمت بكثير من الكلفة، وسترت الجدران بأشياء أخرى، فمن الخارج بالرخام وما شابهه، ومن الداخل بالستائر والأسقف المستعارة. وأخذت الأنوار حظها من الكلفة. ولم تتواضع أرض المبنى عن سقفه وجدرانه، فهذه أرض بالأخشاب، وأخرى بالخزف (السيراميك) وفرشت الأرض بأنواع من المفروشات، وفُرُش بعضها فوق بعض، يخبرهم ﷺ أن ذلك سيكون !! ثم يسألهم ﷺ سؤالاً: أنتم اليوم بحالكم هذا من التقلل من الدنيا خير،أم الذين ستفتح عليهم الدنيا منكم، أو ممن سيأتون بعدكم، فيستكثرون من الأطعمة والملبس، ويتكلفون فى البناء والمسكن؟

• مَنْ الأفضل؟

يسألهم ﷺ هذا السؤال، حتى توضع الأمور فى نصابها الصحيح، ولتفهم الأمة رسالتها ومنهجها، إن رسالتها الأخذ بيد البشرية إلى عبادة الله تعالى وطاعته، ومنهجها الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله سبحانه وتعالى.

ولقد أجاب الصحابة بأن الذين ستفتح عليهم الدنيا أفضل، معلّلين

ذلك ـ كما فى الروايات ـ بأمرين:

الأول: أن الغنَى سيمكنهم من طاعات لا يقدرون عليها مع الفقر، فمع الغنى يتصدقون ويعتقون، ويجاهدون فى سبيل الله، وليس كذلك مع الفقر، ولذا جاء فى جوابهم «فنحن يومئذ نتصدق ونعتق» وهم لا يقصدون التصدق والعتق فقط، وإنما يريدون كل عبادات تحتاج إلى مال، فإنهم مع الغنى يفعلونها.

الثانى: أن الغنى يقوى المؤمن على العبادة، فلا ينشغل بكسب قوته، وقوت أولاده، ولا يضعف لجوع، أو اعتراء برد، إن الغنى عون على الطاعة، ولذا قالوا: «بل نحن يومئذ خير، نتفرغ للعبادة».

والذين أجابوا بهذه الإجابة لابد أنهم لم يسمعوا حديثه ﷺ «لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله عز وجل بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة»[1] والذى يترجَّح عندى أنه ﷺ كان لم يقل هذا الحديث بعد.

ثم إنه ﷺ أعلمهم حقيقة الأمر، فقال: «أنتم اليوم خير» أنتم المتقللون من الدنيا، الزاهدون فى متاعها الفانى، الراغبون فى النعيم الباقى، أنتم بحالكم هذا خير، أنتم بحالكم هذا أفضل من الذين ستفتح عليهم الدنيا.

• شؤم التوسع فى الدنيا:

ثم بين ﷺ سبب أفضلية المتقللين من الدنيا، على من ستفتح عليهم الدنيا، فقال ﷺ: «أنتم اليوم خير منكم يومئذ، أنتم اليوم إخوان بنعمة الله، وأنتم يومئذ أعداء يضرب بعضكم رقاب بعض»[2].

(١) أخرجه أحمد. والبزار، وأبو يعلى وإسناده حسن، كذا فى المجمع ١٠/٢٣٦.

(٢) أخرجه الحاكم فى الفتن باب إذا وقعت الملاحم خرج بعث من الموالى ٤/٥٤٨ ـ ٥٤٩.

كما بين ﷺ سبب قلة خير من ستفتح عليهم الدنيا، فقال: «بل أنتم اليوم خير، إنكم إذا أصبتموها تحاسدتم وتقاطعتم وتباغضتم»[١] أى أنكم إذا أصبتم الدنيا وفتحت عليكم، وكثر حطامها بينكم أصبتم بثلاث:

«تحاسدتم» فحسد الواحد منكم أخاه، بمعنى أنه يتمنى زوال النعمة عنه.

و«تقاطعتم» فقاطع الواحد منكم أرحامه أى أقاربه، فلا يزورهم، ولا يودهم.

و«تباغضتم» فشاع التباغض والكره، وحل محل التحابب والقرب.

وهذه الخصال مشؤمة مهلكة، إنها حرب على دين المسلم، كما قال ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضاء هى الحالقة، أما إنى لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[٢].

ولقد بين ﷺ ما تصير إليه هذه الخصال فى قوله: «أنتم اليوم إخوان بنعمة الله، وأنتم يومئذ أعداء يضرب بعضكم رقاب بعض» إن الدنيا إذا فتحت على الأمة واستكثروا منها تعارضت مصالحهم، فتباغضوا وتقاتلوا، فطلاب الدنيا مصالحهم متعارضة، وطلاب الآخرة مصالحهم متعاضدة.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

فى وقت كانت الأمة الإسلامية قد حماها الله الدنيا، فكانوا متقللين من الدنيا أيما تقلل، وكانوا حريصين على الآخرة كل الحرص، كانوا متقللين فى مطعمهم ومشربهم، فى ملبسهم ومسكنهم، كانوا يخافون

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية عن الحسن مرسلاً ١/ ٣٤٠.
(٢) رواه البزار.

الدنيا على دينهم وآخرتهم، وبكل حزم كانوا يستعدون لآخرتهم، دليلهم فى الحياة قوله ﷺ: «ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يوارى عورته، وجلف الخبز[1] والماء»[2] أى ما زاد عن الثلاثة هذه فسوف يسأل عنه، ويحاسب عليه، كما قال سبحانه:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[3].

فى هذا الوقت يخبرهم رسول الله ﷺ أنه سيأتى وقت على الأمة تفتح عليهم الدنيا، فيتوسعون فى مطعمهم ومشربهم، وملبسهم ومسكنهم، ويستبعد الصحابة ويستغربون، حتى إنهم يقولون: «نصيب ذلك ونحن على ديننا؟» فيقول ﷺ لهم: «نعم»[4].

ويتحقق ما أخبر به ﷺ، ويقع الأمر كما أخبر، وتفتح الدنيا على الأمة، ويتوسعون فيها توسعًا كبيرًا:

ففى مطعمهم يتحقق ما أخبر به ﷺ تمامًا، فيأكل المسلم أكثر من مرة فى اليوم، ويصف الحديث حال الكثيرين تمامًا، إذ يقول ﷺ: «أنتم اليوم خير، أم إذا غدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم، وريح عليه بأخرى»[5] تقدم له الوجبات الدسمة فتوضع بين يديه صحفة، وترفع أخرى، قد ملئت الصحاف بالثريد واللحم أو بالأرز واللحم، وقد يضاف إلى ذلك أو يصاحبه أشياء وأشياء، وتُفُنِّنَ فى صناعة اللحم، وتعدد أنواع الثريد، فكثرت الأطعمة وتنوعت، وتعددت وتعقدت والمسلمون يَقْبَلون ذلك، ناسين الهدى الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابُه.

(١) الخبز الخشن الغليظ، أو الذى يؤكل وحده، بدون إدام.

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ٧/ ٤ ـ ٥.

(٣) آخر سورة التكاثر.

(٤) هذه رواية الحسن فى الحلية ١/ ٣٤٠.

(٥) رواية على بن أبى طالب عند أبى يعلى، وقد تقدمت.

وفى ملبسهم أصبح المسلم عنده الكثير من الملابس، منها الداخلى، ومنها الخارجى، ومنها ما هو للأسفار، وما هو للإقامة، ومنها ما هو للبيت، وما هو للخروج، بل إنه يلبس للخروج فى اليوم الواحد أكثر من لباس، فلباس فى الصباح، ولباس لما بعد الظهيرة، كما أخبر ﷺ «كيف بكم إذا غدا أحدكم فى حلة، وراح فى حلة».

ولم تكتف الروايات ببيان تعدد الملابس عند المسلم، وإنما بينت أنها من الأقمشة الفخمة الغالية، فقد جاء فى رواية طلحة النضرى «وتلبسون مثل أستار الكعبة» ثم يقول أحد رجال الإسناد لتلميذه: هل تدرى ما كان أستار الكعبة يومئذ؟ فيقول: لا. فيقول الشيخ: ثياب بيض كان يؤتى بها من اليمن[1].

وفى مسكنهم يتحقق أيضًا ما أخبر به ﷺ، فكثرت الفرش والستائر، حتى أصبحت البيوت مَكْسُوَّة مستورة، كما تكسى الكعبة وتستر، فلا تقلل من الدنيا، ولا حساب لإنفاق المال، وإنما توضع الستارة بمقدار الجدار، تستره كله من أعلاه إلى أسفله، من أوله لآخره، بل ظهر ستر الجدر بأقمشة تلصق بها، والقارئ ليس بحاجة لبيان إلى أى حد تحقق هذا الحديث، فالكل يدرك أن حديثه ﷺ قد تحقق فى أهل زماننا تمامًا، تحقق بكل حقائقه، فى المطعم والملبس والمسكن.

وهذا من معجزاته ﷺ، فلقد أخبر بالأمر فى وقت لا يتوقع حصوله. فوقع كما أخبر.

وإذا كانت الأمور التى أخبر ﷺ فى هذا الحديث أنها ستكون، قد وجدت، وهذه معجزة له ﷺ، ففى هذا الحديث معجزة أخرى له ﷺ، وهى قوله: «أنتم اليوم خير منكم يومئذ. ثم بين لهم تفصيل ذلك، وهو

(١) رواية النضرى هذه عند الحاكم ٥٤٨/٤ ـ ٥٤٩. وقد سبقت هنا.

أنهم فى زمنه ﷺ كانوا إخوانًا بنعمة الله، وأما عندما تفتح عليهم الدنيا، فسيصيرون متحاسدين متقاطعين، متباغضين، يقتل بعضهم بعضًا. ولقد كانوا فى زمنه ﷺ لا يتصورون أن يقتل المسلم أخاه، ومن هنا استغربوا، فحينما حدثهم ﷺ «إن بين يدى الساعة لهرجًا» قال أبو موسى: ما الهرج؟ قال: «القتل». فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، إنا نقتل الآن فى العام الواحد من المشركين كذا وكذا، فقال ﷺ «ليس بقتل المشركين، ولكن يقتل بعضكم بعضًا، حتى يقتل الرجلُ جاره، وابنَ عمه، وذا قرابته «فقال بعض القوم: يا رسول الله، ومعنا عقولنا ذلك اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا. تنزع عقول أكثر ذلك الزمان، ويخلف له هباء من الناس لا عقول لهم»[(١)].

لقد استبعد الصحابة أن يقتل المسلم أخاه المسلم، ولم يتصوروه، فكيف يقع هذا والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [(٢)]، إنه أمر يرونه مستحيلاً ولذا لما أخبرهم ﷺ بظهور القتل، ظنوه قتل المسلم لعدو من أعدائه غير المسلمين، فلما أخبرهم ﷺ أنه قتل المسلم أخاه المسلم، تساءلوا أيكون فى القاتلين عقل؟ إنهم لا يتصورون هذا أبدًا. إلا أنه ﷺ يخبر أنه سيكون، سيكون هذا الذى استبعده الصحابة، سيكون هذا الأمر الذى لا يتصور فى زمنه ﷺ، وفعلاً يتحقق ما أخبر به ﷺ، فالناس يستكثرون من الدنيا، وقد فتحت عليهم، فتحاسدوا، كل منهم يريد أن يكون الشىء له لا لغيره، وحرصًا على الدنيا لم يبق لصلة الرحم نصيب، ولتعارض المصالح تباغضوا وتباعدوا وزاد الأمر عن هذا

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن باب التثبت فى الفتنة ٢/١٣٠٩.

(٢) سورة النساء آية ٩٣.

فتقاتلوا، يحسد الرجل غيره على المنصب والمركز، ويحسد الرجل غيره على مبنى أقامه، أو حظ من الدنيا أصابه، فانتشرت البغضاء بين الناس، حتى لربما قتل بعضهم بعضًا، قتل بعضهم بعضًا من أجل عرض من الدنيا، وجهلوا أن قتل المؤمن كبيرة بل من أكبر الكبائر.

وأيضًا تحقق ما أخبر به ﷺ، فكان أهل زمانه الذين لم تفتح عليهم الدنيا، والذين عاشوا دنياهم من أجل آخرتهم، كانوا أفضل من أهل الأزمنة الذين فتحت عليهم الدنيا، إذ أن أهل هذه الأزمنة لم يستخدموا انفتاح الدنيا عليهم كما كان الصحابة يأملون يستخدمونها فى الطاعات والقربات، وإنما استخدموها فى الملذات والشهوات، وألهاهم التكاثر، فتحاسدوا، وتقاطعوا، وتدابروا، وتقاتلوا، وتحقق ما أخبر به ﷺ فى كل ذلك.

ورسول الله ﷺ إذ يخبر بظهور هذه الأمور فى الأمة، من الاستكثار من الدنيا، ومن وقوع البغضاء بين المستكثرين، إنما يحث الأمة على التقلل من الدنيا، فإن الاستكثار منها أوله حساب، وآخره عذاب، فمهما كثر مال المسلم فلينفقه فيما هو مشروع، وبقدر الحاجة ليس إلا، فإن كان ماله كثيرًا، فلينفق الكثير منه فى طاعة الله، لا فى الشهوات والملذات، كما قال ﷺ: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»[1].

وأيضًا فإنه ﷺ يحذر الأمة من أن يصل الاستكثار من الدنيا بهم إلى حد التباغض والتقاطع والتقاتل، وإنما عليهم أن يمتثلوا قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2].

(١) أخرجه أحمد ٤/١٩٧ ـ ٢٠٢.

(٢) سورة الحجرات آية ١٠.

● الدروس المستفادة من الحديث:

* فى هذا الحديث أنه سيأتى على الأمة زمان يتوسعون فى المأكل والملبس والفرش، يستكثرون من الدنيا.

* المستكثرون من الدنيا متباغضون متقاطعون، متدابرون متقاتلون، لا يجمع التكاثر بينهم، ولا تؤلف النعم بين قلوبهم، وإنما يدفعهم التكالب على الدنيا إلى التناحر والتقاتل، وفى هذا تحقير للاستكثار، وبيان لأوجه شَيْنِه.

* المتقللون من الدنيا خير من المستكثرين، فإنهم مجتهدون فى طاعة الله متحابون بجلاله سبحانه وتعالى وفى هذا مدح للتقلل، وبيان لأوجه زَيْنِه.

* فى هذا الحديث معجزة له ﷺ، فلقد تحقق ما أخبر به، فأصبح الكثير من المسلمين يلبس أكثر من لباس فى اليوم الواحد، وتقدم له أكثر من وجبة فى اليوم، والوجبات قوية دسمة، وستر الكثيرون بيوتهم.

* وفى هذا الحديث معجزة ثانية له ﷺ، فإن الذين كثرت عليهم النعم، واستكثروا من الدنيا، لم يكونوا أفضل من المتقللين من الدنيا، وإنما كان المتقللون أفضل بكثير، كان همهم العلم والعمل والجهاد والنصرة، أما المستكثرون فهمهم جمع المال والتكاثر، والتباهى والتفاخر، وهؤلاء شر الأمة، كما قال ﷺ: «سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام، ويشربون ألوان الشراب، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدقون فى الكلام، فأولئك شر أمتى، الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم»[1].

---

(١) أخرجه البزار، كذا فى المجمع ١٠/ ٢٥٠.

* فى هذا الحديث معجزة ثالثة له ﷺ، فإن الذين استكثروا من الدنيا لم يكونوا إخوانا كما كان المتقللون، وإنما صاروا أعداء يقتل بعضهم بعضًا، كما أخبر ﷺ.

* * *

الإخبار عن شيوع الترف

عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: قال النبى ﷺ: «هَلْ لَكُمْ مِنْ أَنْمَاط؟ قلت: وَأَنَّى يَكُونُ لَنَا الأنمَاطُ؟ قال: أَمَا وإِنَّهَا سَتَكُونُ لَكُمُ الأَنْمَاطُ» فَأَنَا أَقُولُ لَهَا ـ يعنى امْرَأَته ـ أَخِّرِى عَنَّا أَنْمَاطَكِ، فَتَقُولُ: أَلَمْ يَقُلْ النَّبِىُّ ﷺ: إِنَّهَا سَتَكُونُ لَكُمُ الأَنْماطُ، فَأَدَعُهَا»[1].

● **المعانى:**

«أَنْمَاط» واحدها نَمَط. والنمط: نوع من الثياب، له خمل رقيق، مصبوغ بحمرة أو غيرها، أما الأبيض فلا يقال له نمط، ويعرف النمط فى زماننا باسم «المخمل» أو «القطيفة» وهذا النوع من الأقمشة مشهور شائع، ويستعمل فى كسوة الفراش، فيجعل كسوة للوسائد، وللمساند، وغيرها زينة ورقة، ويستعمل أيضًا فى ستائر البيوت وغيرها فى المكاتب والمحال، بل والسيارات والمراد به هنا كسوة الفراش.

«أَنَّى يكون لنا الأنماط» أى من أين تكون لنا الأنماط؟ إن الأنماط من الترف والنعيم، فمن أين تكون لهم، وهم المتقللون من الدنيا، المستعدون للآخرة؟

«فأنا أقول لها» أى فتحقق ما أخبر به ﷺ، وأصبح لنا أنماط، حتى دخلت بيتى، فأقول لامرأتى: أَخِّرِى عنا أنماطك.

---

(١) أخرجه البخارى فى المناقب باب علامات النبوة فى الإسلام ٦/٦٢٩ رقم ٣٦٣١، وفى النكاح باب الأنماط ونحوها للنساء ٩/٢٢٥ وأخرجه مسلم فى اللباس باب جواز اتخاذ الأنماط ٣/١٦٥٠.

«أَخِّرى عنا أنماطك» أى أَبْعدى عنا فراشك الناعم أخرجيه من بيتى، وإنما طالبها بإبعاد الأنماط لأنه فهم أنها من التوسع فى الدنيا،وهذا لا يُقْبِل عليه طالب الآخرة، وإنما يكرهه كراهة تنزيه، لا كراهة تحريم.

«ألم يقل النبى ﷺ : إنها ستكون لكم الأنماط» إنما فهم جابر من هذا الحديث، أن الرسول ﷺ أخبر أن أمته ستتوسع فى المفارش، وستكون لهم الأنماط، هذا ما أفاده الحديث فى فهم جابر ـ رضى الله عنه ـ أما زوجته ففهمت أن الرسول ﷺ أخبر أنه ستكون لهم الأنماط، ثم استنتجت من هذا إباحتها. وما ذهبت إليه غير صحيح، فإخباره ﷺ بوجود الشىء لا يدل على إباحته.

وإنما طلب جابر منها إبعاد الأنماط عنه، لأنه علم أنها من حظوظ النفس، والمؤمن ليس حريصًا على ذلك.

«فأدعها» أى فأتركها. أى فيترك زوجته وأنماطها، دون زجر أو تعنيف، لأنه كان يرى أن الأنماط مكروهة كراهة تنزيهية: والأظهر أنه كان قدرًا يسيرًا، ليس موغلاً فى الإسراف.

• راوى الحديث:

جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصارى: الصحابى الجليل، والإمام الكبير، عاش فى الإسلام دهرًا، وأدرك ميلاد الدعوة الثانى، فحضر مع أبيه بيعة العقبة الثانية حينما جاء عدد من أهل المدينة، وقابلوا رسول الله ﷺ عند العقبة المجاورة للجمرات، على يمين المتجه إلى مكة، وفيها الآن مسجد متواضع، وعند العقبة بايع الأنصار رسول الله ﷺ على النصرة، والسمع له والطاعة، وكان جابر بن عبد الله هذا واحدًا من هؤلاء المبايعين، وعليه فلقد أسلم قبل الهجرة، وتوفى سنة (٧٨) ثمان

وسبعين، فعاش فى الإسلام قرابة ثمانين عامًا، تعلم من الكبار، وعلّم الخلف، فكان مفتى المدينة فى زمانه، فلقد عاش بعد موت الكبار، بعد موت عبد الله بن عمر، وبعد موت أبى هريرة.

وحينما أراد جابر أن يذهب مع الرسول ﷺ فى غزوة بدر، منعه أبوه، وأبقاه مع أخواته البنات وكن تسعا، وذهب أبوه مجاهدًا، وفى غزوة أحد تكرر الموقف، وخرج والد جابر مع رسول الله ﷺ ضمن جيش الإسلام، أما جابر فبقى مع أخواته، واستشهد الأب، وعلم جابر فأسرع إلى جيش الإسلام، يحدثنا عن ذلك فيقول «لما قتل أبى جعلت أكشف الثوب عن وجهه أبكى وينهوننى، والنبى ﷺ لا ينهانى، فجعلت عمتى فاطمة تبكى، فقال النبى ﷺ «تبكين أو لا تبكين، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه»[1] والمعنى: أنه لا عبرة بالبكاء، وإنما الأحرى أن يعمكم السرور، فلقد قبل الله جهاده فأكرمه فى آخرته، حتى إن الملائكة تحيط به إكرامًا، وتظله احترامًا، فهنيئًا لمثل ذلك، يُفرح له، ولا يبكى عليه، ولقد حدث أن أجريت عين ماء عند قبور شهداء أحد بعد استشهادهم بزمن، فانكشف عن والد جابر قبره، فأسرع إليه جابر، فوجده طريًا لم يَبْل، ولا غرابة فى ذلك فإنه تصديق قول الله تعالى: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[2].

وما أن مات عبد الله والد جابر إلا لبس جابر لأمة الجهاد، فما من

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز باب الدخول على الميت بعد الموت ٣/ ١١٣ وفى غير هذا الموضع.

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٩ - ١٧١.

مشهد مع رسول الله ﷺ إلا شهده.

ومع حرصه على الجهاد كان جابر يقوم على أخواته خير قيام، يعولهن، وينفق عليهن، حتى إن رسول الله ﷺ كان يبره ويرحمه بسبب ذلك، لقد ترك حظ نفسه من أجل أخواته البنات هؤلاء، فتزوج امرأة ثيبًا، لتكون ذا خبرة بالحياة لتدبر أمورهن، ولم يتزوج بكرًا، وكان يود ذلك، فآثر مصلحة أخواته على حظ نفسه.

وكان جابر - رضى الله عنه - حريصًا على مجالس العلم، فأخذ عن رسول الله ﷺ علمًا كثيرًا، وسمع من كبار الصحابة، فسمع من أبى بكر، وعمر، وعلى، ومعاذ، وأبى هريرة.

وكما تعلم علم، فكان له درس جامع، وتتلمذ عليه الكثيرون من أمثال: سعيد بن المسيب، وعطاء بن أبى رباح، والحسن البصرى، ومجاهد، والشعبى.

وقد أخرج الأئمة حديثًا عن جابر بن عبد الله يبين مدى حرصه على العلم، وفيه موعظة لأهل زماننا، وأن عليهم أن يجعلوا أطيب أوقاتهم لدراسة الإسلام وفهمه، فيقول جابر - رضى الله عنه - بلغنى حديث رجل[1] من أصحاب رسول الله ﷺ، فابتعت[2] بعيرًا، فشددت عليه رحلى، ثم سرت إليه شهرًا، حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أنيس الأنصارى، فأتيت منزله، وأرسلت إليه: إن جابرًا على الباب، فرجع إلىّ الرسول، فقال: جابر بن عبد الله؟ فقلت: نعم، فخرج إلىّ فاعتنقته، واعتنقنى. قال: قلت: حديث بلغنى عنك، أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى المظالم، لم أسمعه أنا منه[3]، قال: سمعت رسول الله

---

(١) أى حديث يرويه صحابى عن رسول الله ﷺ.

(٢) اشتريت.

(٣) يعنى: هذا الذى جئتك من أجله.

ﷺ يقول «يحشر الله تبارك وتعالى العباد ـ أو قال الناس، شك همام[1]، وأومأ بيده إلى الشام[2] ـ حفاة، عراة، غرلا[3]، بُهْما. قال: قلنا: ما بُهْما؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُد، ويسمعه من قَرُب: أنا الملك الديّان، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، حتى اللطمة، ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة، قال: قلنا له: كيف وإنا نأتى الله عز وجل حفاة عراة غرلا؟ قال: بالحسنات والسيئات»[4].

لم يقنع جابر أن يسمع الحديث ممن سمعه من عبد الله بن أنيس، وإنما اشترى جملاً، وسافر عليه إلى الشام، استغرقت الرحلة شهرًا ذهابًا وإيابًا وجابر يتحمل ذلك، بل يستعذبه، فى سبيل أن يسمع حديث رسول الله ﷺ ممن سمعه منه ﷺ مباشرة، لا ممن سمعه ممن سمعه من رسول الله، أى بدل أن يكون بينه وبين رسول الله راويان، أحب أن يكون بينه وبين رسول الله ﷺ راو واحد.

وهذا يبين مدى حرص جابر على العلم، وهذا شأن سلف الأمة كانوا حريصين على تعلم العلم وتعليمه.

ومما مَنَّ الله به على جابر ـ رضى الله عنه ـ استغفار رسول الله ﷺ له عدة مرات، يقول جابر: استغفر لى رسول الله ﷺ ليلة البعير خمسًا

---

(١) أحد رواة الحديث شك، هل شيخه الذى سمع الحديث منه قال: يحشر الله العباد أو قال: يحشر الله الناس؟

(٢) إنما أشار بيده إلى الشام لأنها أرض الحشر.

(٣) أجسادهم كاملة، حتى ما قطع منهم عند الختان قد عاد إليهم.

(٤) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١/١١١، وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٤/٥٧٤ ـ ٥٧٥، وصححه وأقره الذهبى وراجع كتاب «السنة النبوية مكانتها وعوامل بقائها» ص ٨١.

وعشرين مرة»[١] فلقد كان جابر مع رسول الله ﷺ فى سفر، وكان يركب جملاً بطيئًا، تأخر به عن الصحابة، فجاءه رسول الله ﷺ وسأله «ما لبعيرك» فقال عليل، فزجره رسول الله ﷺ ودعا له، فأصبح أقوى الجمال، فقال له رسول الله ﷺ «أفتبيعنيه»؟ فباعه جابر لرسول الله ﷺ على أن يركبه إلى المدينة، فلما وصل المدينة ذهب بالجمل إلى رسول الله ﷺ فأعطاه ﷺ الثمن، ولم يأخذ منه الجمل[٢]، أراد بذلك ﷺ أن يبره، ويساعده فى أمور حياته.

فى هذه الليلة، وأثناء الحديث الذى دار بين رسول الله ﷺ وبين جابر ابن عبد الله استغفر رسول الله ﷺ ـ وهو المجاب الدعوة ـ استغفر لجابر خمسًا وعشرين مرة، قائلاً فى كل مرة «والله يغفر لك» ولقد كان جابر يعرف قدر هذه الدعوة، «والله يغفر لك» مما جعله يَعُدُّها، ويتحدث بها، رضى الله عن جابر بن عبد الله وعن أبيه، وعن الصحابة والتابعين، وجزى الجميع خيرًا عما قدم أو يقدم لخدمة ونصرة الإسلام.

• شرح الحديث:

خلو حياة الصحابة من الترف:

تزوج جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ ثم لقى رسول الله ﷺ، فسأله ﷺ : «هل لكم من أنماط؟ وفى رواية أخرى «أتخذت أنماطًا؟» بمعنى: هل اتخذتم ظهارات للفرش؟ وبلفظ آخر: هل توسعتم فى

---

(١) أخرجه الترمذى فى المناقب، مناقب جابر بن عبد الله ٣٥١/١٠ تحفة الأحوذى، وقال : حسن غريب صحيح.

(٢) راجع قصة الجمل فى صحيح مسلم كتاب المساقاة باب بيع البعير واستثناء ركوبه ١٢٢١/٣ ـ ١٢٢٤.

الفراش؟ ويجيب جابر قائلاً: وأنى يكون لنا الأنماط؟» أى من أين تكون لنا المفارش الناعمة؟ ومن أين تأتينا المفارش ذات الخمل الرقيق، والألوان الزاهية؟ إننا أمة يحثها دينها على التقلل من الدنيا وحطامها، وأن عليها أن تتزود للآخرة، إننا الأمة التى قال الله لها: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[١] إننا الذين سمعنا قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [٢] إننا يا رسول الله الذين قال الله لنا: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [٣] فكيف تكون لنا الأنماط يا رسول الله؟

وسبب آخر لاستبعاد جابر أن تكون لهم الأنماط، هو أن رسول الله ﷺ وهو قدوتهم كان متقللاً من الدنيا جدًا، ففى فراشه ﷺ تقول أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذى ينام عليه أدما[٤] حشوه ليف»[٥].

وتقول أيضًا: «كان وسادة رسول الله ﷺ التى يتكئ عليها من أدم حشوها ليف»[٦] . ويقول عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فدخلت على النبى ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير[٧]، ليس بينه وبينه فراش، قد أثّر الرمالُ بجنبه، متكئ على وسادة من أدم حشوها ليف، ثم رفعت بصرى فى بيته فوالله ما رأيت فيه شيئًا يرد البصر، غير أهبة

---

(١) آخر سورة التكاثر.

(٢) سورة لقمان آية ٣٣.

(٣) سورة البقرة آية ١٩٧.

(٤) الجلد المدبوغ، واحده أديم.

(٥، ٦) أخرجهما مسلم فى اللباس باب التواضع فى اللباس ٣/ ١٦٥٠.

(٧) أى على نسج السرير، وكان السرير فى زمنه ﷺ ينسج وسطه بالحبال وخوص النخل.

ثلاث[١]. فقلت: ادع الله فليُوسِّع على أمتك، فإن فارس والروم وُسِّع عليهم، وأُعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله. وكان متكئًا فقال: أو فى شك أنت يا ابن الخطاب[٢]؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتُهم فى الحياة الدنيا، فقلت: يا رسول الله، استغفر لى»[٣].

وفى فراش ابنته ﷺ فاطمة الزهراء، حينما زوجها على بن أبى طالب، يقول على ـ رضى الله عنه ـ «جهز رسول الله ﷺ فاطمة فى خميل وقربة، ووسادة حشوها إذخر»[٤] أما الخميل فهو القطيفة، وهى كل ثوب له خمل من أى شىء كان، وكان الخميل هذا غطاء الزوجين الكريمين، وأما الوسادة فكانت محشوة بنوع من النباتات يسمى الإذخر، والروايات كثيرة فى جهاز الزهراء، وكلها تدل على صدق الزهد فى الدنيا، فقد كان فراش البيت الحصى، وحينما اشتكت إلى رسول الله ﷺ ما تعانيه من العمل بالرحا، لطحن الشعير وطلبت منه جارية، وقد كان عائدًا من غزوة، وكانت الجارية ميسورة، لكنه ﷺ لم يعط ابنته جارية، وحثها على عمل هو الخير كله، نصحها بالتسبيح والتحميد والتكبير.

ومن هنا ـ النصوص التى تحث على التقلل من الدنيا والتزود للآخرة، وهَدْى رسول الله ﷺ الذى كان عليه ـ لم يكن الصحابة حريصين على متاع الدنيا الزائل، لا على الفراش ولا على غيره، ولا على الأنماط، ولا على غيرها، لا فى حياتهم عامة، ولا فى زواجهم وأفراحهم، ومن هنا

---

(١) ثلاثة جلود تدبغ.

(٢) أتشك فى أن الأفضل أن يوسع الله على العبد فى الآخرة، لا فى الدنيا.

(٣) أخرجه البخارى فى المظالم باب الغرفة والعلية المشرفة ٥/ ١١٤، وفى النكاح باب موعظة الرجل ابنته ٩/ ٢٧٨ مطولاً.

(٤) أخرجه النسائى فى النكاح باب جهاز الرجل ابنته ٦/ ١١٠.

تساءل جابر، وأنَّى يكون لنا الأنماط؟ إننا لم نمل إلى الدنيا، حتى تدخل الأنماط فى حياتنا، لا صنعناها،ولا استجلبناها، فحياتنا للجهاد، ونقتصر من الدنيا على القوت[١]، منهاجهم قول رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا[٢]، وقنّعه الله بما آتاه»[٣].

ويصور شيئًا من واقعهم ما روى عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال لى رسول الله ﷺ: «أتعلم أول زمرة[٤] تدخل الجنة من أمتى؟ قال: الله ورسوله أعلم، فقال: المهاجرون يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة، ويستفتحون[٥] فيقول لهم الخزنة:أو قد حوسبتم؟ فيقولون بأى شىء نحاسب، وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا فى سبيل الله، حتى متنا على ذلك؟ قال: فيفتح لهم، فيقيلون[٦] فيه أربعين عامًا قبل أن يدخلها الناس»[٧].

وإذا كان الصحابى الجليل جابر بن عبد الله قد أنكر وجود الأنماط فى حياتهم، فإن رسول الله ﷺ أخبره، أن الأنماط ستكون لهم يومًا من الأيام، وأن الدنيا ستقبل عليهم، وسيتوسعون فى الفراش، حتى تظهر الأنماط، وتدخل حياتهم. وطال الزمن بجابر، وظهرت الأنماط حتى دخلت بيت جابر نفسه، فيبتعد عنها رافضًا لمتاع الدنيا والتوسع فيها، حتى إنه يقول لامرأته: أَخِّرِى عنا أنماطك. لكنها تراجعه الحديث متعللة بأن رسول الله ﷺ قد قال: «إنها ستكون لكم الأنماط» فيتركها جابر.

---

(١) ما يسد الرمق، أو ما يعيش به الإنسان.

(٢) بقدر حاجته.

(٣) أخرجه مسلم فى الزكاة باب فى الكفاف والقناعة.

(٤) جماعة.

(٥) يطلبون أن يفتح لهم.

(٦) يقيل معناها: يقضى وقت القيلولة أى الظهيرة، ولكن معناه هنا أعم، إذ معناه: يقيمون.

(٧) أخرجه الحاكم فى الجهاد باب أول زمرة تدخل الجنة المهاجرون ٢/ ٧٠ وصححه.

• فقه الحديث:

أخبر ﷺ فى هذا الحديث أن الأنماط ستوجد، وهذا لا يعطيها حكمًا.

وقول جابر لامرأته «أخرى عنا أنماطك» يدل على أنه كان يرى أن الأنماط تكره كراهة تنزيهية، لا كراهة تحريمية، ولا محرمة، وإلا كان منع أهله منها.

وعليه فإن الأنماط، والتى هى ظهارة الفراش، وكسوته بالقماش الناعم الغالى إنما تكره كراهة تنزيهية. والشأن بأهل الدين والتُّقى البعد عنها، فإنها من زينة الدنيا وملهياتها.

وفيما سقته فى شرح الحديث من أخبار المصطفى ﷺ وأخبار الصحابة ما يفيد أنهم كانوا يتقللون من الدنيا ويستعدون للآخرة، وهم الذين يُقتدى بهم.

على أن الذى يُنْصَح به أهلُ زماننا أن لا يسرفوا فى الفراش، فلا داعى للحرص على الغالى، وإتلاف الأموال فيما لا داعى له، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد[١] حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل[٢]، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»[٣] فالمسلم محاسب على أمواله، وهو مكلف أن يكتسبها من حلال، وأن ينفقها فى طاعة، وليس من الطاعة الإسراف فى حاجة الحياة، فقد قال ربنا سبحانه وتعالى: **﴿يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾**[٤].

---

(١) أى لا ينصرف من موقف الحساب.

(٢) أى هل عمل به أو لا.

(٣) أخرجه الترمذى فى أول أبواب صفة القيامة ٧/ ١٠١ وقال حسن صحيح.

(٤) سورة الأعراف آية ٣١.

وأيضًا لا داعى للحرص على الكثير من الفراش، فقد قال ﷺ: «فراش للرجل، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان»[١] ومعنى كون الرابع للشيطان أن الفراش الزائد عن الحاجة إنما هو للمباهاة والاختيال، للالتهاء بزينة الدنيا وزخرفها، وما كان بهذه الصفة فهو مذموم، وكل مذموم يضاف إلى الشيطان، لأنه يرتضيه ويوسوس به، ويحسنه ويساعد عليه، أو أنه للشيطان حقيقة، فيبيت فيه الشيطان ويقيل عليه، والخلاصة أنه يشرع أن تتخذ الأسرة من الفراش بمقدار حاجتها، بعدد أفرادها، وما احتمل من ضيوفها، ولا تزد على ذلك.

وليعلم أهل زماننا أنه يحرم استعمال الأغطية وأقمشة الستائر التى فيها صورة مخلوق حى، فيحرم أن يكون فيها صورة طائر أو حيوان، فعن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت «دخل علىّ رسول الله ﷺ، وأنا متسترة بقرام فيه صورة، فتلون وجهه، ثم تناول الستر فهتكه، ثم قال «إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله»[٢].

والعجب أن الدول التى تصدر الأغطية وأقمشة الستائر للعالم الإسلامى تعمد إلى جعل صور الكائنات الحية فى هذه الأغطية والأقمشة. والذى يترجح عندى أنها تعلم أن هذا مما يحرمه ديننا، فعمدوا إلى إيقاع المسلمين فيما يحرمه دينهم.

على أنه فى الطوق تزيين هذه الأشياء بغير ما حرم الله، فتزين بصورة مسجد أو منزل، أو بتنظيم الألوان. لكنهم لم يجدوا من المسلمين حرصًا، بل ولا فقهًا، فساروا على ذلك، مدركين أن هذا مما يوقعهم فى المعاصى، فيجلب عليهم سخط الله، فلينتبه المسلمون لذلك.

---

(١) أخرجه مسلم فى اللباس باب كراهة ما زاد على الحاجة من الفراش واللباس ٣/ ١٦٥١.

(٢) أخرجه مسلم فى اللباس باب تحريم تصوير صورة الحيوان ٣/ ١٦٦٧.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

فى وقت كانت حياة الأمة للجد والجهاد، للعلم والعمل، مقبلين على الآخرة، معرضين عن الدنيا. فى وقت كان يخرج جيش الإسلام للجهاد، وقوت الجندى فى اليوم ربما كان تمرة واحدة. فى وقت كان الرجل يسافر الأيام والليالى من أجل أن يتعلم مسألة فى دينه، فى هذا الوقت يخبر ﷺ أنه سيأتى زمان تتوسع فيه الأمة فى أمور الدنيا، يستعملون الفرش الكثيرة، الغالية الناعمة، يسرفون فى نواح لا تفيد ، فينصرفون عن نواح هى المفيد، يتركون هَدْى السابقين، من طلب العلم والجهاد، إلى الشهوات وحب الناعم من المعايش.

يخبر ﷺ أنه سيأتى هذا الزمان، ويتحقق ما أخبر به ﷺ ويقع وفق ما أخبر، فتفتح الدنيا على الأمة، وتأخذ منها باليدين، وبكل قوة فتكثر الفرش كثرة عجيبة، تتنوع وتتعدد، وأشياء تستلزم أشياء، وتتعقد أمور الحياة، فتأخذ الناس عن دينهم.

وبما أعلمه الله تبارك وتعالى، ينطق ﷺ بما يفيد أن هذا التوسع لن يتأخر، وإنما سيدرك الصحابة، فيقول «إنها ستكون لكم الأنماط» لكم معشر المخاطبين، معشر الصحابة، وفعلاً يتحقق هذا ويظهر فى عهد الصحابة، فينكرون ويبتعدون، يبغضون هذا التوسع لأنه غير ما كان عليه الحال أيام رسول الله ﷺ وهم يدركون أن الخير ما كان عليه رسول الله ﷺ، يبغضون هذا التوسع لأنه من حظوظ النفس، وحطام الدنيا، وآيات القرآن والأحاديث النبوية تحذر من ذلك.

أما فى زماننا فزاد هذا التوسع واشتد، وفاض الإسراف واحتدّ، وأُغرم الناس بالأنماط والفرش، وبالغوا فى حب الشهوات، والحياة الناعمة

الرقيقة، فكثرت الفرش، لها بطانات وظهارات تصنع من أقمشة، وتكسى بالأنماط، أى القطيفة أو المخمل، حتى إن الناظر ليعجب: ولِمَ كل هذا الاهتمام بالفراش؟ هل هذا سيجعل الأمة تؤدى رسالتها فى نشر الحق والعدل فى أرجاء الأرض؟ هل هذا سيورث الأمة عزا؟ بدهى: لا. والواقع يؤيد ذلك، فمع توسع الأمة فى أمور الدنيا وإعراضها عن أمور الدين تأخرت بعد تقدم، وذلت بعد عز، بل وتكالبت عليها الأمم تتقاسمها وتستعبدها فاللائق بنا هدى رسول الله ﷺ، من الحرص على العلم والطاعات، لا على الفرش والأنماط.

• الدروس المستفادة من الحديث:

* كان الصحابة فى عهده ﷺ معرضين عن الدنيا، مقبلين على دينهم، فعلى الرغم من وجود الفرش الناعمة فى أيامه ﷺ، إلا أنها لم تدخل حياة الصحابة، حتى قال جابر: «وأنى يكون لنا الأنماط»، فاستبعد وجودها فى حياتهم، لا لأنها غير موجودة، ولكن لأن منهجهم الذى يسيرون عليه يرفض دخولها حياتهم. إنهم يعيشون للعبادة والجهاد.

* بين ﷺ فى هذا الحديث أنه سيأتى زمان تفتح فيه الدنيا على الأمة، فيتوسعون فى الفرش، فتصنع ببطانة وظهارة، وظهارتها من الأقمشة الغالية الناعمة (الأنماط). وقد تحقق ما أخبر به ﷺ، منذ عصر الصحابة، أما فى زماننا فزاد وفاض.

* فى هذا الحديث أن هذا التوسع فى الدنيويات ليس من هديه ﷺ، وليس خيرًا، فلو كان خيرًا لرزقه الله تعالى به، ولسأل ﷺ ربه هذا الخير لأمته.

وهو ﷺ إذ يخبر بأن التوسع فى الفراش سيكون، إنما يشير إلى أن اللائق بالأمة أن تميل عنه، وتجعل ميلها وهواها تبعًا لما جاء به ﷺ.

* * *

وختامًا

فواضح من هذه الدراسة أن الله سبحانه وتعالى علّم رسوله ﷺ ما يُصلح الأمة فى كل زمان ومكان، وأن نصوص القرآن والسنة فيها صفة العموم والخلود، فهى نصوص تُصلح كل شئوننا، فى كل زمان ومكان.

وواضح من هذه الدراسة أن الناس منهم من يتمسك بدينه، يتعلمه، ويعمل به، ويُعَلِّمُه، يجاهد عنه وينصره، ويدعو إليه ويعظمه، غير مُبَالٍ بما يتحمل فى سبيل ذلك. وهذا الصنف من الناس مهما قلّ فهو بتأييد الله قوى، لا يخيفه أعداؤه، مهما كثر عددهم أو عُدَّتُهم. وإنما اهتمامه كله بالالتزام بدين الله، والسير على هدى رسول الله ﷺ.

ومن الناس من يتهاون فى دينه، فلا يتعلمه ولا ينصره!!

ومردُّ ذلك فى ضوء الأحاديث المشروحة هنا إلى ما يأتى:

١ ـ الجهل بحقائق الإسلام وما يجب على المسلم نحو دينه، فمن تعلم الإسلام عرف قدره ووثق به، واعتزّ به مهما كلفه ذلك. أما من جَهِله فإنه يكون عكس ذلك، بل ربما زاد جهله فعادى الإسلام.

٢ ـ ظهور الثقافات المختلّة، ثقافات تقوم على المذاهب الضالة والأفكار المنحرفة، أمثال «التجديد» و «الحداثة» و «تنقية التراث» و«التقدمية» و «العلمانية»... إلخ. وأصحاب هذه الثقافات لم يتعلموا الإسلام، وإنما تعلموا غيره، فزعموا غيره الصواب، فراحوا يتمسكون بغيره يظنونه الصواب.

٣ ـ الإقبال على الماديات، وإهمال المعنويات، فالحرص على المال حتى يُجمع من حلال أو حرام، وبذل الجهد كله فى جمعه، والحرص على التنعم والاستكثار من الدنيا، والحرص على شهوات النفس وإغراء الهوى، كل ذلك يؤدى إلى إهمال جانب الدين، والانخراط فى الماديات والشهوات.

إن الأحاديث المشروحة هنا تطمئن المتمسكين بدينهم، بأن الله يعزهم وينصرهم، وترشد المتهاونين دينيًا إلى أن يتعلموا دينهم، وأن يتمسكوا به، فهذا هو الصراط المستقيم الموصل إلى حب الله ورسوله.

إنها أحاديث حذرت من طرق الضلال والغواية، وحثت على طريق الحق والهداية.

أسأل الله الكريم أن يوفقنا للعمل بالكتاب والسنة.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على عبدك ورسولك سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

إلى هنا انتهى القسم الأول، ويليه القسم الثانى «الأمة الإسلامية»

أسأل الله العون على التمام وعلى كل خير

* * *

فهرس الموضوعات

* * *

كتب للمؤلف

- طرق تخريج حديث رسول الله ﷺ، طبع دار الاعتصام.
- طرق تخريج أقوال الصحابة والتابعين. طبع المؤلف، ويطلب من مكتبة الإيمان.
- المدخل إلى السنة النبوية «بحوث فى القضايا الأساسية عن السنة النبوية» طبع دار الاعتصام.
- مسند على بن الجعد «أحد شيوخ البخارى» تحقيق ودراسة. طبع مكتبة الفلاح بالكويت.
- السنة النبوية: مكانتها، وعوامل بقائها، وتدوينها. طبع دار الاعتصام.
- علم الجرح والتعديل، قواعده وأئمته. طبع المؤلف، ويطلب من مكتبة الإيمان.
- السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة. طبع نهضة مصر، وطبع المؤلف. ويطلب من مكتبة الإيمان.
- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين للنووى. تحقيق ودراسة. طبع دار القرآن «نفد».
- كيف نصوم رمضان «رسالة صغيرة» طبع دار الاعتصام.
- رسالة إلى كل مريض «رسالة صغيرة» طبع دار الاعتصام.
- الرد على د/ مصطفى محمود فى إنكار الشفاعة، والرد على لواء متقاعد/ محمد شبل فى إنكار يوم عرفة «رسالة صغيرة» طبع دار الاعتصام.
- دفع أباطيل د/ مصطفى محمود فى إنكار السنة النبوية. طبع دار الاعتصام.
- د/ مصطفى محمود إلى أين؟ «رسالة صغيرة» طبع دار الاعتصام.
- دفع الشبهات عن السنة النبوية. الناشر مكتبة الإيمان.
- معجزات الرسول ﷺ التى ظهرت فى زماننا «القسم الأول: الإسلام» وهو هذا الكتاب.
- معجزات الرسول ﷺ التى ظهرت فى زماننا «القسم الثانى: أمة الإسلام» تحت الطبع.